تاريخ لبنان الدبلوماسي

من

عــام ١٨٤٠ حتى عــام ١٨٦١

تاليف

خليــل محمــد عيتانــي

(رسالة لنيل شهادة استاذ علوم فــي التاريخ)

بيروت عــام ١٩٥١



الفهرست

العنوان : تاريخ لبنان الدبلوماسي من ١٨٤٠ لحتى ١٨٦١

الصفحة	
٦ ــ ٥	لائحة المصادر
١ ــ ٥	تمهيد
	الفصل الاول
١ ــ ٦٣	مقدمة عامة
	القسم الاول
١ ــ ؟	التنظيمات
١ ــ ١٥	١) حركة الاصلاح في تركيا بين ١٨٣٨ و ١٨٥٢
	١) تركيا بين ١٨٥٢ و ١٨٦٠
	٣) معاهدة باريس والامر الشريف الهمايوني الصادر في ١٨ شباط سنة ١٨٥٦ .
	القسم الثاني
١٥ ــ ٣٥	نظرة عامة في تاريخ لبنان من ١٨٤٠ الى ١٨٦٠
	١) انقلاب اللبنانيين على ابراهيم باشا
	٢) تعيين الامير بشير قاسم
	٣) بريطانيا على مسرح السياسة اللبنانية
	٤) السياسة التركية
	٥) موقف المسيحيين والدروز من الامير بشير قاسم
	٦) حوادث سنة ١٨٤١
	٧) تدخل قناصل الدول
	٨) ايفاد السفر عسكر مصطفى باشا
	٩) تعيين عمر باشا النمساوي
	١٠) ثورة كسروان
	١١) الدروز يحاولون التفاهم مع النصارى
	١٢) تقسيم لبنان الى قائمقاميتين

الصفحة

١٣) فشل النظام الجديد
١٤) عودة الاضطرابات
١٥) ابعاد شكيب افندي للتحقيق
١٦) القلاقل في كسروان
١٧) محاولة تعاون الاقطاعيين في القائمقاميتين
١٨) نظام شعبي
١٩) طانيوس شاهين
٢٠) ابتداء الفوضى
٢١) السياسة التركية
٢٢) ابتداء المذابح والتسلح
٢٣) بعض الاستنتاجات
٢٤) نظرية المستر ريتشارد ايدوردس
٢٥) رد جوبلان

القسم الثالث

٣٥ ــ ٥٤ مجازر سنة ١٨٦٠
١) مقدمات هذه المجازر
٢) حادثة بيت مرى الاولى
٣) معركة عين دارا
٤) الاستعانة بدروز حوران
٥) مذبحة حاصبيا
٦) مذبحة راشيا الوادي
٧) مذبحة دير القمر
٨) مذبحة المتن والساحل
٩) حوادث صيدا وضواحيها
١٠) حوادث موقعة زحلة
١١) حوادث بيروت
١٢) مذبحة دمشق

الصفحة

القسم الرابع

٥٥ ـ ٦٢ العلاقات بين لبنان وفرنسا حتى اواسط القرن التاسع عشر
١) في العهد الصليبي
٢) بعد القرن الرابع عشر
٣) فرانسوا الاول وسليمان القانوني
٤) الامتيازات
٥) قنصليات فرنسا ومراكزها التجارية
٦) سليمان القانوني والموارنة
٧) المبشرون الفرنسيون
٨) الرحالة الفرنسيون
٩) البعثات العلمية اللبنانية
١٠) تطور اهتمام فرنسا بالموارنة وتعيينهم في قنصلياتها

الفصل الثاني

٦٣ ـ ١٦٢ الاحلاات التي ادت الى قيام المتصرفية

القسم الاول

٦٣ ـ ٨٤ ازمة عام ١٨٤٠
١) أزمة ١٨٤٠ بوجه عام
٢) تطورات ازمة ١٨٤٠ بالنسبة الى لبنان

القسم الثاني

٨٤ ـ ٩٣ مذابح عام ١٨٤٢ في الحقل الدبلوماسي

القسم الثالث

٩٣ ـ ١٠٩ مهمة السرعسكر مصطفى باشا وتعيين عمر باشا النمساوي وانشاء القائمقاميتين

الصفحة

١) مهمة مصطفى باشا وتعيين عمر باشا النمساوى

٢) انشاء القائمقاميتين

القسم الرابع

١٠٩ ـ ١١٨ ازمة ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤

القسم الخامس

١١٨ ـ ١٢٣ حوادث سنة ١٨٤٥ في الحقل الدبلوماسي

القسم السادس

١٢٣ ـ ١٣٠ مهمة شكيب افندى وازمة عام ١٨٤٥

القسم السابع

١٣٠ ـ ١٣٩ نظام شكيب افندى

القسم الثامن

١٣٩ ـ ١٤٤ المسالة اللبنانية في البرلمان الفرنسي

القسم التاسع

١٤٤ ـ ١٦٢ حوادث ١٨٦٠ في الميدان الدبلوماسي

١) الاصطدامات الاولى

٢) تدخل قناصل الدول

٣) مذبحة حاصبيا

٤) مذبحة راشيا

٥) مذبحة دير القمر

صفحة

٦) القتال في المتن
٧) مذابح صيدا وضواحيها
٨) مذبحة جزين
٩) مذبحة زحلة
١٠) قلاقل بيروت
١١) ردود الفعل لدى قناصل الدول الاوروبية
١٢) مندوب القناصل الى الدروز
١٣) اهتمام دول اوروبا
١٤) عقد الصلح بين الفريقين
١٥) مذابح دمشق

الفصل الثالث

١٦٣ ـ ٢١١ تدخل اوروبا سنة ١٨٦٠

القسم الاول

١٦٣ ـ ١٧٠ مقدمات التدخل
١) اهتمام الدول الاوروبية
٢) التدخل المسلح
٣) طابع التدخل

القسم الثاني

١٧٠ ـ ١٧٢ بروتوكول ٣ اب واتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠
١) نص بروتوكول ٣ اب سنة ١٨٦٠
٢) كيف اصبح البروتوكول اتفاقية

القسم الثالث

١٧٢ ـ ١٧٨ مهمة فؤاد باشا

صفحة |
--- | ---
| القسم الرابع
١٧٨ ــ ٢١٢ | الحملة الفرنسية واللجنة الاوروبية
| ١) وصول الحملة الفرنسية الى بيروت
| ٢) اللجنة الدولية وتحديد مهمتها
| ٣) سياسة فؤاد باشا
| ٤) معاقبة الجناة
| ٥) التعويضات
| ٦) تمديد الاحتلال
| الفصل الرابع
٢١٢ ــ ٢٢٢ | اعادة تنظيم لبنان الادارى عام ١٨٦١
| القسم الاول
٢١٢ ــ ٢١٦ | مشاريع تنظيم لبنان
| ١) المشروع التركي
| ٢) المشروع الفرنسي
| ٣) المشروع الانكليزى
| القسم الثاني
٢١٦ ــ ٢٢٢ | النظام النهائي
| ١) حاكم لبنان
| ٢) الحدود
| ٣) تقسيم المتصرفية
| ٤) التنظيم البلدى
| ٥) المتصرف وتنظيم الادارة (مجلس)
| ٦) القضاء
| ٧) الشرطة اللبنانية

٨) الضرائب

٩) مشروع نظام ١٨٦١ وانتقال اللجنة الى القسطنطينية

١٠) البروتوكول النهائي وتصريح عالي باشا

لائحة المصـــــادر

اولا : المصادر الاولية

أ - في اللغة العربية

١ : مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من ١٨٤٠ الى ١٩١٠ . ثلاثة اجزاء . تعريب فيليب وفريد الخازن بيروت سنة ١٩١١ .
طريقة ذكرها: المحررات

٢ : مذكرات تاريخية بقلم احد كتاب الحكومة الدمشقيين عني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي . حريصا
طريقة ذكرها : مذكرات تاريخية

٣ : ثورة وفتنة في لبنان بقلم انطوان ضاهر العقيقي نشرها يوسف ابراهيم يزبك .
طريقة ذكرها : ثورة وفتنة

٤ : الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي جمعها الدكتور اسد رستم المجلد الخامس :
طريقة ذكرها: الاصول العربية

٥ : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان تاليف الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق بيروت ١٨٥٩ :
طريقة ذكره : الشدياق .

٦ : حسر اللثام عن نكبات الشام لمؤرخ مجهول الطبعة
الاولى مصر ١٨٩٥ :
طريقة ذكره : حسر اللثام ٠

٧ : المحفوظات الملكية المصرية للدكتور اسد رستم المجلد
الرابع ١٨٣٩ ـ ١٨٤١ ٠
طريقة ذكره : المحفوظات ٠

تابع :

ب - في اللغات الاجنبية

1. RECUEIL DES TRAITES DE LA PORTE OTTOMANE AVEC LES PUISSANCES ETRANGERES DEPUIS LE PREMIER TRAITE CONCLU EN 1536 ENTRE SULEYM Ier ET FRANCOIS Ier JUSQU'A NOS JOURS,"
PAR LE BARON I. DE TESTA, DIX TOMES, PARIS, 1864

طريقة ذكره : تيستا

2. THE DRUZES AND THE MARONITES UNDER THE TURKISH RULE 1840 - 1
BY COLONEL CHURCHILL, LONDON, 1862

طريقة ذكره : تشرشل

3. ELEMENTS D'UNE BIBLIOGRAPHIE FRANCAISE DE LA SYRIE REUNIS PAR PAUL MASSON, PARIS 1919

طريقة ذكره : ماسون

4. FRANCOIS CHARLES ROUX, THIERS ET MEHEMET ALI, PARIS, LIBRAIR PLON 1951

طريقة ذكره : رو

5. LA TURQUIE ET LE TANZIMAT PAR E.D. ENGEL-HARDT, PARIS 1882

طريقة ذكره : انجلهارد

6. HISTOIRE DE MEHEMET ALI VICE-ROI D'EGYPTE, PAR PAUL MOURIEZ, TOMES 3 ET 4, PARIS 1858

طريقة ذكره : موريه

7. MOHAMED ALI ET L'EUROPE PAR RENE ET GEORGES CATTAUI paris,1950

طريقة ذكره : قطاوي

8. HISTOIRE DE LA MONARCHIE DE JUILLET, PAR THUREAU DANGIN,PARIS 1866-92

طريقة ذكره : تورو-دانجان

9. DEUX ANNES DE L HISTOIRE D ORIENT 1839 1840, PAR DE CADALVENE ET BARRAULT, PARIS 1840

تابع

ب - في اللغات الاجنبية

1. RECUEIL DES TRAITES DE LA PORTE OTTOMANE AVEC LES PUISSANCES ETRANGERES DEPUIS LE PREMIER TRAITE CONCLU EN 1536 ENTRE SULEYMAN Ier ET FRANCOIS Ier JUSQU'A NOS JOURS,"
PAR LE BARON I. DE TESTA, DIX TOMES, PARIS, 1864

طريقة ذكره : تيستا

2. THE DRUZES AND THE MARONITES UNDER THE TURKISH RULE 1840 - 1860
BY COLONEL CHURCHILL, LONDON, 1862

طريقة ذكره : تشرشل

3. ELEMENTS D'UNE BIBLIOGRAPHIE FRANCAISE DE LA SYRIE REUNIS PAR PAUL MASSON, PARIS 1919

طريقة ذكره : ماسون

4. FRANCOIS CHARLES ROUX, THIERS ET MEHEMET ALI, PARIS, LIBRAIRIE PLON 1951

طريقة ذكره : رو

5. LA TURQUIE ET LE TANZIMAT PAR E.D. ENGEL-HARDT, PARIS 1882

طريقة ذكره : انجلهارد

6. HISTOIRE DE MEHEMET ALI VICE-ROI D'EGYPTE, PAR PAUL MOURIEZ, TOMES 3 ET 4, PARIS 1858

طريقة ذكره : موريه

7. MOHAMED ALI ET L'EUROPE PAR RENE ET GEORGES GATTAUI paris,1950

طريقة ذكره : قطاوي

8. HISTOIRE DE LA MONARCHIE DE JUILLET, PAR THUREAU DANGIN,PARIS 1866-92

طريقة ذكره : تورو-دانجان

9. DEUX ANNES DE L HISTOIRE D ORIENT 1839 1840, PAR DE CADALVENE ET BARRAULT, PARIS 1840

10. BAILEY FRANK EDGAR, BRITISH POLICY AND THE TURKISH REFORM MOVEMENT LONDON 1942

طريقة ذكره : بيلي

II. MARTENS NOUVEAU RECUEIL GENERAL DE TRAITES, PARIS

طريقة ذكره : مارتنز

ثانيا : المصادر الثانوية

ا ـ في اللغات الاجنبية

I. LA QUESTION D'ORIENT DEPUIS SES ORIGINES JUSQU'A NOS JOURS PAR EDOUARD DRIAULT, PARIS 1905 طريقة ذكره : دريو

2. HISTOIRE POLITIQUE DE L'EUROPE CONTEMPORAINE I8I4-1996 PAR CH. SEIGNOBOS, PARIS I92I

طريقة ذكره : سينوبوس

3. LA QUESTION DU LIBAN PAR M. JOUPLAIN, PARIS 1908

طريقة ذكره : جوبلان

ب ـ في اللغة العربية

١ : لبنان مباحث علمية واجتماعية ١٩١٨

طريقة ذكره لبنان مباحث علمية

10. BAILEY FRANK EDGAR, BRITISH POLICY AND THE TURKISH REFORM MOVEMENT LONDON 1942

طريقة ذكره : بيلي

II. MARTENS NOUVEAU RECUEIL GENERAL DE TRAITES, PARIS

طريقة ذكره : مارتنز

ثانيا : المصادر الثانوية

١ – في اللغات الاجنبية

I. LA QUESTION D'ORIENT DEPUIS SES ORIGINES JUSQU'A NOS JOURS PAR EDOUARD DRIAULT, PARIS 1905

طريقة ذكره : دريو

2. HISTOIRE POLITIQUE DE L'EUROPE CONTEMPORAINE I8I4-I996 PAR CH. SEIGNOBOS, PARIS I92I

طريقة ذكره : سينوبوس

3. LA QUESTION DU LIBAN PAR M. JOUPLAIN, PARIS I908

طريقة ذكره : جوبلان

ب – في اللغة العربية

١ : لبنان مباحث علمية واجتماعية ١٩١٨

طريقة ذكره لبنان مباحث علمية

٢ : تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمن الجزء الثالث (١٩٤٩) والرابع (١٩٥٠) ترجمة الدكتور نبيه فارس · ومنير البعلبكي الطبعة الاولى بيروت ·
طريقة ذكره : بروكلمن ·

٣ : في سبيل لبنان ليوسف السودا الطبعة الثانية بيروت ١٩٢٤ ·
طريقة ذكره : السودا ، في سبيل لبنان ·

٤ : تقاليد فرنسا في لبنان تاليف المسيو رستلهوبر نقله الى اللغة العربية القس بولس عبود حريصا ١٩٢١
طريقة ذكره : رستلهوبر ·

٥ : تاريخ حوادث الشام ولبنان من ١٧٨٨ ـ الى ١٨٤١ نشره الاب لويس معلوف اليسوعي المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٨ ·
طريقة ذكره : حوادث الشام ·

٦ : تاريخ الدولة العلية العثمانية تاليف محمد فريد بك الطبعة الثانية مصر ١٨٩٦ ·
طريقة ذكره : محمد فريد بك ·

تمهيد

لقد تناولت هذه الدراسة تاريخ لبنان الدبلوماسي من ١٨٤٠ حتى ١٨٦١ فاظهرت كيف ان المسالة اللبنانية شغلت دول اوربا والباب العالي مدة طويلة من الزمن وحظيت بالقسط الاوفر من اهتمام هذه الدول وعنايتها · واذا ما اردنا ذكر الاسباب التي دفعتنا الى اختيار هذا الموضوع فيمكن ان نجملها فيما يلي :

١ — ان هذه المرحلة من التاريخ اللبناني جديرة بالاهتمام والدرس والتحليل لانها حجر الزاوية في بناء لبنان الحديث ، الذي يرجع في قسم لا يستهان به من قضاياه الاجتماعية والسياسية والادارية والخلقية الحاضرة ، الى هذه المرحلة التي نحن بصددها · ويمكننا ان نؤكد ، واثقين ، ان كثيرا من هذه القضايا يصعب فهمها او معالجتها في الوقت الحاضر على كل من يجهل هذه الحقبة الخطيرة في تاريخ لبنان · فهي اذن جزء لا يتجزأ من البناء التاريخ اللبناني ·

٢ — ان تفهم المسالة اللبنانية في مراحلها التاريخية ومتابعة الازمات الدبلوماسية التي قامت من اجلها والاطلاع على شتى التيارات والعوامل والنزاعات والنزعات التي كانت تتشابك وتتفاعل وتتداخل حول هذه المسالة يلقي ضوءا رائعا على الحقيقة اللبنانية ويساعد جميع ابناء الضاد على ادراك مشاعر اللبنانيين وعواطفهم وافكارهم ادراكا علميا صحيحا ·

٣ — ان هذه المرحلة تعتبر بحق مدرسة للوطنية والدبلوماسية والحياة الاجتماعية والادارة والسياسة ، فهي حافلة بالاختبارات الدبلوماسية والدروس السياسية والاجتماعية والوطنية والتجارب الادارية · فاهتمام اوروبا بالمسألة اللبنانية في هذه المرحلة خير مثال على التدخل الاوروبي في شؤون الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر ، وافضل انموذج للطريقة التي كانت الدول الاوروبية الكبرى تعالج بها مسالة الاقليات المسيحية في البلدان العثمانية · واذا اردنا ان نستخلص درسا وطنيا من المثل الاخير فهو ان لبنان لايمكن ان ينعم بالطمانينة الداخلية والامن الدائم والازدهار التام الا اذا تحقق التفاهم الكلي المستمر والتعاون الاخوي الصادق

بين جميع ابنائه على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم • فهذه الحقيقة البسيطة او (الكليشه) التي كثيرا ما تتردد على السنتنا ، تبدو لنا ماثلة في كل حادثة من حوادث التاريخ اللبناني في المرحلة التي سنتحدث منها • فتركيا كانت تستخدم اللبنانيين ضد بعضهم البعض وتبحث عن شتى الوسائل لتعزيز نفوذها في لبنان وترسيخ اقدامها فيه • وكانت فرنسا تسرف في اظهار عطفها على موارنة لبنان خاصة ومسيحييه عامة رغبة منها في اقامة رقبة جسر لها في البلاد والتمهيد لاحتلال مقبل او على الاقل لايجاد منطقة نفوذ خاصة • وكانت انكلترا تتظاهر بالحرص على استقلال السلطان والرغبة بالمحافظة على حدوده والحدب على الطائفة الدرزية بغية الحؤول دون وقوع السلطان تحت النفوذ الروسي او تسلل فرنسا الى الشرق او نشوء اى خطر من الاخطار من شانه ان يهدد المصالح الانكليزية في الشرق • وكانت النمسا لا تتخذ قرارا او تبدى رايا الا وتستوجبه من مصالحها في البلقان محاولة ان تتفادى كل ما يمكن ان يستخدم ضد هذه المصالح في المستقبل • وقد حاولت روسيا ان تقيم لطائفة الروم الاورثوذكس كيانا خاصا كي توجد لنفسها سبيلا للتدخل فما افلحت في محاولتها • اما بروسيا فكانت تصدر اكثر الاحيان وفاقا لمصالحها الاوروبية وعلاقاتها بالدول التي يهمها الامر •

وقد شهد تاريخ لبنان بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ ولا سيما في الناحيتين السياسية والدبلوماسية ، صراعا طويلا عنيفا بين رجال الاقطاع وابناء الشعب من فلاحين وغيرهم • واذا كانت الظروف السياسية قد شجعت ثورة الفلاحين على رجال الاقطاع في لبنان ولا سيما في كسروان فلا يعني ذلك ان ابناء الشعب ولا سيما المسيحيين منهم لم يكونوا على تمام الاستعداد الفكرى والاجتماعي للقيام بحركة التحرر والانطلاق الشعبي •

اضف الى ذلك الفوائد الكثيرة التي يمكن ان تجنيها من المشاريع والاصلاحات الادارية التي اقترحت من اجل لبنان او نفذت فيه لكثرة ما نشبت فيه من فتن وما حدث من مشكلات كانت تقتضي دائما تدخل قناصل الدول وسفرائها ورجال حكوماتها •

٤ ـ ان هذا الاهتمام الدولي بالمسالة اللبنانية بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ قد انتهى باعلان استقلال لبنان الذاتي وضمان الدول الاوروبية الكبرى له ، فتالفت حكومة اشرفت على الشؤون الداخلية وهي متمتعة في اعمالها بالاستقلال التام . وهكذا يمكننا ان نقول ان هذا الاستقلال الذاتي الذى اقرته الدول الاجنبية واعترف به السلطان التركي كان مرحلة تاريخية هامة من مراحل الاستقلال اللبناني وضمانة من الضمانات الدولية لهذا الاستقلال .

٥ ـ اذا كان خروج الامير بشير الكبير قد عقبه مهد من الفوضى والاضطراب فمن الجدير بالذكر ان نظام عام ١٨٦١ قد وضع حدا لهذه الفوضى فنظم لبنان من جميع النواحي الادارية والمالية والقضائية كما تمكن من تحقيق التقدم العمراني والاجتماعي في البلاد . فكان الاستقلال في كل بلد من بلدان العالم يابى ان يسبغ نعمه الا بعد التضحيات الجلى والجهاد الطويل والالم المرير . فاذا كانت الايدى الاجنبية قد تمكنت من تفريق كلمة اللبنانيين واثارة العداوات والقلاقل والحزازات فيما بينهم سنوات طويلة فاصطبغت ارض لبنان بالدماء فان نظام المتصرفية قد تمكن من توطيد الامن في شتى انحاء البلاد فخفت الجرائم الى حد كبير جدا وبدات روح التفاهم والتعاون تعود بين ابناء البلاد مما كان له ابعد الاثر في تحقيق الوحدة الوطنية والازدهار الداخلي .

٦ ـ ان دراسة التاريخ اللبناني بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ تتبين التصرف الى اصول الاصابع الاجنبية في البلاد التي قسمت السكان الى موارنة ودروز وكاثوليك وارثوذكس وشيعة وسنة ، واعطت للدول الاوروبية حق التدخل الرسمي المباشر في شؤون لبنان . فاصبحت تتقاذف البلاد التيارات الاجنبية المختلفة واصبح لكل دولة اجنبية كبرى انصار ودعاة من ابناء البلاد . ولم يكن بد من ان يعقب ذلك تكتل طائفي وفاقا لرغبات الدول الاجنبية ومصالحها . وقد حققت الدول الاوروبية من المنافع بسبب الانقسامات الطائفية ما لا يمكن ان تحققه جيوشها الجرارة .

٧ ـ ان الماضي يرتبط بالحاضر ارتباطا وثيقا ، ظاهرا احيانا وخفيا احيانا اخرى . فلذلك لا بد لنا قبل الاهتداء الى نقطة الانطلاق في نهضتنا القومية من تلمس الاصول التاريخية ، القريبة والبعيدة ، لمختلف مشاكلنا الحاضرة ، اذ بغير ذلك لا يمكننا ان نبني بناء ثابتا متينا خالدا .

وقد حاولت في رسالتي ان اصور الجو الخارجي والداخلي الذي نشات فيه المسالة اللبنانية . فتكلمت في المقدمة العامة عن حركة الاصلاحات في تركيا التي استهدفت في الدرجة الاولى ازالة الاسباب الرئيسية لوجود المسالة الشرقية، لان المسالة اللبنانية فرع من اهم فروع تلك المسالة . ثم تحدثت عن تاريخ لبنان السياسي بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ لانه لا يمكننا بغير ذلك ان ندرك الاسباب المباشرة التي كانت تتذرع بها الحكومة التركية للحد من استقلال لبنان الذاتي والتي كانت تدفع بالدول الاجنبية الى التدخل من اجل الذود عن نصارى البلاد .

ولما كانت فرنسا تتحدث دائما عن حقها الخاص بحماية نصارى الشرق الكاثوليك عامة وموارنة لبنان خاصة فقد افردنا قسما من الفصل الاول لتبيان العلاقات التي ربطت الموارنة بلبنان حتى اواسط القرن التاسع عشر .

وقد استعرضنا في الفصل الثاني جميع الاحداث والازمات الدبلوماسية التي نشات بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ وادت الى قيام المتصرفية . فتحدثنا عن ازمة ١٨٤٠ التي انتهت بجلاء المصريين عن بلاد الشام واعطت المسالة اللبنانية طابعا دوليا . وقد بينا بالتفصيل مساعي اللبنانيين اثر ازمة ١٨٤٠ للحصول على اقصى ما يمكن من الاستقلال الذاتي ومحاولات الباب العالي المستمرة في سبيل اخضاعهم لسلطته المباشرة وموقف الدول الاوروبية من هذين التيارين المتباينين . وقد طرحت المسالة اللبنانية على بساط البحث الدولي من جديد عام ١٨٤٢ و ١٨٤٣ على اثر الحوادث بين الدروز والموارنة . فتدخلت الدول الاوروبية تدخلا جماعيا . ولم تلبث المسالة اللبنانية ان استرعت اهتمام الدول الاوروبية والحكومة العثمانية عام ١٨٤٥ فاوفد وزير الخارجية التركية شكيب افندى للتحقيق في لبنان واتخاذ التدابير التي تقتضيها الظروف . فكان نظام شكيب افندى الذى ظل نافذا حتى عام ١٨٦١ .

اما في الفصل ~~الثالث~~ الرابع فقد تكلمنا عن تدخل اوروبة الجماعي المباشر عام ١٨٦٠ والدور الهام الذى مثلته الدول الاوروبية في حل المسالة اللبنانية وما كان لهذا الدور وذلك التدخل من اثر بعيد في اعادة تنظيم لبنان وتدشين عهد جديد فيه بكل ما في الكلمة من معنى ·

وقد اعتمدت المصادر الاولية في جميع المسائل الدبلوماسية التي توءلف اهم قسم في هذه الرسالة واتحت لنفسي اعتماد بعض المصادر الثانوية ، في المسائل التي عالجتها بغية وضع المسالة الرئيسية في اطارها المحلي والخارجي ·

وقد اكتفيت في القسم العرضي لحوادث سنة ١٨٦٠ (الفصل الاول) بمصدر واحد هو كتاب حسر اللثام لسببين رئيسيين : اولا التجرد الظاهر الذى كتب به هذا الكتاب والذى لا يمكن ان يخفى على القارئ في كل صفحة من صفحاته · ثانيا الاتفاق الذى يكاد ان يكون تاما بين رواية حسر اللثام وما نجده في المحررات السياسية ·

ولا شك ان هناك نواحي كثيرة في هذه الدراسة تتطلب زيادة في التحقيق والبحث والتدقيق ومسائل عديدة تحتاج الى شروح اطول ومناقشة اعمق · ولكن طول الموضوع حال دون ذلك في الوقت الحاضر على الاقل · وان كان هناك فائدة جنيتها من هذه الدراسة فهي الافاق التي فتحتها امامي في التاريخ اللبناني الحديث والتي ارجو ان تتيح لي الوقت ان اتعرف الى شتى دقائقها وتفاصيلها بصورة اكمل وبوضوح اتم ·

ولا يسعني ان اختم هذا التمهيد الا بتوجيه عبارات الشكر والامتنان الى كل من ساعدني في تحضير هذه الرسالة وبصورة خاصة الى استاذي الكريمين العالمين الدكتور نبيه فارس والدكتور نقولا زيادة اللذين امداني بارائهما المفيدة وارشداني الى المصادر المهمة وضحيا بكثير من اوقات راحتهما الخاصة في سبيل تسهيل مهمتي ، والى الاستاذ جبران بخعازى الذى يسّر لي الى اقصى حد ممكن الوصول الى الكتب التي احتجت اليها واستعنت بها واستقيت منها مادة رسالتي ، والى الزميل السيد الياس السخن الذى كرس جميع اوقات راحته لانهاء طبعها في الوقت اللازم ·

بيروت في ٢٥ / ٩ / ١٩٥١

خليل احمد عيتاني

الفصل الاول مقدمة عامة

القســـم الاول

١ ــ حركة الاصلاح في تركيا بين ١٨٣٨ و ١٨٥٢

لم تقتصر النتائج التي اسفرت عنها اولى انتصارات محمد علي باشا في سوريا على اقامة الحماية الجماعية على تركيا من قبل الدول الاوروبية الكبرى ، بل افسحت المجال ، قبل انهزام الجيوش المصرية بصورة نهائية، امام حركة الاصلاحات العامة التي عرفت بالتنظيمات . لقد شعر العصو ولون الاتراك في ذلك الوقت بضرورة التجديد في الانظمة والاساليب والقوانين ، والنسج على منوال محمد علي باشا في الاخذ بالحضارة الاوروبية والسير على ضوئها . وهكذا نرى ان انتصارات محمد علي باشا في سوريا افادت الباب العالي في تدعيم سلطته وفي ايقاظه من السبات الذي كان يغط فيه . (١)

وقد ادرك بعض رجال الدولة الاتراك مساوئ الادارة والانظمة العثمانية وما كان يسودها من فوضى واعتباطية ، وما كانت تفتقر اليه من مركزية ثابتة قوية ووحدة للامبراطورية فارادوا ان يصلحوا ما فسد . ففكروا في سبيل ينقذ بلادهم من الموت الذي كان يحيق بها من كل صوب (٢) .

لقد احسوا بوجه خاص بالخطر الاوروبي الذي يرجع الى اوائل القرن الثامن عشر عندما قويت الروسيا وصممت على زحزحة تركيا من مركزها . وقد هال الاتراك الانكسارات المتتابعة لجيوشهم وتقلص امبراطوريتهم بصورة تدريجية بسبب من الضغط الاوروبي غربا على يد النمسا وشمالا على يد الروسيا . ولم يكن الاتراك قد ادركوا قوة اوروبا على حقيقتها وعرفوا اسباب نهضتها الصحيحة ، فظنوا ان تاخرهم عن العالم الاوروبي يعود الى اهمالهم لتقاليد السلف فاتجهت الافكار ، اول الامر ، الى العودة الى سنن الاباء والاجداد اعتقادا منهم انها سبيل النجاة وطريق النهضة الاوحد . واذا كانت هذه الدعوة التي قام بها " كتشي باك " (٣) قد ساعدت الدولة التركية

---

(١) بروكلمان ج ٤ ص ٣٣

(٢) انجلهارد ج ١ ص ٢٦ ــ ٢٧

(٣) مؤنس ص ٢٤٢

على الانتعاش ردحا من الزمن فانها لم تلبث ان استأنفت خمولها السابق · عند ذلك تبين الاتراك ان السبيل يعود الى الانحراف عن انظمة محمد وسليمان وانما الى جهل الطرق التي انتهجتها اوروبا والتي بلغت بها ما بلغته من عز وعلو · فكروا اذا في ادخال الانظمة الاوروبية الى بلادهم وامبراطوريتهم · غيران ذلك لم يكن سهلا يسيرا اذ لم يكن بوسع السلطان وهو حامي الاسلام من النصرانية ان يسترسل في انتهاج اساليب النصارى انتهاجا ظاهرا في كل شيء ولا ان يفرض على المسلمين نظما او شرائع نصرانية يعتقدون انها مغايرة لشريعتهم · فكان عليه ان يسلك سبيل الحذر والتحفظ في حركته الاصلاحية (١)·

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد اصطدمت حركة الاصلاح بالصعوبة الناتجة عن تعدد الجنسيات والالوان التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية · اذ كيف كان ممكنا جمع العربي والكردي والتركي واليوناني والبوصلاني في لواء نظام واحد · اضف الى ذلك القلاقل التي كانت تحف بالامبراطورية من جميع الجهات والاخطار التي كانت تتهددها كل يوم فالروسيا لم تكن تترك فرصة الا وتنتهزها لتوقع بتركيا · وكانت الدول الاوروبية تتدخل تدخلا مستمرا في شؤون الامبراطورية العثمانية وتشجع رعاياها على الثورة والانقلاب : فيدعي الروس لانفسهم حق حماية المسيحيين في البلقان ، ويدعي الفرنسيون الاولوية في رعاية الاراضي المقدسة ، ويزعم الانكليز ان لهم في البحر الاحمر ما للاتراك من حقوق ·

هل كان بوسع السلطان ، وسط هذا الجو المكفهر وهذه الظروف القلقة ان يحقق اصلاحا او ينجز مشروعا او يقيم بنيانا ؟ ·· وكيف السبيل الى ذلك وقد اخذت المبادئ الاوروبية الحديثة سبيلها الى نفوس بعض رعاياه ·؟ فاصبحوا يميلون الى الحكم الذاتي وينزعون الى الاستقلال ويتبرمون بالانظمة العتيقة والقوانين البالية (٢) ·

ومن الاسباب التي ادت الى فشل الاصلاح ان تركيا اضطرت الى انتهاج سياسة الاصلاح اضطرارا وذلك لمقاومة التدخل الاوروبي وصد الغارات السياسية والعسكرية التي كانت تشنها دول اوروبا على امبراطورية الرجل المريض من وقت الى اخر · ولا ننس ان الشعوب الاسلامية لم تكن على تمام الاستعداد للاخذ باهداب الحضارة الغربية بل كانت تعتقد انها ضرب من اعتناق المبادئ النصرانية ومناصرتها ، كل ذلك وقف حجر عثرة في سبيل الاصلاح وكان على السلاطين ان يتغلبوا على جميع هذه العوائق ·

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ٣

(٢) مؤنس ص ٢٤٥

ولم تلبث تركيا اثر الفشل الذي اصاب حركة كتشي بك ان شعرت بضرورة محاربة اوروبا بسلاحها ، فبدأ هذا العمل السلطان سليم الثالث واخذ ينظم الجيش وفاقا للاساليب الحديثة ليتمكن من دفع الاخطار التي كانت تحيطها بالامبراطورية العثمانية ٠ الا ان جيش الانكشارية قاوم هذه الحركة ، ونشب حينئذ صراع انتهى باغتيال السلطان والقضاء على محاولته ٠ كذلك حاول السلطان سليم الثالث الغاء الاقطاع ٠ لان زمان الاقطاع قد ولى ولم يعد يتفق واحوال الزمان ٠ (١) ولان هذا النظام كان قد فسد في الامبراطورية العثمانية ولم يبق فيه اية فائدة ٠ فقرر ان يضم كل اقطاع الى اراضي الدولة فور موت صاحبه ٠ وقد خصص ريع هذه الاقطاعات للانفاق على حاجات الجيش الجديد ٠ فثار عليه امراء الاقطاع ٠ وقد راى السلطان سليم ان جعل مدة الولاية سنة من الزمن من شانه ان يمنع الوالي من القيام باي اصلاح ، فجعل هذه المدة ثلاث سنوات يمكن تجديدها ٠ ولكن السلطان كان اضعف من ان يفرض النظام الجديد على الولاة المستبدين ٠ وراى السلطان سليم ان من الضروري انشاء علاقات سياسية بين تركيا ودول اوروبا اذ كانت العلاقات التي تربط تركيا بالدول الاوروبية حتى ذلك الوقت علاقات حربية عدائية ، مما ادى الى عزل تركيا سياسيا والى جمودها ٠ واراد سليم الثالث اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الدول الاوروبية ليكون ممثلوه لديها صلة الوصل بين تركيا والمجتمع الاوروبي الحديث ٠ وراى ايضا ضرورة تاليف مجلس وزراء يتحمل تبعة الاعباء الحكومية على اختلافها (٢)٠

ورغم ان سليم الثالث لم يوفق في كل ما سعى اليه فقد كان لاعماله اثر بعيد وقد قام فيما بعد السلطان محمود الثاني يواصل الاعمال الاصلاحية المشكورة التي شرع بها السلطان سليم الثالث ٠ وكان من اهم الاعمال التي قام بها ابادة الانكشارية ٠ وكانت تركيا عندما ولي امورها اشبه ما تكون (بسفينة يجب تجديد قاعدتها وصواريها واشرعتها وبحارتها) (٣) ٠ وبادر السلطان محمود الى اصلاح احوال رعاياه فاعلن بانه يريد (ان يصبح العرش من الان فصاعدا مامن الشعب لا مصدر مخافته وانه قرر الغاء المصادرات واعطاء الحق لابناء الثائرين بان يتمتعوا بميراث ابائهم) (٤) ٠ ولكن ثورة اليونان وحروب محمد علي والروسيا شغلته طيلة مدة حكمه فلم يوفق الى تحقيق ما كان يحلم به من اصلاحات بل اقتصرت اعماله في هذا السبيل على مشاريع

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ٣

(٢) مونتس ص ٢٤٧ ــ ٢٥٠

(٣) انجلهارد ج ١ ص ٥

(٤) " " " ١٢

بسيطة تتعلق بتحسين القسطنطينية وتنظيمها وتتناول تقسيم الامبراطورية الى ولايات اربع كبرى وتشمل ادخال الزي الاوروبي (١)٠

توفي محمود الثاني عام ١٨٣٩ فخلفه ابنه عبد المجيد في السادسة عشرة من عمره فمكن صغر سنه بعض اذكياء الاتراك من تمثيل دور هام على مسرح السياسة التركية ومن اصلاح الامبراطورية بعض الشيء (٢)٠ وفي طليعة هؤلاء المصلحين رشيد باشا ورضا باشا اما رشيد باشا فقد كان سفيرا في لندن حيث تعرف الى المؤسسات الغربية عامة والانكليزية خاصة واعجب بها ايما اعجاب (٣)٠ وقد كان رجلا نابها تمكن من ادراك نواحي الضعف في بلاده وحاول ايجاد الوسائل الفعالة لانهاضها فسعى اول الامر الى اكتساب ثقة اوربا فتمكن من اقناع السلطان عبد المجيد بادخال اصلاحات ترمي الى توفير الحرية للسكان على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم واجناسهم ، وبذلك يتمكن من ان يظهر في نظر الراى العام الاوروبي بالمظهر الذى ظهر به محمد علي باشا من حيث نزعته الى التجديد والاخذ بالمدنية الاوروبية ٠ ولم يلبث رشيد باشا ان اصبح وزيرا فاستصدر من السلطان الاعلان المعروف بخط شريف جلخانة (اى المرسوم المتوج بخط السلطان الذى صدر عن سراى الورود) ٠ وقد اذاع السلطان هذا الاعلان في احتفال عام حضره رجال الدولة والدين والعلماء والسلك السياسي وكبار الضباط واطلقت له مئة طلقة وطلقة وسبقته صلاة اختار موعدها منجم ذائع الصيت ٠ وقد جاء في هذا الاعلان "ان النظم الوطنية تضمن لرعايانا من الان فصاعدا امنا شاملا لارواحهم وشرفهم ، وهذه المنح حق للجميع من اية ملة او مذهب يتمتع بها الكل على السواء" (٤)٠ ولم يمض على هذا الاعلان طويل وقت حتى عقبه تصريح اخر من قبل السلطان فقد اجتمع نفر عديد من رجال الدين اليونان والارمن واليهود في جزيرة ميتلين حيث خطب فيهم رضا باشا باسم السلطان فقال : "ايها المسلمون والنصارى واليهود ، انكم رعية امبراطور واحد وابناء اب واحد ، ان السلطان يسوى بينكم جميعا " (٥) ٠ وليس عسيرا ان ندرك خطر هذا التصريح اذ ان التقاليد والشريعة الاسلامية لا يسمحان بان يعم المسلمون وغير المسلمين بحقوق واحدة تحت كنف خليفة المسلمين بل يجب ان يميز المسلمون عمن في ذمتهم من

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ١٣ ــ ١٩

(٢) (٣) بروكلمان ج ٤ ص ٣٣

(٤) انجلهارد ص ٣٦

(٥) دريو ص ١٥٣

من ابناء الطوائف (١)ع

ولكن السلطان صدف من هذه السنة بتصريحه الانف الذكر واعلن عن رغبته في اقامة المساواة في الحقوق والواجبات بين رعاياه على اختلاف مللهم ونحلهم ٠

وكان الباب العالي يرمي من وراء خطي شريف جلخانة الى توفير الرفاهية والنظام لمختلف ولايات الامبراطورية العثمانية ٠ اما المؤسسات الجديدة التي كان ينوى تدشينها فكانت تشمل على الاخص نقاطا ثلاثا هي (٢) : اولا الضمانات التي توفر الامن التام لرعايا السلطان فيما يتعلق بحياتهم وشرفهم واموالهم ٠ ثانيا وضع اسلوب منظم لتقرير الضرائب وجبايتها ٠ ثالثا وضع اسلوب منظم للخدمة العسكرية ومدتها ٠

اما فيما يتعلق بالادارة فان الامر الشريف الانف الذكر ينص على ضرورة تحديد الضرائب المفروضة على كل عضو من اعضاء الاسرة العثمانية بالنسبة الى قدرته المالية وعلى ان لا يجرى اى تجاوز لهذه القاعدة (٣) ، وان تصدر قوانين خاصة تحدد بموجبها نفقات القوى البرية والبحرية (٤)٠

وهكذا نرى ان الامر الشريف لم تكن غايته اقامة نظام دستوري او ادخال اى تعديل على صلاحيات الباب العالي وانما كان يعد فالى اصلاح الادارة ويعد سكان الامبراطورية بتحسين احوالهم المدنية ، دونما تمييز في الدين او المذهب ٠

ولا شك ان ذلك كان تقدما عظيما بالنسبة الى الماضي ٠ واذا كان الامر الشريف لا يتعرض الى المساواة السياسية بين السكان فانه كان يعد على الاقل بتامين نظام عادل اذ انه اعترف " للرعية " بالحقوق الخاصة التي كانت لسائر المسلمين (٥)٠

وقد سعى رشيد باشا واعوانه الى تحقيق الوعود المقطوعة من قبل السلطان في الامر الشريف المذكور اعلاه (٦) ٠ فانشاوا مجلس وزراء ومجلس نواب واعادوا تنظيم مجلس الدولة

---

(١) بروكلمان ج ٤ ص ٣٩

(٢) بيلي ص ٢٧٧

(٣) انجلهارد ج ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٦١

(٤) بيلي ص ٢٧٨

(٥) انجلهارد ج ١ ص ٣٦

(٦) " " " ٣٩

على الطريقة الاوروبية (١) ، وادخلوا في الادارة مبدأ فصل السلطات عن بعضها البعض ٠ وكان الولاة والباشوات حتى ذلك الوقت يحتكرون جميع السلطات ٠ فوزعت الصلاحيات العامة بين عدة فئات من الموظفين ٠

فاصبح على راس كل ولاية مدير مدني او وال وحاكم عسكري ومدير مال ٠ وقد تقرر ان تدفع لجميع الموظفين رواتب معينة ٠ وبذلك وضع حد لنظام الالتزام لدى العثمانيين ٠ وقد انشئت مجالس او دواوين في الولايات والنواحي كانت تتالف من الوجهاء واقيمت بعض المحاكم المختلطة التي كان يتكون نصفها من اعضاء اوروبيين مسيحيين ، ونشر قانون جزائي خاص ووضع قانون للعقوبات وفق الشرائع الحديثة ، وعهد الى عالم فرنسي بوضع قانون مدني حديث ، وعين المفتشون الاداريون وانشئ مصرف للدولة ، واسست مدارس مدنية للتعليم الحديث وافتتحت جامعة وطنية واعيد تقسيم الدولة الاداري ووزعت وحدات الجيش عليها ووضع برنامج للتعليم والغي الرق ٠ وقد اعيد تنظيم الجيش وفقا للنظام البروسي ، فكان الجنود الذين يشملهم التجنيد الاجباري يخدمون خمس سنوات في الجيش العامل او النظامي وسبع سنوات في الجيش الاحتياطي او الرديف ٠ كذلك انشئت بعض المدارس العصرية واعلن العزم على تحقيق اصلاحات اكثر شمولا واتساعا ٠ وفي عام ١٨٤٥ استدعي السلطان عبد المجيد الى القسطنطينية نوابا عن شتى المراكز الرئيسية للولايات للاطلاع على احوال الامبراطورية واستشارتهم في الاصلاحات الواجب ادخالها (٢) ٠ ولكن في الواقع لم يحصل سوى محاولات اصلاحية ، اذا امكان يقال منها انها ارتدت طابع العمق فلا يجوز التغافل عما رافقها من فوضى ونقص ٠ فقد اصطدم رشيد باشا واعوانه بمقاومة انصار العهد القديم الذين كانوا يرفضون التساوي مع الرعية (٣) وقد ابعد رشيد باشا واعوانه بين ١٨٣٨ و ١٨٥٢ اكثر من مرة عن الحكم تاركين مراكزهم الى وزراء رجعيين ٠

الا انه كان لعملهم نتيجتان هما : اولا اقامة المركزية الادارية في الامبراطورية والقضاء على استبداد قدامى حكام المقاطعات ٠ فتحولت بذلك الامبراطورية القائمة على الالتزام الى ملكية ادارية مطلقة ذات جيش اقوى من ذي قبل ٠ ثانيا تشجيع المسيحيين من رعايا السلطان على المطالبة بالمساواة المدنية والسياسية التامة مع المسلمين او السعي للتحرر القومي ٠ وقد نتج عن ذلك تياران متباينان اولهما يرمي الى تحقيق مركزية تامة واخضاع جميع السكان والرعايا

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ٤٩

(٢) " " " " " ٦٢ ــ ٨٧

(٣) " " " " " ٤٤ ــ ٤٥ ، حسر اللثام ص ٤٤

للباب العالي،دون تمييزفي الاديان ، وثانيهما يرمي الى الحرية السياسية والاستقلال الذاتي على اساس قومي اقليمي (١) · وقد اصطدم هذان التياران وخلقا ازمات داخلية في الامبراطورية العثمانية · وقد وقعت اولى هذه الازمات في المنطقة العربية من الامبراطورية العثمانية في لبنان سنة ١٨٤٠ ·

تطور حركة الاصلاح :— ولا بد لنا قبل الانتقال من التحدث عن حركة الاصلاح من متابعة تطورها حتى ايام السلطان عبد العزيز ·

عزل رشيد باشا عام ١٨٤١ وخلفه رفعت الذي اراد ان يعود بالبلاد سيرتها الاولى في انظمة الحكم والادارة · ولكن ذلك لم يعد بالامر الهين اذ ان فكرة الاصلاح كانت قد تغلغلت في نفوس الكثيرين من رعايا السلطان فتفتحت عقولهم الى حسنات الانظمة والحضارة الاوروبية ولم يكن بامكان احد ان يقف في وجه تيار الاصلاح والتجديد · وكان على راس هذا النفر من ذوي التفكير المتجدد رضا باشا الذي كان يشبه الى حد كبير رشيد باشا في افكاره ونزعاته التحررية وفي ذكائه وشعوره الوطني ولكنه كان يختلف عنه باعتداله وتحفظه ·

ولم يمض وقت طويل على ابعاد رشيد باشا عن الحكم حتى تولى رضا باشا قيادة الامور فراح يتقرب الى الدول الاوروبية ، فبالغ في التنويه عن رغبته في تحسين احوال رعاياه على اختلاف مللهم ونحلهم ثم تناول الجيش فاصلحه ووفر له الاعتدة اللازمة ·

وعلى الرغم من جميع المحاولات الانفة الذكر فان الاصلاحات قد فشلت ولم تلبث جذوتها ان خمدت وعادت تركيا الى سابق عهدها الرجعي · ومن اسباب ذلك قلة عدد المتعلمين الذين يمكنهم ان يتفهموا روح الاصلاح ، وتشبث المسلمين باوضاعهم السابقة بالنسبة الى الذميين (٢) ، وفقر الدولة في المال والكفاءات وعدم وجود موازنة حقيقية للدولة (٣) ، وحيرة الدولة في انظمتها الادارية · وكثيرا ما كانت الدولة تتوقف عن دفع رواتب جندها وموظفيها فكان ذلك يشل معنوياتهم ويضعف اخلاصهم للدولة · اضف الى ذلك فساد اخلاق الموظفين وتماديهم في قبول الرشوة وتساهلهم في اختلاس اموال الدولة · وقد ثبتت تهمة الرشوة والاختلاس على رشيد باشا نفسه (٤) ولا بد ان نذكر ان الدول الاوروبية نفسها كانت توجس

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ٥٢ — ٦٦

(٢) حسر اللثام ص ٤٤

(٣) انجلهارد ج ١ ص ١٠٠

(٤) " " " ١٠١

خيفة من امر الاصلاح فتحاول عرقلته ووضع العصي في دواليب الالة الحكومية .

وقد غادر السلطان عبد المجيد العرش وهو يقول : لا احد ينكر انه على الرغم من العناية التي بذلت لتنفيذ افكاري فانه لم يثمر من هذه المشاريع الثمر الذي رجوته منها خلا الاصلاح الحربي ، وحتى هذا لم يقم على اساس مكين ... اني محزون بالغ الاسى " (١).

وعندما ارتقى السلطان عبد العزيز العرش عهد بالامور الى رجل يكاد يكون اميا وهو محمد علي . فاستصدر هذا في تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ فرمانا عاد فيه بالدولة الى القديم فوضع على راس كل ولاية حاكما عسكريا يخضع للصدر الاعظم ، ودفتر دار يتبع لوزير المال (٢). وكان ذلك بمثابة تحول رسمي كبير عن سياسة الاصلاح التي شرع بها السلطان سليم الثالث .

٢ ـ تركيا بين سنة ١٨٥٢ و ١٨٦٠

ورغم ان حركة الاصلاح لم تتحقق بصورة تامة فان تركيا قد اجتازت بين ١٨٥٢ و ١٨٦٠ مرحلة من الازدهار والامن النسبيين . فقد ازيل التعذيب والغي الحجز الاعتباطي (٣). وعقدت الامال على ان تتحول الامبراطورية العثمانية الى دولة عصرية تدار وفقا لمبادئ المدنية الغربية وعندها تزول مشكلة الرعايا المسيحيين ، اذ تضمن حقوقهم وتتوفر سلامتهم . الا ان روسيا لم تكن لترضى ببقاء قسم من الامبراطورية العثمانية في اوروبة بل كانت تريد القضاء على هذا الجزء وتقسيمه بين دول اوروبة بحيث تعود اليها حصة الاسد ولا سيما القسطنطينية .

وقد اعتقد القيصر نقولا الاول انه مرسل من السماء لتحطيم الامبراطورية العثمانية وللاستيلاء على القسطنطينية . فظل يتحين الفرص لشن هجومه على السلطان . وقد تحقق الظرف المنتظر عام ١٨٥٢ . فقد حصل خلاف بين الاكليروس الكاثوليك الذين تحميهم فرنسا ، والاكليروس الروم الارثوذكس الذين تحميهم روسيا حول استلام مفاتيح الاماكن المقدسة في فلسطين اي قبر السيد المسيح وبيت لحم . فطالب القيصر الى الباب العالي اصدار فرمان يمنح بموجبه المفاتيح الى الارثوذكس مهددا باقتحام البغدان (مولدافيا)

---

(١) انجهارد ج ١ ص ٧٥

(٢) " " " ١٠٥ ـ ١١٠

(٣) " " " وج ٢

ومطالبا بعقد معاهدة تضع جميع الكنائس الاورثوذكسية في الامبراطورية العثمانية تحت الحماية الروسية وتعطي الروسيا الحق في التدخل المستمر في شؤون الامبراطورية العثمانية الداخلية . واقترح في الوقت نفسه على انكلترا الاتفاق على اقتسام الامبراطورية التي حملت في الماضي صنوف الذعر والخوف حتى ابواب فيينا . كذلك طالبت فرنسا بدورها للكاثوليك بمفاتيح الاماكن المقدسة مهددة السلطان بتدخل مسلح (١).

وقد كان هذا الخلاف سببا في وقوع حرب القرم . فلم تكن بريطانيا لتوافق على تجزئة الامبراطورية العثمانية . بل انها جعلت من المحافظة على كامل حدودها المبدأ الرئيسي الدائم لسياستها الشرقية . فبحجة الرغبة في حماية هذه الامبراطورية كانت بريطانيا تود تسيير الباب العالي في السبيل المؤاتي لمصالحها السياسية والاقتصادية ، وبالتالي السيطرة في الشرق والعمل على اخفاق فرنسا والروسيا تحت ستار حماية السلطان(٢)

وتمكنت الحكومة الانكليزية بمهارة فائقة من اقناع فرنسا بعقد تحالف مع السلطان واتفاق مع النمسا بغية الدفاع عن الامبراطورية العثمانية ضد جميع الاطماع الروسية . ولم تلبث سردينيا ان اشتركت بهذا الحلف .

وكانت غاية حرب القرم صد تدخل الروسيا المسلح في الامبراطورية بالقوة . فمني نقولا الاول ورفضت هكذا ، بفضل تكتل انكلترا والنمسا وسردينيا ، الحماية الروسية لجميع اورثوذكس الامبراطورية العثمانية . ولكن الدول الاوروبية المذكورة لم يكن بوسعها ان تترك رعايا السلطان المسيحيين تحت رحمة الباب العالي . فقد سوى خط شريف جلخانة بين المسلمين والمسيحيين ولكن ذلك لم ينفذ عمليا . فكان على الدول الاوروبية الغربية ان تذكر السلطان بذلك وان تتفق والحكومة على برنامج في سبيل تحقيق ذلك . فاقترحت بريطانيا ان تضمن الدول الاوروبية " التنظيمات " ضمانا جماعيا الا ان الاتراك رفضوا هذا الاقتراح . لانهم كانوا يودون تعزيز السلطة المركزية اي صلاحيات الباب العالي واخضاع جميع سكان الامبراطورية الى سلطانه على حد سوا" ، ودونما تمييز في الدين او العرق . وللوصول الى ذلك كان عليهم ان يتخلصوا من جميع المؤسسات المستقلة استقلالا ذاتيا والتي كانت تتمتع بها بعض الشعوب المسيحية . كانوا يسعون الى اقامة ادارة منظمة مكان النظام الاستبدادي غير المنظم بحيث تتوفر فيها الضمانات اللازمة لتوفير الحرية والعدل .(٣)

---

(١) ج ٤ ص ٤٠ــ ٤٥

(٢) سينيبوس ص ٥٩٥ ــ ٥٩٦

(٣) دريو ص ١٨٤ ــ ١٨٦

وقد جرى جدال طويل حول هذه المسالة في موتمر فيينا سنة ١٨٥٥ . وتم الاتفاق فيه على ان تسوى مسالة الرعايا المسيحيين في الامبراطورية العثمانية في اتفاقات خاصة تبرم بين النمسا وفرنسا وانكلترا وتركيا .

٣ ـ معاهدة باريس والامر الشريف الهمايوني الصادر في ١٨ شباط سنة ١٨٥٦

وقد تقرر في فيينا اقامة موتمر في باريس لعقد صلح نهائي في الشرق . وكان في نية الدول الاوروبية الكبرى العودة الى مسالة الاصلاحات (التنظيمات) . ولكن الباب العالي تمسك بمعارضته التامة . وبعد جدال عنيف استقر الراي على ان يصدر السلطان امرا اصلاحيا قبل انعقاد موتمر باريس وان يبلغه للموتمر اثناء انعقاده .

وفي ١٨ شباط سنة ١٨٥٦ نشر السلطان عبد المجيد في القسطنطينية امره الشريف الهمايوني وعممه على ممثلي جميع الدول الكبرى في باريس في شهر اذار . وقد تضمن هذا الامر تدابير اوسع من الامر الشريف الصادر في جلخانه (١) .

وقد اوضحت غاية الامر الشريف الهمايوني في المقدمة بما يلي : (٢)

" رغبة في تجديد الانظمة المستحدثة وتوسيعها للوصول الى حالة تتفق وكرامة الامبراطورية ومركزها بين الامم المتمدينة ، وبعد ان توفر لحقوقي في الامبراطورية تكريس خارجي يجب ان نعتبره بداءة عهد جديد ، وذلك بفضل ولاء كافة رعاياي وجهودهم المشكورة وبفضل الموازرة الودية من قبل حليفاتي الشريفة ، الدول الكبرى ، فاني ساعمل على زيادة رفاهية هذه الامبراطورية وازدهارها الداخلي وتامين سعادة جميع رعاياي الذين هم سواسية في نظري ولهم محبة واحدة في قلبي والذين تجمعهم الروابـــــط الوطنية القلبية ، كما اني ساوجد جميع الوسائل التي من شانها تنمية الازدهار في الامبراطورية يوما بعد يوم " .

وهكذا جددت وثبتت جميع الضمانات التي وعدت بها قوانين التنظيمات وخط شريف جلخانه جميع سكان الامبراطورية فيما يتعلق بحماية اشخاصهم وممتلكاتهم ، دونمـــــا

---

(١) انجلهارد ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ، مارتنز ص ٥٠٨

(٢) انجلهارد " " ٢٦٢ ـ ٢٧٠

ومارتنس ج ١٥ ص ٥٠٨

تمييز في الطبقة او المذهب ٠

وجاء في المادة الثانية : "تؤكد جميع الامتيازات والحصانات الروحية الممنوحة في الماضي او التي ستمنح في المستقبل وتثبت لجميع الطوائف المسيحية وغيرها من الطوائف غير الاسلامية المقيمة في امبراطوريتي وفي حماي" ٠

"وسيطلب الى كل طائفة مسيحية بل الى كل طائفة غير مسلمة ان تعمد ، خلال مدة معينة من الزمن ، وبموافقتي السامية واشراف بابي العالي ، الى فحص حصاناتها وامتيازاتها ودرسها وذلك لاقتراح الاصلاحات المنشودة التي تقتضيها تطورات الزمان ٠ اما السلطات التي منحها السلطان محمود الثاني وخلفاؤه الى البطاركة والمطارنة لدى المسيحيين على اختلاف مذاهبهم فانه سيوفق بينها وبين الوضع الجديد الذى عقدنا العزم على توفيره لهذه الطوائف المسيحية بوحي من نوايانا الطيبة "٠

فلم يعد الباب العالي ليكتفي بضمان الامن لرعاياه العثمانيين كما كانت الحال عام ١٨٣٩ بل اراد منحهم الحرية والمساواة الشرعيتين من غير تمييز في الدين ٠ كذلك امن الباب العالي الحرية الدينية التامة ٠ فجاء في الخط الشريف الهمايوني " انه سيتخذ التدابير الحازمة ليؤمن لكل مذهب ، كامل الحرية في ممارسته ، مهما كان عدد اتباعه ٠"

" وسيزيل من البروتوكول الادارى كل تحيز او تسمية من شانها جعل اية طبقة من رعايا امبراطوريتي دون اية طبقة ثانية، بسبب من مذهبها او لغتها او جنسها ٠ وستوضع القوانين الصارمة لمعاقبة الافراد او اصحاب السلطة الحكومية عندما يستعمل اى وصف ينطوى على شتم او تحقير ما ٠ ونظرا الى ان ممارسة جميع المذاهب ستكون حرة في كل ناحية من نواحي امبراطوريتي ، فانه لن يضيق على احد من رعاياى في ممارسته طقوس الدين الذى يعتنقه كما لن يكره احد على تبديل دينه ٠ ولما كان اختيار جميع الموظفين والمستخدمين في امبراطوريتي وتعيينهم راجعين الى ارادتي السنية ، فان جميع رعاياى ، يقبلون بعد اليوم ، دونما تمييز بين القوميات المختلفة ، في الوظائف العامة وهم قادرون على الاضطلاع بها تبعا لكفاءتهم ومواهبهم وفقا لقواعد يجرى تطبيقها على الجميع "٠

وبازالة كل تفريق بين المسلمين والمسيحيين لم يعد على هؤلاء دفع الجزية بل اصبحوا يدفعون الضرائب التي يدفعها المسلمون واصبح لهم الحق في ان يمثلوا في مجالس الولايات وان يقبلوا في جميع الوظائف الادارية وجميع الرتب العسكرية ، بينما كانوا

مبعدين عن الجيش حتى ذلك الوقت ٠

" وبما ان المساواة في دفع الضرائب تستتبع المساواة في الالتزامات كما ان التساوي في الواجبات يستتبع التساوي في الحقوق ، فقد اصبح على الرعايا المسيحيين والذين ينتمون الى غير الطوائف الاسلامية ، كما على المسلمين ، ان يخضعوا لقوانين التجنيد ٠ اما مبدأ البدل والانتداب فسيظل مقبولا وسينشر في اقرب وقت ممكن كامل التشريع المتعلق بقبول خدمة الرعايا المسيحيين وغير المسلمين في الجيش "٠

وهكذا نرى ان الامر الشريف الهمايوني كان يتضمن انقلابا خطيرا في الامبراطورية العثمانية ٠ فقد كان الطابع الغالب على هذه الامبراطورية حتى ذلك الوقت دينيا طائفيا ، كان يقوم حكمها على القرآن وعلى احكام الاسلام ، وكان المقام الاول للمسلمين ٠ فجاء الامر الشريف الهمايوني يجعل هذه الدول علمانية فكان ذلك بمثابة تحول خطير في سياسة الامبراطورية العثمانية ٠

غير انه كان قد سبق للباب العالي ان اعلن عن رغبته في اجراء اصلاحات واسعة النطاق ولكنه لم يحققها ماحمل الدول الكبرى هذه المرة على عدم الاكتفاء بالوعود ، فاثار مندوبوها في مؤتمر باريس مسالة الضمانة الجماعية للاصلاحات من قبل الدول الكبرى الاوروبية ٠

ولكن عالي باشا رئيس الوفد التركي الى المؤتمر سعى الى تجنب ادراج مادة بهذا المعنى في معاهدة باريس(١) ٠

واوضح عالي باشا بان اي تنازل في هذا الصدد يعني فرض وصاية الدول الاوروبية على تركيا وان ذلك لا يتفق والمحافظة على حدود الامبراطورية وسيادتها ٠

واعلن عالي باشا ان اقصى حد يقبل به هو النص التالي : " تلاحظ الدول صدور الفرمان (الخط الشريف الهمايوني) المنبثق عن الارادة السنية وتقدر القصد المنطوي عليه " ٠ وقد هدد عالي باشا بالانسحاب فيما اذا ادرج حق الدول في التدخل في معاهدة باريس ٠

فجرى نقاش طويل بهذا الشان ٠ واخيرا تم الاتفاق على النص التالي ، الذي اصبح فيما بعد المادة التاسعة من معاهدة باريس التي وقعت في ٣٠ اذار سنة ١٨٥٦ في باريس :

---

(١) مارتنز ج ١٥ ص ٧٠٤

" ان جلالة السلطان ، وفاقا لحدبه الدائم الهادف الى رفاهية رعاياه ، دونما تمييز في الجنس او الدين ، قد اصدر فرمانا يؤكد نواياه النبيلة نحو الشعوب المسيحية في امبراطوريته ويحسن حالهم في ان واحد ، ورغبة منه في اعطاء دليل جديد على عواطفه في هذا الصدد فانه قرر ان يبلغ الدول الموقعة على هذه المعاهدة الفرمان المذكور الصادر عفوا من ارادته السنية . وان الدول الموقعة تلاحظ اهمية هذا الاعلان الكبرى . ومن الواضح ان هذا الاعلان لا يمكن ان يعطي في حال من الاحوال للدول المذكورة الحق في ان تتدخل سواء بصورة جماعية او بصورة انفرادية ، في خلافات جلالة السلطان مع رعاياه ولا في ادارة امبراطوريتـــه الداخلية " . (١)

ولكن ما معنى هذا الاعلان للامر الشريف الهمايوني وذكره الصريح في المعاهدة العامة اذا كانت الدول الموقعة غير قادرة في حال من الاحوال على تنفيذ هذه الوعود ؟ اذ من حق الدول الموقعة على معاهدة من المعاهدات بل ومن واجبها ان تسهر على تطبيق جميع بنودها ، فالمعاهدات تعقد للتنفيذ لا للوضع على الرف . ان ذكر الامر الشريف الهمايوني في نص معاهدة باريس اعطى الدول الموقعة على المعاهدة حق الاشراف من قبل الدول الاوروبية على تنفيذ الوعود المقطوعة بشان اصلاح الامبراطورية العثمانية ولكن الطريقة التـــي ورد بها ذكر الامـــر الشريف الهمايوني في معاهدة باريس كان يسودها الالتباس ويفسح المجال امام الاختلافات والمنازعات الجديدة . وهذا ما جعل الدول الاوروبية تلتزم جانب الحكمة والاناة والتحفظ في تدخلها بحيث تحول دون اي تجاوز لاستقلال السلطان وصلاحياته .

والحقيقة ان المادة التاسعة في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ كانت مصدر خلافات مستمرة بين الدول . فلم يكن بوسع الدول ان تكره السلطان على تحقيق الاصلاحات فيما لو تخلف من ذلك ، كما لم تكن تسمح لها منازعاتها المستمرة فيما بينها باي تدخل فعال سواء من قبلها جميعا او من قبل احداها . واستطاع الباب العالي ان يستغل هذه الظـــروف الى ابعد حد بفضل مهارة رجاله الدبلوماسية ونجاحهم في الحؤول دون تالب الدول على تركيا وفي اثارة اسباب الشقاق فيما بينها .

---

(١) مارتنز ج ١٥ ص ٧٣٤ و محمد فريد بك ص ٢٧٨

هذا ولم يكن من اليسير تنفيذ الاصلاحات الموعودة وذلك لافتقار الباب العالي الى الوسائل اللازمة اذ لم يكن لديه الموظفون الاكفاء ولا الاموال الضرورية . فالخزينة كانت في عجز متواصل والادارة المالية في فوضى تامة وكان الموظفون الحكوميون باشد الحاجة الى الصفات المسلكية التي تمكنهم من اداء مهمتهم .

اضف الى ذلك ان السواد الاعظم من المسلمين كانوا شديدي الحرص على اوضاعهم بالنسبة الى ابناء الطوائف الاخرى التي كانت تعيش في كنف الامبراطورية العثمانية . ولم يكن باستطاعة الحكومة التركية ان تفرض عليهم بصورة مباشرة المساواة مع الرعية . كما ان المسيحيين انفسهم لم يتحمسوا كثيرا للاصلاح . وقد رفضوا بعض الواجبات الجديدة ولا سيما الخدمة العسكرية وفضلوا الاستمرار في دفع البدل . وقد ارادت الحكومة التركية ، في سبيل تحقيق المساواة التامة بين المسلمين وغيرهم من ابناء الطوائف المسيحية وغيرها ، ان تزيل الامتيازات الدينية الممنوحة للطوائف المسيحية .

وقد راى المسيحيون ان اخضاعهم للقوانين العامة معناه القضاء على الحماية الخاصة التي كانوا يتمتعون بها . وكان رجال الاكليروس في طليعة المعارضين للنظام .

غير ان الحكومة التركية كانت حريصة على تركيز سلطتها تركيزا قويا يمكنها من اخضاع جميع الولايات والطوائف لنفوذ السلطان .

ولم تلبث الدول الكبرى ان بدات تدعي حق التدخل في شؤون تركيا الداخلية وفاقا للمادة التاسعة من معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ . وكانت اول فرصة سنحت لها للتدخل عام ١٨٥٨ عندما ثار مسيحيو الهرسك والبوسنة . فاحتج السلطان على تدخل الدول الاوروبية . الا ان اغتيال قنصلي فرنسا وانكلترا في جدة وقتل بعض المسيحيين حمل بريطانيا على ضرب المدينة بالقنابل ، كما جعل فرنسا تطالب باجراء تحقيق في الامر . وقد ادى ذلك الى معاقبة ثلاثة من كبار الموظفين الاتراك وفرض تعويضات ضخمة على ابناء المدينة لتدفع الى اهل الضحايا . (١)

وهكذا نرى ان الدول الاوروبية قد تمكنت من التدخل دون ان يستطيع الباب العالي معارضتها في ذلك .

وفي ٥ تشرين الاول سنة ١٨٥٩ خطت الدول الاوروبية خطوة ثانية في هذا السبيل ، اذ قدمت مذكرة الى السلطان عبد المجيد مبينة فيها ان حكومته لم تبادر

---

(١) محمد فريد بك ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

الى " تحقيق الاصلاحات بصورة تدريجية متواصلة " (١) وان من حق الدول الاوروبية ان تحقق في طريقة اجراء الاصلاحات . فلم يرد الباب العالي هذا الادعاء بصورة مباشرة حازمة . واعتقدت روسيا ان الوقت قد حان لتنظيم رقابة الدول الجماعية على تركيا . فعممت في ٢١ ايار سنة ١٨٦٠ على الدول الموقعة على معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ مذكرة تقترح فيها تاليف لجنة دولية للقيام بتحقيق في الايالات التركية ولمنح ضمانات قانونية للمسيحيين ، فاضطرب الباب العالي ولكنه امر ، رغم ذلك ، باجراء تحقيق لم يسفر عن اية نتيجة عملية .

الا ان مسالة التدخل الاوروبي في شؤون الامبراطورية العثمانية التي اثارتها المادة التاسعة من معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ والتي كانت موضع جدل وخلاف طويلين ، لم تلبث ان وجدت الحل النهائي الملائم عندما وقعت حوادث " سوريا " . فقد تدخلت الدول الاوروبية في شؤون الامبراطورية العثمانية الداخلية بصورة عملية ، الا ان الخلاف فيما بينها منذ البدء ظل الصخرة الذي كان رجال السياسة الاتراك يستمدون منه قوتهم .

القسم الثاني

نظرة عامة في تاريخ لبنان من ١٨٤٠ الى ١٨٦٤

١) انقلاب اللبنانيين على ابراهيم باشا . — عندما استتب الامر لابراهيم باشا في سوريا وايقن انه اصبح سيد البلاد الاوحد اخذت سياسته الودية ازاء اللبنانيين تتحول الى اساليب على شيء من العنف والاستبداد (٢) . ولم يلبث اللبنانيون الذين ابتهجوا بزوال الحكم العثماني في بلادهم ان راوا انفسهم يرزحون من جديد تحت وطاة السيطرة المصرية . وقد اثار ابراهيم باشا سخط اللبنانيين بصورة خاصة ودفعهم الى الانقلاب عليه عندما حاول تجريدهم من السلاح ، اذ اعتبروا هذه المحاولة مسا لكرامتهم وتجاوزا لتقاليدهم (٣) . ومما زاد في سخطهم اوامره الى شباب البلاد للانتظام في صفوف الجيش (٤) . وفي ذلك الوقت كان المستر ريتشارد وود ممثلا للحكومة الانكليزية في

---

(١) جوبلان ص ٣٦٤

(٢) لبنان مباحث علمية واجتماعية ص ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٦

(٣) " " " " ٢٩٥ — ٢٩٦

(٤) المحررات ج ١ ص ٨ — ١٠ الشدياق ص ٥٨٣ — ٥٨٤

سوريا فاحس بحراجة الموقف ووعد اللبنانيين بان تعترف حكومته بامتيازاتهم الخاصة ان هم قدموا المساعدة الخاصة لاخراج المصريين من سوريا (١)٠ اتفقت عندئذ كلمة الدروز والنصارى (٢) فاعلنوا الثورة على المصريين في سبيل استقلال البلاد وفي ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ عقد اجتماع في انطلياس حضره ممثلون من جميع الطوائف وتعاهدوا فيه على النضال لانقاذ البلاد من الحكم المصري كما دعوا الاهالي الى التعاون لهذه الغاية (٣) ٠ وتتابعت الاحداث فاضطر محمد علي على اثر تدخل انكلترا والنمسا وروسيا وفرنسا ، الى التخلي نهائيا عن سوريا وجلت الجيوش المصرية عنها ٠ واعتقد الامير بشير ان فرنسا لن تخذله هو وحليفه محمد علي (٤) ٠ فرفض جميع العروض الرامية الى فصله عنه اعتقادا منه ان فرنسا ستقف الى جانبهما حتى النهاية ، وبعد مفاوضات طويلة بين الدول الكبرى تم الاتفاق على المحافظة على مركز محمد علي باشا في مصر اما الامير بشير فقد اضطر الى التنازل عن الامارة (٥)٠

٢) تعيين الامير بشير قاسم ٠ــ منذ ذلك الوقت ارادت الحكومة التركية ان تقيم واليا تركيا على لبنان فاستاء اللبنانيون عندما بلغهم هذا النبأ ٠ وقد نصح مندوبو الدول الى الحكومة التركية ان تعدل عن هذا الراي، فابقيت الامارة اللبنانية وتم الاتفاق على تعيين الامير بشير قاسم ملحم الشهابي على راسها (٦)٠ وبعام ١٨٤٠ تبدأ حقبة جديدة هامة في تاريخ لبنان ٠ فذهاب ابراهيم باشا وذهاب جيشه لم يعيدا السلام الى ربوع الشام بل على العكس فان عهد الاصلاحات الذي دشن باصدار خطي شريف جلخانة وذكريات الاحتلال المصري (٧) قد اثارت فيما بعد مشاكل على جانب كبير من الخطورة ولا سيما في جبل لبنان ٠ فقد كانت السياسة التي اتبعها ابراهيم باشا تجاه الدروز وبالا على البلاد ٠ واذا كان الدروز والمسيحيون قد اتفقوا عام ١٨٤٠ فيما بينهم لمقاومة الطغيان المصري فان ذكريات ١٨٣٤ و ١٨٣٧ كانت اعمق من ان تنسى او تمحى بسهولة ، ومن جهة ثانية فان الموارنة في لبنان كانوا يحرصون كل الحرص على مركزهم

---

(١) حسر اللثام ص ٦٩
(٢) " " ٦٩
(٣) المحررات جزء ١ عدد ١٠ و ٢٠
(٤) حسر اللثام ص ٧٠
(٥) الشدياق ص ٦١٠ ــ ٦١١ ، في سبيل لبنان ص ١٨٨ ــ ١٩٠
لبنان مباحث علمية ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨
(٦) المحررات جزء ١ ص ٢١ ــ ٢٢ ولبنان مباحث علمية ص ٢٩٢
(٧) بسبب من السياسة التي اتبعها ابراهيم باشا في لبنان والتي اعتمدت العنف والشدة ٠

الممتاز الذى كانوا قد توصلوا اليه في عهد الامير بشير الكبير وكانوا يدعون ان على الباب العالي ان يعترف رسميا بهذا المركز . هذا وان مقاتلة اللبنانيين عموما للجيش المصرى في اواخر عهد الاحتلال المصري جعلت من الصعب عليهم الاعتراف بسيادة السلطان على بلادهم . وقد تدخل الانكليز لحملهم على دفع الضريبة السنوية من جديد للباب العالي ، اضف الى ذلك ان ثورة الموارنة على المصريين قد خلقت حركة شعبية ديموقراطية في وجه رجال الاقطاع واصحاب الثروة الذى كان معظمهم هنا يؤيد المصريين . واذا كانت هذه الحركة قد بدات غامضة غير واضحة فانها لم تلبث ان مثلت دوراكان يزداد اهمية يوما بعد يوم بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ .

٣) بريطانيا على مسرح السياسة اللبنانية :- ولا بد لنا من الاشارة الى ظهور بريطانيا بشكل ظاهر منذ ذلك الحين على مسرح السياسة اللبنانية والى المكانة الكبيرة التي يحتلها في هذه المرحلة من التاريخ اللبناني الكولونيل روز وريتشارد وود والسير ستراتفور كاننغ (١) .

٤) السياسة التركية :- واذا كانت تركيا قد صممت على اعادة تنظيم امبراطوريتها واصلاح الحال فيها فلم تكن غايتها تعزيز نفوذ طائفة من الطوائف او تقوية فئة من الفئات بل كان همها الرئيسي تدعيم سلطتها المركزية والقضاء على اي نوع من انواع الاستقلال الذاتي (٢) .

ولم تفتأ الدولة العثمانية تنتظر الوقت المناسب للقضاء على استقلال لبنان الداخلي وازالة الامارة الشهابية من عالم الوجود . واذا ادركنا ان هذه النية كانت تؤلف اساسا من اسس السياسة التركية ازاء لبنان ، استطعنا الوقوف على عامل من العوامل الكثيرة التي سببت ما وقع في لبنان من حوادث بين عام ١٨٤٠ و ١٨٦٠ (٣) .

واذا ما كانت تركيا قد وافقت على تعيين الامير بشير قاسم ملحم فذلك لانها لم تتمكن من تحقيق رغباتها مرة واحدة ولانها انست من الضعف والخنوع في الامير الجديد ما يجعلها تعتقد بانها قادرة بواسطته على تنفيذ كافة مآربها في لبنان . وقد

---

(١) راجع في تيستا جميع الوثائق بين ١٨٤٠ و ١٨٤٦

(٢) La Situation au Liban , John Lemoine

(Revue des Deux Mondes Ier mai 1842) Les Druses et Les Maronites

(٣) حسر اللثام ص ٢٣

حرص الباب العالي على ابراز حقوقه السلطانية في الفرمان الذي عين بموجبه الامير بشير قاسم ملحم ، (١) تاريخ ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ ٠

٥) توقف المسيحيين والدروز من الامير بشير قاسم ٠ — واذا كان النصارى قد سروا بتعيين الامير الجديد فان الدروز لم يخفوا حنقهم واستياءهم على ما يروى صاحب حسر اللثام (٢) لانهم كانوا ساخطين على جميع آل شهاب منذ ايام الامير بشير الثاني الكبير الذي يلقون على عاتقه تبعة مقتل الشيخ بشير جنبلاط واضطهاد كاشليخ آل العماد ونكد ٠ هذا ولم تكن سياسة الامير بشير قاسم ملحم تجاه الدروز ، على ما يروى صاحب اللثام ايضا (٣) خيرا من سياسة الامير بشير الكبير (٤) ٠ واضف الى ذلك الضرائب المرهقة التي كان الاتراك لا ينفكون من فرضها على اللبنانيين ومطالبة الامير بشير قاسم بجمعها والدسائس الدولية التي بدات تذر قرنها في لبنان (٥) وتتخذ من اختلاف الطوائف وتعدد المذاهب سبيلا للنمو والتغلغل في البلاد (٦) ٠ وتداشتد تتفي هذه الحقبة اسباب الجفاء بين الطائفتين المارونية والدرزية ٠ اما الموارنة فكان يشجعهم على ذلك عملاء الفرنسيين بواسطة رجال الاكليروس واما الدروز فقد تولت الحكومة التركية تغذية هذه الروح لديهم ٠ وبينما نرى الموارنة يميلون الى الامتناع من دفع الضرائب وينزعون الى المطالبة بالاستقلال نرى الدروز يزدادون تقربا من الاتراك ويضربون على الوتر الديني الاسلامي ويطالبون الباب العالي بتنصيب احد امرائهم على الجبل او بتعيين حاكم تركي ٠ (٧) ويذكر صاحب حسر اللثام ان بطريرك الموارنة ، عندما علم بقدوم الانكليز الى بلاد الشام "اسرع الى تلبية قنصل فرنسا فاعلن ان الانكليز اكفر الكافرين وحرم كل واحد يختلط بهم اقل اختلاط وقال باطفاء عيني كل نصراني يرى بعينه مراكبهم " ويضيف صاحب حسر اللثام الى

---

(١) توستا جزء ٣ ص ٨٣
(٢) ص ٧٣
(٣) " ٧٣
(٤) الشدياق ص ٦١٤
(٥) حسر اللثام ص ٧٤
(٦) حسر اللثام ص ٧٥ — ٧٦ — ٧٧ — ٧٨)
(٧) حسر اللثام ص ٧٧ — ٧٨ — ٧٩

ذلك قوله :"وكان الامير بشير قاسم مثل سلفه بطاعة الموارنة ،فلما اقام عساكر الانكليز مدة في لبنان سرى بين الدروز اعتقاد انهم من آل حمزة وكان الباعث على هذا الاعتقاد بعض اكابرهم الذين راوا ان يحالفوا الانكليز على الموارنة وصار الدروز من ذلك اليوم اصدقاء الانكليز ورجالهم في بلاد الشام وانتبهم انكلترا الى هذا الامر فرضيت من تودد هم وصيرتهم حزبها في البلاد وصار قنصل فرنسا من ناحية والبطريرك من ناحية اخرى يحثون الناس على كره الانكليز وكل من والاهم فكان ذلك باعثا على زيادة التضاغن بين الدروز والموارنة ". (١)

ولم يكن تطور التنافر الطائفي ليغضب الحاكمين (٢) فقد كانوا يرغبون في اقامة الدليل على ان الحكم الذاتي غير صالح في لبنان وان تعيين وال تركي كفيل وحده فقط بوضع حد للمنازعات الطائفية .

وقد لفتت الحكومة البريطانية نظر الباب العالي الى عواقب هذه السياسة (٣) .

وما حمل الدروز على مقاومة الامير بشير قاسم ملحم محاولته انتزاع بعض الامتيازات التي كان يتمتع بها الدروز ومنحها الى مشايخ من المسيحيين يعينهم بنفسه وفي وضع وكيلين مسيحيين لدى كل شيخ درزي لحماية الفلاحين المسيحيين من عسفه (٤) وقد اعلن الامير بشير قاسم انه سيضع الشيخ بشارة الخوري على راس الديوان الذي كلف تشكيله من قبل الباب العالي والواجب تاليفه من ممثلي مختلف الطوائف المسيحية (٥) .

٦) حوادث سنة ١٨٤١ .ــ "لم يحسن الامير بشير قاسم ملحم تمكين سلطته في الجبل ويحمل القوم على مهابته واحترامه ولم يتحر معرفة طرق جباية الاموال ، فحدثت الصدعات في الراى والتفرق في الكلمة وتضاربت الاغراض والاهوا" ودبت عقارب العبث والفساد وهاجت الاحقاد والبغضا" بين الدروز والنصارى الى حد ان ادت الى المنازعات والمقارعات".(٦)

---

(١) حسر اللثام ص٨٠

(٢) المحررات ج ١ عدد ١٥

(٣) المحررات ج ١ ص ٢١ ــ ٢٢

(٤) شرشل ص٣٨

(٥) الشدياق ص٦١٥

(٦) لبنان مباحث علمية ص ٢٩٢

"وكان ابتداء القتال في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر من سنة ١٨٤١ ولم تسترح البلاد من ذلك اليوم الى ان مرت عشرون سنة كانت البلاد فيها فوضى والطائفتان في نزاع مستمر وتحرير الخبر ان بعض شبان دير القمر نزلوا الى الوادي الفاصل بين بلدتهم وبين قرية بعقلين ودخلوا ارضا لشيخهم ناصيف ابو نكد فاصطادوا فيها طيرا وقام لهم الحراس الدروز من اتباع ناصيف بك فاوسعوهم ضربا ولكما وطردوهم من الارض، ولما عاد هؤلاء الشبان الى دير القمر واثار الضرب ظاهرة عليهم هاج ذووهم واصحابهم واسرع نحو ٦٠ رجلا منهم الى مكان الخصام وبدأوا باطلاق النار على الدروز . وكان هؤلاء قد احسوا ان النصارى بعثوا الى دير القمر يطلبون المدد فجمعوا وجمعوا حوالي ٢٠٠ رجل وانتشب القتال بين الفريقين فقتل من النصارى خمسة رجال وجرح ثمانية وقتل من الدروز ١٦ وجرح ١٦ آخرون . وكان الدروز يتجمعون من القرى المجاورة على رجال النصارى حتى بلغ عددهم حوالي ٦٠٠ رجل ، ورجال دير القمر من النصارى يتأهبون لمعاونة اخوانهم" (١). ولو لم يمر الكولنيل روز قنصل انكلترا العام وقتئذ في تلك الانحاء صدفة ويتدخل في الامر معرضا حياته للخطر لوقع قتال دام بين الفريقين (٢). غير ان الفريقين كظما غيظهما على مضض ولم ينته الامر في الواقع عند هذا الحد ، بل ظل كلاهما يتربص الفرص ليوقع بالفريق الاخر ، ويذكر مؤلف حسر اللثام (٣) ان النصارى اعتدوا على الدروز بعد الحادثة الانفة الذكر اذ قتلوا ثلاثة منهم في جزين قدموا اليها من قبل آل جنبلاط لجمع اجورهم واملاكهم ، فاندفع الدروز في سبيل الانتقام يهاجمون النصارى انى وجدوهم . ولم يأت يوم ١٣ تشرين الاول سنة ١٨٤١ حتى كانت بلدة دير القمر محاطة بالدروز من جميع الجهات فاضطرب سكانها واخذوا يستعدون لهجوم خصومهم ، وكان الامير بشير قاسم في دير القمر ولم يكن بوسعه ان يحرك ساكنا . وظلت دير القمر معزولة مدة اربعة ايام وقد حاول الامير بشير قاسم ان يوسط لدى الدروز الامير محمودا ابن الامير بشير فلم يسمع له قول ، ثم لم يلبث ان وقع القتال

---

(١) حسر اللثام ص ٨٠ ــ ٨١
(٢) " " " ٨١
(٣) " " " ٨٢

داخل البلدة وخارجها وانتشر السلب واندلعت السنة النار في البيوت والازقة والمخازن .
وبينما المعركة على اشدها قدم ايوب باشا من قبل الوالي التركي على اثر تدخل الكولونيل روز
الذي حضر بصحبته لاخماد نار الفتنة . الا ان ذلك كان مؤقتا فان الدروز استأنفوا
بعد ذلك مقاتلة النصارى . وعندما عجز ايوب باشا عن اصلاح ذات البين اضطر الى ان
يرجع الى بيروت فاوفد للقيام بمهمته تركي اخر يدعى سليم بك وقد ذهب بصحبته قاضي
بيروت . فصدر فور وصولهما امر الامير بشير بالانسحاب من " دير القمر " ، وكانت
جموع الدروز تتدفق على دير القمر من حوران ووادي التيم وغيرهما من الانحاء . وعندما
اشتد الخطر قام بطريرك الموارنة ومطران زحلة للروم الكاثوليك فاعلنا الجهاد لنصرة ابناء
دينهم فانتشرت نيران الثورة في سائر انحاء الجبل ولم يعد حديث للناس سوى ذلك وقد
وقعت مناوشات كثيرة بين الدروز والنصارى ، وكانت غاية النصارى الاولى انقاذ دير القمر
ولكنهم لم يوفقوا الى ذلك ، لان الدروز كانوا اكثر تنظيما ولان بعض النصارى من طائفة الروم
الارثوذكس كانوا ينضمون الى الدروز اضطرارا او اختيارا وفي مدة عشرة ايام اخضعت
جميع القوى النصرانية بعد ان احرقت اديرتها وكنائسها واستولى الدروز على اموال ابنائها (١) .
وقد مضى ثلاثة اسابيع على حصار دير القمر ذاق سكانها من المسيحيين الامرين خلالها .
ولم يقبل المهاجمون بفك الحصار عنها الا بعد ان وافق سكان دير القمر على تسليم
اسلحتهم ، اثر وعد الدروز لهم بالامان . ولكن القلاقل لم تلبث ان عادت سيرتها
الاولى (٢) . وعندما غادر الامير بشير قاسم دير القمر بايعاز من السلطات التركية اهانه
الدروز اهانة كبيرة وجردوه من سلاحه ومعظم ثيابه وكادوا يقضون عليه (٣) . وقد
هاجم الدروز النصارى ، اثناء حصار دير القمر ، في مزرعة الشوف على مقربة من بيروت
وجزين والقرى المجاورة لها ، وبكاسين ودير مشموشة وبتدين القس وعين الجوزة
وجرنايا وجرجوع وعبرا والدبية وعين تراز وشرتون والعرقوب وبلاد الشحار
والجرد وغيرها من القرى في اقليم جزين واقليم التفاح . وقد ساعد الدروز افراد
من السنة والشيعة جاؤوا من انحاء صيدا بتحريض من الموظفين الاتراك . (٤)

---

(١) حسر اللثام ص ٨٤ ــ ٨٥ ــ ٨٦
(٢) " " " ٨٦ ــ ٨٧ ــ ٨٨
(٣) " " " ٨٧
(٤) " " " ٨٨ ــ ٨٩ ــ ٩٠

٧) تدخل قناصل الدول . — وقد حملت هذه الحوادث قناصل الدول على الاتصال بالسرعسكر سليم باشا فاستغرب هذا وراقدم فورا الى بعبدا حيث اجتمع بزعما" الدروز فانبهم على ما فعلوه ، فاظهروا "لا" الندم بادى" ذى بد" ، ثم لم يلبثوا ان استانفوا اعمالهم العدائية في المتن والبقاع . وكان الموظفون الاتراك يشجعون نايلما على ذلك بل ويتركون احيانا الجنود العثمانيون الذين عهد اليهم بالسهر على الامن ، يقفون بصورة سافرة الى جانب الدروز (١) .

عند ذلك تدخل قناصل الدولا ولا سيما المستروود قنصل انكلترا في دمشق ونصحوا المسو"ولين الاتراك ولا سيما نجيب باشا والي الشام بان يضعوا حدا لهذه الحوادث خوفا من ان تشمل جميع بلاد الشام . فصدرت اوامر مشددة بمنع الاعتدا"ات .

وهكذا انتهت حوادث سنة ١٨٤١ ، المعروفة بالحركة الاولى (٢) .

ويمكن ان نستنتج من المراسلات السياسية مدى التبعة التي تقع على عاتق الحكومة التركية في هذه الحوادث وما كانت تسعى اليه من ورا" ذلك ، مما ذكرناه انفا . ومن ذلك ما كتبه المستر وود الى نجيب باشا في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٤١:

" من المحقق ان السوريين عامة اصبحوا يعتقدون ان هذه الاعمال هي من الحكومة العثمانية ذاتها ... وارى ان نزع السلاح من اهالي حاصبيا وراشيا وزحلة في لبنان وانتيلبان هو تعد على حرياتهم وامتيازاتهم ومخالف تمام المغايرة للوعود الصريحة التي ابلغتهم اياها باسم الحضرة الشاهانية ... وان نزع السلاح من يد السوريين عامة امر مرغوب فيه ... بيد انا راينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان وانتيلبان في حين انه يسمح لسائر اتباع الباب العالي بحفظ اسلحتهم (٣) ."

وجا" في مذكرة مشتركة تقدمها قناصل فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا في بيروت الى سليم باشا في تشرين الثاني سنة ١٨٤١ " انه من الثابت ان الدروز اخذوا بذخائر وافرة موسلة من دمشق رغم تنويه القناصل المقيمين في هذه المدينة صاحب الدولة نجيب باشا تكرارا الى وجوب منعها ." (٤)

---

(١) حسر اللثام من ٩١ الى ٩٨

(٢) " " ص ٩٨ — ١٠٠

(٣) المحررات ج ١ ص ٧١ — ٧٣

(٤) المحررات ج ١ ص ٧٥ — ٧٨

وكانت تركيا تبغي ،على ما يبدو ،من وراء ذلك كله البرهان على ان سكان لبنان عاجزون عن حكم انفسهم بانفسهم وان تعيين وال تركي عليهم كفيل وحده فقط بوضع حد لمنازعاتهم الحزبية والطائفية . غير ان المستر ريتشارد وود ، كتب الى سليم باشا ، والي صيدا ، ينصحه بالاقلاع عن هذه الفكرة منبها اياه الى عواقبها الوخيمة : " يجب ان تعتقد دولتكم جيدا ان الجبليين عموما لا يسمحون ابدا ان يحكم لبنان باشا تركي لان ذلك ينافي امتيازاتهم القديمة التي اعترف بها الباب العالي وايدها موءخرا . ومن المحتمل كثيرا ان يمانع اللبنانيون بتنصيب علي باشا (١) فاذا حاربوه او طردوه من الجبل سقطت هيبة الباب العالي (٢) .

٨) ايفاد السرعسكر مصطفى باشا .- عند ذلك ارسلت الحكومة التركية السر عسكر مصطفى باشا نوري الى لبنان بحجة الرغبة في تهدئة الخواطر . وقد بذل جهودا بالغة لاقناع اللبنانيين باخلاصه وعزمه على تنظيم شوءونهم وبالفوائد الجمة التي يجنونها من التعاون الوثيق مع الدولة العثمانية (٣) " وقد اوعز مصطفى باشا الى الدروز والنصارى وغيرهم من ابناء لبنان ان يرفعوا اليه تقارير عن رغباتهم تتضمن موافقتهم على ان يكون والي لبنان مسلما تركيا والمطالبة بانهاء حكم الشهابيين وتبيان مظالمهم . ولكي يوقع بين الطوائف من جديد فقد كان يطلع كل طائفة على تقارير الطائفة المخاصمة لما وما كانت تنطوي عليه من شكاوى فيوءدى ذلك الى اثارة النعرات والضغائن القديمة (٤) . ومما يدل على تمسك ابناء لبنان باستقلالهم ما ذكره الشدياق من انهم ، عندما سمعوا بتصميم الحكومة التركية على تعيين وال تركي على لبنان ، "قدموا احتجاجا الى الدولة والي وكلاء الملوك الاربعة في اسلامبول ... وان مصطفى باشا اخذ بتملقهم ليرتضوا بولاية الدولة فابوا (٥) ." ولما كانت حوادث سنة ١٨٤١ م قد اضعفت الثقة في الامير بشير قاسم ملحم الشهابي ، فقد انتهز مصطفى باشا هذه الفرصة فاستقدم الامير وطلب اليه السفر الى استامبول .

٩) تعيين عمر باشا النمساوي .- ثم لم يلبث ان اقام عمر باشا النمساوي العثماني حاكما على لبنان في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٤٢ (٦) وقد ارسل عمر باشا الى بيت الدين

---

(١) هو الموظف التركي الذي كان مرشحا ليكون واليا على لبنان
(٢) المحررات ج ١ ص ٦٧ _ ٦٩
(٣) حسر اللثام ١٠١
(٤) " " ١٠١ _ ١٠٢ _ ١٠٣ _ ١٠٤ _ ١٠٥
(٥) الشدياق ص ٦٤٠
(٦) حسر اللثام ١٠١

ترافقه قوات عسكرية • وعلى اثر ذلك اضطربت الافكار وبادر اللبنانيون الى الاحتجاج لدى قناصل الدول الاوروبية ، مما حمل سفراء هذه الدول في استامبول على مراجعة الباب العالي بالامر(١)• وقد ابلغ وزير الخارجية التركية سفراء الدول في استامبول على اثر ذلك ، في ١٧ اذار سنة ١٨٤٢ " " ان الباب العالي لا يتشبث بابقاء عمر باشا واليا على لبنان وانما كان تعيينه من قبل السرعسكر مراعاة لظروف الحال وان الباب العالي قرران يرسل الى لبنان سليم بك عاهدا اليه بالوقوف على حقيقة الحال وتقديم تقرير بذلك " (٢) • وبالفعل فقد اوفد سليم باشا الى لبنان للتحقيق والوقوف على واقع الحال • واعتقد المسؤولون الاتراك ان بامكانهم التمسك بعمر باشا وعبثا حاول سفراء الدول اقناعهم بان اللبنانيين لا يمكن ان يقبلوا بذلك "•(٣)

٩) ثورة كسروان •– وقد عقب ذلك ثورة في كسروان فبادرت الحكومة التركية الى اعتقال عدد كبير من آل الدحداح • ولم يلبث اهالي الشمال (اهدن ، وبشراي) ان هبوا لنجدة اخوانهم في كسروان فانتصر الشماليون على جند الاتراك وانسحب هؤلاء الى طرابلس • وقد اشترك الدروز بهذه الثورة فادى ذلك الى خلع عمر باشا في ايلول سنة ١٨٤٢ واعتراف الحكومة التركية بحق اللبنانيين في ان ينتخبوا بانفسهم حكامهم وارسالها مندوبين للتحقيق في مؤهلات المرشحين لحكم لبنان (٤) •

وقد لاقى عمر باشا صعوبات بالغة في تحقيق المهمة التي انيطت به • وذلك ان الدروز كانوا ينتظرون منه ان يقدمهم في كل شيء وان يوفر لهم السيادة التامة على النصارى • ولكنه فعل عكس ذلك تماما • فاضطر الدروز الى افشاء كثير من المعلومات التي تتعلق بموقف الحكومة التركية من حوادث سنة ١٨٤١ المشؤومة ، كما هددوا بنشر المعاهدة السرية التي زعموا انهم عقدوها مع الحكومة التركية بشان مقاتلة النصارى • وقد شعر عمر باشا بحراجة الموقف فاعتقل خمسة من مشايخ الدروز واودعهم السجن في صيدا • فهاج اتباعهم

---

(١) المحررات جزء ١ ص ٧٩ – ٨١
(٢) " " " " ٨٣ – ٨٤
(٣) " " " " ٨٨ – ٩٦
(٤) الشدياق ص٦٤٢

واخذوا يجمرون بعدائهم للدولةالتركية ٠

١٩) الدروز يحاولون التفاهم مع النصارى ٠ــ وحاول الاتراك ان يدخلوا الانقسام في صفوف الدروز فعينوا لهم مشايخ ليقوموا مقام الذين سجنوهم كما حاولوا ان يستميلوا بعضهم بالهدايا والرتب والعطايا ٠ ولما راى الدروز قيام فريق كبير من الموارنة على الاتراك وفي طليعتهم يوسف كرم بدأوا يتصلون بزعماء الموارنة للاتفاق واياهم على الحكومة التركية وبين الدروز لاخوانهم النصارى ان الاتراك هم الذين دفعوهم في الماضي الى الفتك بهم ، كما تعهدوا لهم ان يخضعوا بعد الان لحكم الامراء الشهابيين غير ان الاتراك تمكنوا من احباط جميع المساعي المبذولة لجمع كلمة الطائفتين ٠ ولكن الدروز لم يعد باستطاعتهم الصبر على حكم عمر باشا النمساوي فاحاطوا في شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ ببيت الدين وقطعوا الماء عنها مطالبين بعزل عمر باشا والافراج من مشايخهم واعفائهم من القرعة وترك الحرية لهم في حمل السلاح ٠ ولكن الجيش التركي تمكن من ردهم على اعقابهم (١) ٠ عندئذ ادركت الحكومة التركية انه ليس بامكانها ان تعين فورا حاكما تركيا على لبنان ٠ ولكنها صممت على مقاومة كل محاولة ترمي الى اقامة اسرة مالكة في البلاد ٠

٢٠) تقسيم لبنان الى قائمقاميتين ٠ــ ولما رات الحكومة التركية ان اهل جبل لبنان لا يرضون بالوالي التركي ولا بحكم احد الا اذا كان من امرائهم اصدر الباب العالي امرا بتقسيم لبنان الى قائمقاميتين : الاولى نصرانية يقوم على راسها قائمقام مسيحي من غير الشهابيين والثانية درزية وعلى راسها قائمقام درزي (٢) ٠ وقد تم توقيع اتفاق في ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ بين الحكومة التركية وسفراء الدول ينص على ان يعين باشا صيدا القائمقامين من اللبنانيين ويمنحهما جميع الصلاحيات اللازمة لادارة الشؤون الداخلية (٣)٠

فعين الامير حيدر ابي اللمع قائمقاما على النصارى والامير احمد ارسلان قائمقاما على الدروز ٠

٢١) فشل النظام الجديد ٠ــ غير ان النظام الجديد لم يات بالنتائج الموجوة ٠ " لان الطائفتين كانتا مختلطتين في انحاء الجبل " فلم يمكن للحاكمين ان يقوما بالواجب عليهما اذ كيف يمكن لامير النصارى ان يحكم بعض الافراد الذين كانوا في قرى الدروز ولا يستاء الحاكم الدرزي الذي كانت مشاكلهم تقع في بلاده ٠ وكان يعدهـــم من جملة رعاياه ٠ ولم تخل بلدة من النصارى الذين كانوا عمالا ومزارعين لمشايخ الدروز

---

(١) حسر اللثام ١٠٩ ــ ١١٤
(٢) " " ١١٤ ــ ١١٥
(٣) المحررات جزء ١ عدد ٦١

يعيشون في اراضيهم ويدفعون لهم مالا معلوما اجرتها كل سنة . وكان هؤلاء المشايخ يعتبرون انفسهم رؤساء بالارث على اولئك المزارعين فلم يمكنهم السكوت عن استقلال عمالهم عنهم وانحيازهم الى اميرنصراني لا دخل له في قراهم ومصالحهم ... ثم ان الموارنة جعلوا يتذمرون : ويقولون ان تحكم الدروز لا يطاق ... ويحركون الناس على الفتنة باغراء اساقفتهم وعمال بطريركهم ... واما النصارى من غير الطائفة المارونية فكانوا يرضخون لحكم الامير الدرزي وعماله ويبدون تذمر ويؤثرون الدروز على حكم الاكليروس ... ورأى الاتراك ان اوفق الطرق لابقاء سيادتهم انماء العداء بين الطوائف واقامة امة على امة ...

ولما كثرت الشكوى من النظام الاخير بدأ رؤساء الطائفتين والحكام يتخابرون ... للتوفيق بين مصلحة الطرفين فكان الحكام الاتراك يثيرون الامور التي لا تمكن ... فلما رأى القوم ان المخابرات لم تجد نفعا عولوا مرة اخرى على الحرب ... وعلى ذلك عاد جبل لبنان الى حاله"(١)

٤) عودة الاضطرابات :- وقد قتل الموارنة مكاريا درزيا على مقربة من نهر الكلب فراح الدروز يفتكون بكل نصراني يلتقون به فقامت الطائفتان تستعدان للحرب وقد شجع الاتراك كلا الفريقين على الاخر (٢) " وبدات الحرب في اليوم الثاني عشر من شهر ابريل سنة ١٨٤٥ اذ هجم الموارنة على كافة القرى التي اجتمع فيها الدروز ما خلا المختارة وصاروا ينشدون الاناشيد الحربية وياتون الفظائع وهم يحسبون انهم تغلبوا على الدروز واخذوا بالثار منهم . وكان النصارى في قائمقامية الشوف تحت قيادة المطران الذي سار في طليعة المقاتلين وصليب النصرانية في يده فعلمت الحكومة بحركاتهم واذنت لهم اذنا رسميا بالهجوم على الدروز ومحاربتهم . ففعلوا ذلك وفازوا في اول الامر فوزا مبينا ... وقتلوا جماعة من الدروز وهجموا على القرى التي لهم في الشوف فدمروها ونهبوها وكانت عدتها اربع عشرة قرية ولما تقدموا على اعظم مواقع الدروز وهي المختارة مقر آل جنبلاط راوا جيوش الدروز فيها امنة ومعها فرقة من جيش الاتراك فقابلهم الدروز وعساكر السلطان وكسروهم . وفي عبيه جاء الدروز وحاصروا القرية وبطشوا بالنصارى . كل هذا وعساكر الاتراك واقفون يتفرجون على القتال ويضحكون من جهل النصارى : فقد كانوا يردونهم عن الدروز ولا يردون الدروز عنهم (٣)" . ولم يرجع الدروز عن عبيه الا بعد تدخل الكولونيل روز القنصل الانكليزي .

---

(١) حسر اللثام ص ١١٥ ـ ١١٦

(٢) " " ١١٧

(٣) " " " ١١٩ ـ ١٢٠

وقد حصلت مناوشات صغيرة في اكثر انحاء الجبل وجه على اثرها سعيد بك جنبلاط امرا الى الدروز يطلب اليهم فيها الكف عن اعمال العدوان . وقد جعلت هذه الحوادث ممثلي الدول الاجنبية والمسؤولين الاتراك يفكرون بوضع حد لهذه القلاقل المتكررة فقر الراى على الاستمرار في نظام القائمقاميتين على ان يعطى امراء الدروز ومشايخهم حق السيادة على النصارى المقيمين في منطقة الامير الدرزى شرط ان يكون لهؤلاء النصارى وكيل من طائفتهم يعاون الشيخ الدرزى على الحكم وقد عرف هذا النظام بنظام شكيب افندى . اما مدينة دير القمر الواقعة وسط القائمقامية الدرزية رغم ان جميع اهلها من النصارى فان الاتراك اخذوا يغرون اهلها بالامتناع عن قبول حكم مشايخ الدروز لانهم فتكوا بهم واذاقوهم صنوف العذاب في السنوات الخمس الماضية . وقد بعثوا الى الوالي يرغبون اليه تعيين حاكم تركي عليهم فاجابهم فورا الى طلبهم .(١) واستمر الموظفون الاتراك في تحريض السكان على بعضهم البعض واثارة الخلافات فيما بينهم . ولكن نوايا الباب العالي لم تخف على عقلاء البلاد فعمدوا الى اصلاح ذات البين بين الاهالي ووقعوا اتفاقا في ٢ حزيران سنة ١٨٤٥ تعاهدوا فيه على استئناف صلاتهم الاخوية (٢) . وعاد اللبنانيون الى المطالبة باعادة الامارة اللبنانية تؤيدهم في ذلك الحكومة الفرنسية (٣).

٩٥) **ايفاد شكيب افندى للتحقيق** . فاستغل الباب العالي هذه الحركة والقى تبعة ما رافقها من الاضطرابات التي فصلناها على الموظفين واعلم الدول انه كلف وزير الخارجية التركية شكيب افندى بالتحقيق في الحالة واتخاذ التدابير المناسبة (٤). وقد وصل بيروت في ١٤ حزيران سنة ١٨٤٥ فابقى الامير حيدر اللمعي على قائمقامية النصارى واقام مكان الامير احمد ارسلان اخاه الامير امين . بعد ذلك اعلن نظامه المعروف بنظام شكيب افندى الانف الذكر الذى حد كثيرا من صلاحيات القائمقامين وجعل هذين الاخيرين خاضعين في شؤونهما لباشا صيدا . وعندما توفي الامير حيدر سنة ١٨٥٤ اقترح خورشيد باشا تعيين الامير بشير احمد ابو اللمع خلفا له وكان اقل الامراء اللمعيين كفاءة .

وقد عمل خورشيد باشا على توسيع نطاق القلاقل والفتن ليبرر تعيين حاكم تركي

---

(١) حسر اللثام ١٢٢

(٢) المحررات ج ١ ص ١٨٨ ــ ١٩٠

(٣) " " " ١٩١ ــ ١٩٨

(٤) " " " ٢٢٨ ــ ٢٢٩

على لبنان (١)٠ وقد خلف الامير اللمعي على قائمقامية النصارى الامير بشير احمد ابو اللمع كما عين لقائمقامية الدروز الاميرامين ارسلان بدلا من اخيه الامير احمد ٠ وقد اثار تعيين الامير بشير احمد حسد منافسيه وخصومه من افراد عائلته ومن المشايخ ولا سيما آل الخازن ٠ فقد ناوأه هؤلاء جميعا الى درجة اضطر معها الى الالتجاء الى بيروت٠ ثم لم يلبث ان سافر الى الاستانة حيث برأ ساحته ومنها عاد الى بيروت فانتقم من خصومه بان اغرى اتباعهم من الخدم والفلاحين وحملهم على الانقلاب عليهم٠

١٦) القلاقل في كسروان٠ــ واذا كان نظام شكيب افندى قد تمكن من توفير الامن في البلاد مدة تسع سنوات اي من ١٨٤٥ حتى ١٨٥٤ فان ذلك لم يكن ليدوم طويلا لان معاملة الفلاحين من قبل رجال الاقطاع كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم وتنذر بشر كبير ٠ واذا كان فلاحو الاقضية المختلطة يتمتعون بحماية الوكلاء من عسف المشايخ فان الوضع كان يختلف عن ذلك في المتن وكسروان ، حيث لم يكن يوجد وكلاء وحيث كان نظام الاقطاع على اشده ٠ ويذكر جويلان (٢) نقلا عن الكونت بانتيغو ~~غليه~~ داراغون ، قنصل فرنسا في بيروت في ذلك الوقت ان "البلاد كانت تتمخض من ثورة داخلية " وان روح الثورة كانت تنتشر من قرية الى قرية في كل ناحية من نواحي القائمقامية المسيحية٠ وكان الفلاحون يتذمرون من اسيادهم ثم لم يلبثوا ان طالبوا بالغاء اخر ما تبقى من الامتيازات الخاصة برجال الاقطاع٠ وقد شهد كسروان بين ١٨٤٢ و ١٨٤٥ حركات ثورية موضعية ٠ ولكن جميع الاسباب الداعية الى ثورة تامة كانت قد توفرت عام ١٨٤٥ ٠ ولم يعد الفلاحون يقبلون بالغاء " السخرة " والاستخدام الدائم فحسب بل اخذوا يطالبون بالحقوق السياسية وازالة الفروق الاجتماعية والامتيازات المختلفة ٠ واهم شيء طالب به الفلاحون ملكية الاراضي التي كانت فقط لرجال الاقطاع ٠ واذا كان عدد كبير من الفلاحين المسيحيين في الجبل قد ضاق بهم الامر بحيث اضطروا الى الهجرة منذ عام ١٨٥٠ الى بيروت وصور وصيدا وحلب واللاذقية وطرابلس وانطاكية ودمشق وعكا وفلسطين عموما ثم الى مصر ، فان الباقين قد اضطروا الى التمرد والثورة بتاثير الحالة الاقتصادية ٠

وكان رجال الاقطاع والاكليروس قد احتفظوا لانفسهم بافضل الاراضي الخصبة فطالب الفلاحون بوضع نظام للاراضي يمكنهم من التمتع بخيرات الاراضي الانفة الذكر٠ وقد

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢١٩
(٢) ص ٣٦٧

كانت الثورة تهدد بالاندلاع وسط العائلات الاقطاعية نفسها • فقد كان حق كبير الاخوة وعادة الوارث المفضل يحولان دون اقتسام اية تركة من تركات الاراضي بين جميع افراد العائلة ولم تكن تقتصر كثرة التناسل على الفلاحين ، بل كانت تشمل ايضا رجال الاقطاع • فكان المحرومون من ابناء هؤلاء ينضمون الى صفوف الناقمين الثائرين من الفلاحين فتزداد بذلك الحركة الثورية قوة وشدة • ومما ساعد ايضا هذه الحركة تأييد الاكليروس الماروني • ذلك لان معظم رجال الدين كانوا من ابناء الشعب ولان الخوارنة والمطارنة كانوا يعينون من قبل ابناء الشعب من الاتقياء بعد ان تسبق تسميتهم من قبل البطريرك وكان رجال الدين يؤلفون الطبقة المثقفة في اوساط الفلاحين ، لذلك كانوا يضيقون ذرعا بنير الارستقراطية الاقطاعية ويتطلعون الى ممارسة السلطة الزمنية وقد كتب الكونت بنتفوغليو ، القنصل الفرنسي في ذلك الوقت بهذا الشان ما يلي : " ان رجال الدين يؤثرون تأثيرا لا شك فيه على الشعب وقد انتهى بهم الامر الى ان يتطلعوا الى ممارسة الحكم في الجبل فلم يعودوا يجاملون الامراء ولا المشايخ • " والحقيقة انهم شاطروا الشعب عواطفه واهواءه وقادوا بانفسهم الثورة ضد رجال الاقطاع وقد مثل مطران بيروت المونسنيور طوبيا دورا هاما في هذه الحركة (١) • وكان للحق الذي منحه نظام شكيب افندي للمطارنة في تعيين اعضاء المجلس الاداري اثر في اتجاههم الجديد • وقد تمكنوا من التأثير الكبير على القائمقامية المسيحية فاضطر رجال الاقطاع الى الرضوخ ولكنهم ظلوا حاقدين على الاكليروس • ولم يقتصر تطور نفوذ الاكليروس على القائمقامية المسيحية بل شجعوا ايضا الفلاحين المسيحيين العاملين لدى رجال الاقطاع الدروز على استئناف حركتهم التحررية •

وكان الاتراك لا يزالون مصممين على اخضاع جبل لبنان اخضاعا تاما وكان والي بيروت ينتظر فرصة مؤاتية للتدخل ، وكان من شان الفوضى ان توفر ارضا خصبة لمثل هذا التدخل • لذلك كانت مصلحة الباب العالي تقضي بترك الامر على غاربه •

واذا كان الامير حيدر قد تمكن من الحؤول دون الثورة حتى سنة ١٨٤٥ فان خلفه الامير بشير احمد ابو اللمع قد عجز عن ذلك • اذ انقسم رجال الاقطاع على بعضهم وكان كثير منهم طامعا في مركز الامير بشير احمد فشقوا عصا الطاعة عليه • وكانت عائلة آل الخازن

---

(١) جوبلان ص ٧٣ نقلا عن تقرير للكونت بنتفوغليو داراغون قنصل فرنسا الوارد ذكره في كتاب السيد رشارد ايدورد (سوريا في ١٨٤٥ الى ١٨٦٨) ص ١٢٥ •

مستقلة فعلا في كسروان · فثار بعض اقربائهما ، وكانوا من آل ابي اللمع ،على القائمقام الجديد فالتجأ هذا كما ذكرنا اعلاه الى بيروت ومنها توجه الى القسطنطينية حيث حوكم واعلنت براءته فتقرر اعادته الى مركزه · وقد ظن رجال الاقطاع عند ذهاب القائمقام ان بوسعهم استعادة حقوقهم الاقطاعية القديمة فنقم الفلاحون عليهم نقمة شديدة واخذت المقاومة تنظم في كل مكان بادارة الاكليروس · ومما ساعد على ذلك انقسام رجال الاقطاع على بعضهم البعض، ولم يمض طويل وقت حتى عمت الفوضى الجبل ، وعلى الرغم من العفو الذى صدر لصالح الامير بشير احمد ، فان نفوذه اخذ بالانهيار · وقد اراد اكتساب الدروز والموارنة الى جانبه · فصب جام غضبه على الروم الارثوذكس وراح يضطهدهم فكتب مطران بيروت للروم الارثوذكس الى بطريركه في القسطنطينية بهذا الشان فاتصل هذا الاخير بالباب العالي · وكان على الحكومة التركية وفاقا للامر الشريف الهمايوني ان تحمي الروم الارثوذكس، فعهد الى وارميك ، والي صيدا ، بالتحقيق ، فاكد هذا سوء الحال ولكنه اعلن انه لا يستطيع التدخل لان الفوضى كانت منتشرة في كل مكان ·

وقد طلبت انكلترا خلع الامير بشير احمد ولكن فرنسا عارضت ذلك · ولما راى الامير بشير احمد مناوأة بعض رجال الاقطاع له فكر بالانتقام منهم وشرع يثير الفلاحين عليهم ·

كان الجو اذا ملائما لقيام ثورة شعبية تدك اخر معاقل الاقطاع واثاره · وقد انطلقت الشرارة الاولى من كسروان حيث اعلن الفلاحون الحرب على مشايخ آل الخازن · فطرد هؤلاء من دورهم واضطروا ان يلجأوا الى والي بيروت هم وجميع افراد عائلاتهم (١)·

وقد استولى الفلاحون على جميع املاكهم واقتسموها فيما بينهم · وامتدت الثورة من كسروان الى المتن · وقد ايد رجال الاكليروس الثوار بادئ الامر ولكنهم لم يلبثوا ان فقدوا زمام الامر · فانتقلت القيادة الى ايدى الزعماء الشعبيين ، كيوسف كرم وطانيوس شاهين وسواهما ·

وفي الجنوب حيث كان السكان من الدروز والمسيحيين تحولت الثورة الى نضال بين الطائفتين (٢)

---

(١) جوبلان ص ٣٧٤ نقلا من ادوارد س ص ١٢٥ وما بعدها ، وتيستا ج ٦ ص ٦١

(٢) تيستا ج ٦ ص ٢٣

١٧) محاولة تعاون الاقطاعيين في القائمقاميتين :- وكان الامراء ومشايخ الدروز في بدء الحركة ، متضامنين مع رجال الاقطاع الموارنة ، في نضالهم ضد الفلاحين الثائرين . فانهم عندما رأوا امتيازاتهم في خطر ، اقترحوا على ابناء طبقتهم من المسيحيين ان يشركوا واياهم في قمع الثورة الشعبية . ولكن خورشيد باشا والي بيروت بين لهم استعداد فلاحيهم انفسهم للثورة ونصحهم بالعدول عن نجدة رجال الاقطاع المسيحيين . وقد بقي الفلاحون الدروز موالين لاسيادهم بسبب الروابط الدينية الوشيجة التي كانت تربطهم بهم . فتضامن الدروز سادة وفلاحين ، للوقوف في وجه ما كانوا يسمونه بالخطر المسيحي (١).

وقد انقسم لبنان ولا سيما المتن وكسروان الى احزاب : فكان هناك انصار الامير بشير احمد وانصار رجال الاقطاع وانصار الاكليروس وكان اخيرا الفلاحون (٢).

١٨) نظام شعبي :- وقد قام في كسروان بين ١٨٥٨ و ١٨٦١ نظام شعبي شبه جمهوري اذ كانت الادارة في ايدي اشخاص يريدهم الشعب وكانت الحرية والمساواة السياسية سائدتين ، كما كان النظام الاقطاعي قد ازيل واصبح تحرر رجال الشعب والفلاحين حقيقة واقعة . وقد وزعت بين الفلاحين اراضي الاقطاعيين الهاربين . ولا شك ان ذلك لم يحصل من غير عنف واراقة دماء لان النفوس كانت ثائرة الى ابعد حد .

١٩) طانيوس شاهين :- وقد تمكن طانيوس شاهين من السيطرة على الشعب وفرض زعامته عليه . الا انه ارتكب هو ورجاله اعمالا فظيعة حقا . ومما قاله اللورد دوفرين في هذا الصدد " ان جرائم المسيحيين من رفاق طانيوس شاهين مع بعض نساء تعيسات من آل الخازن تفوق كل ما قيل عن الامة الدرزية . ومن الجدير بالذكر ان كل هذه الاعتداءات قد شجع عليها المطران طوبيا وبعض اخوانه من الاكليروس " (٣) .

ومما لا شك فيه ان البريطانيين قد بالغوا بعض المبالغة في تصويرهم لاعمال طانيوس شاهين ذلك ان هذا الاخير قد سمح لنفسه يوما من الايام ان يرفع العلم الفرنسي وان يعلن رغبته في وضع كسروان تحت الحماية الفرنسية . فاثار ذلك قلق الانكليز ودفعهم الى اتهامه بالاستعانة باموال اجنبية (٤) وحملهم على تاييد الدروز والاتراك .

---

(١) جوبلان ص ٣٧٥ نقلا عن تقرير للكونت دي بنتيفوليو

(٢) المحررات ج ١ ص ٣٠٤

(٣) بوجولا ، ص ١١ ، تيستا ج ٦ ص ٥٨

(٤) المحررات ج ١ ص ٣٧٢

٣) ابتداء الفوضى ٠ــ ولم يلبث الدروزان ابتداوا يستعدون لشن غاراتهم على النصارى٠ وفي هذه الاثناء توفي الاميرامين ارسلان في ٢ ايار سنة ١٨٥٩ فخلفه ابنه الامير محمد بصورة موقتة (١)٠ ولم يمض طويل وقت حتى عمت الفوضى البلد فقد قام بعض زعماء فوضويين ،على ما يروي القنصل الانكليزي مور ، وكانوا مناوئين لانصار الحزب الشعبي ، فاغتصبوا السلطة من العائلات الاقطاعية المارية واخذوا يحكمون كما يشاؤون غير عابئين باحد ٠ اما القائمقام الذي لم يعد له اي مركز في اوساط الشعب ولم يكن يتمتع بتاييد السلطات التركية فقد اعترف بعجزه واصبح عرضة للازدراء (٢)٠ وقد وصلت شكاوى عديدة الى اعضاء الهيئة القنصلية والى السلطات التركية في بيروت ٠ وقد وقع تجار المدينة من اوروبيين ووطنيين عريضتين احداهما موجهة الى القناصل والثانية الى والي المدينة ، يطلبون فيهما معالجة الفوضى التي كانت تسود البلاد (٣) ٠ كذلك رفعت عائلة آل الخازن التي طردت من املاكها نداء الى خورشيد باشا ورجاء الى قناصل الدول الخمس طالبة انقاذها مما حل بها (٤) ٠ وقد الح المستر مور القنصل الانكليزي العام على خورشيد باشا في سبيل اجراء تحقيق جدي في الجبل ٠ (٥) فاوفد خورشيد باشا الى الجبل مفوضا خاصا يدعى احمد عطا بك للتحقيق وانصاف المظلومين فما كان من عطا بك الا ان اتفق والامير بشير احمد وكانت نتيجة تحقيقه في غير مصلحة خصوم الامير(٦)- وحاول خصوم الامير بشير احمد الاتصال بالمستر مور طالبين اليه النصح والتاييد ولكن خورشيد باشا ابقى الامير في منصبه على الرغم من كل المحاولات التي بذلت في سبيل خلعه .

٤) السياسة التركية ٠ــ فالسلطات التركية كانت تريد ،على ما يقول المستر مور ان تجد لنفسها حجة في سبيل القضاء على استقلال لبنان الذاتي (٧)٠ وقد اتهم القنصل الانكليزي الحكومة التركية بخرقها اتفاقيات عام ١٨٤٥ ، اذ اعطت القائمقامية الدرزية لمسلم بدلا من اعطائها لدرزي والقائمقامية المارونية الى الامير بشير احمد الذي لم يكن مسيحيا الا بالاسم ٠ الا ان خورشيد باشا رفض التدخل في شؤون البلاد الداخلية

---

(١) تيستا ج ٦ ص ٥٨
(٢) " " " ٦٥
(٣) " " " ٧١
(٤) المحررات ج ١ ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥
(٥) تيستا ج ٦ ص ٥٠
(٦) " " " ٥٤
(٧) " " " ٤٨

لانه لم يكن يريد ان تخرق حرمة استقلال لبنان الذاتي ، وفاقا لرغبة الدول الاوروبية الكبرى نفسها .

وفي اخر اب سنة ١٨٥٩ اضطر خورشيد باشا بسبب الحاح القناصل ان يتوجه الى جوار زحلة يصحبه بعض القوات العسكرية ولكنه لم يفعل شيئا لقمع الاضطرابات (١) .

وقد لاحظ المستر مور بعد ثلاثة شهور ان حاكم صيدا قرر ترك الشعب وشانه اى ترك الفوضى تسود البلاد (٢) . واستدعي مدير زحلة عندما لعت القلاقل في البلدة فور ذ هابه . كل ذلك حمل سكان لبنان على الاشمئزاز من نظام القائمقاميتين ودفعهم الى المطالبة بحاكم تركي اذ وجدوا في ذلك الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الاستمتاع بالطمانينة (٣) . وهكذا اصبح خورشيد باشا على قاب قوسين اوادنى من بلوغ هدفه . ولكن الغاء استقلال لبنان الذاتي كان يحتاج الى موافقة الدول الكبرى الموقعة على بروتوكولات سنة ١٨٤٥ ومعاهدة باريس سنة ١٨٥٦ ولهذا كان من الضرورى احداث كارثة كبرى في سبيل تحقيق الغرض الذى يسعى اليه خورشيد باشا . وقد استخدم الدروز في سبيل الوصول الى غايته وكان على اتصال مع زعمائهم البارزين ، ولا ينفك عن تشجيعهم على مقاتلة المسيحيين .

(٢) ابتداء المذابح والتسلح . – فقامت جموع من الدروز بقيادة الشيخ يوسف عبد الملك بمهاجمة القرى المسيحية واحراقها وتذبيح اهلها (٤) . كذلك احرقت قرى غيرها في المتن وجرت في بيتمرى معركة بين الدروز والموارنة . وفي حاصبيا وقعت اشتباكات دامية بين الفريقين . فطلب المسيحيون ان يحكمهم مسلمون فامر والي دمشق القوات العسكرية التركية ان تحتل البلدة واعلن لممثلي اوروبا انه اتخذ جميع التدابير اللازمة للمحافظة على النظام .

وقد اخذ الدروز يتسلحون في كل مكان فاشتروا كميات وافرة من الاسلحة والبارود . وكتب القنصل البريطاني في دمشق في ٣٠ ايلول سنة ١٨٥٩ الى السر هنري بلور ، سفير بريطانيا في القسطنطينية فقال : " يقال ان دروز حوران يتسلحون ويخشى ان ينضموا الى ابناء ملتهم في لبنان ويهاجموا الموارنة الذين يستعدون للهجوم والدفاع (٥) " . فكان ذلك

---

(١) تيستا ج ٦ ص ٦٠ – ٦١ – ٦٥

(٢) " " " " ٦٠ – ٦١ – ٦٥

(٣) " " " " ٥٢ – ٥٨

(٤) " " " " ٦٠ ، ٧٠ – ٧١

(٥) " " " " ٦٤

ايذانا بالقتال العنيف الذي وقع بين الدروز والنصارى في السنة التالية ٠

٢٣) بعض الاستنتاجات ٠ــ نستنتج مما تقدم ان منازعات قد حصلت بين ١٨٥٧ و ١٨٥٨ بين القائمقام الماروني وبين عدة امراء ومشايخ من ذوى النفوذ ٠ وقد اسفرت هذه المنازعات عن قيام حركة شعبية ثورية استهدفت رجال الاقطاع فقد طالب الفلاحون بالغاء الامتيازات والحقوق الاقطاعية واعلان المساواة التامة بين جميع الطبقات ، وطالبوا كذلك بكامل ملكية الاراضي التي كان يعمل فيها هؤلاء الفلاحون كاجراء ٠ وطالبوا ايضا بتجزئة الملكيات الكبيرة وتوزيعها عليهم ٠ وكان بالامكان اجابة مطاليب الفلاحين بالطرق السلمية فيما لو احسنت السلطات التركية معالجة الموقف ٠ ولكن مما لا شك فيه ان الموظفين الاتراك كانوا يسعون الى ايجاد حالة من الفوضى والتوتر في الجبل تفسح امامهم سبيل التدخل والقضاء نهائيا على البقية الباقية من الاستقلال الذاتي الذى كان يتمتع به لبنان ٠ ولم تكتف السلطات التركية بتقصيرها في معالجة الموقف في كسروان بما كان يقتضيه من حكمة واناة ولكنها دفعت الدروز ايضا الى مقاتلة المسيحيين ٠

٢٤) نظرية السيد رتشارد ايدواردس ٠ــ وقد حاول السيد رتشارد ايدواردس في كتابه عن سوريا من عام ١٨٤٠ حتى عام ١٨٦٢ (ص ١٣٢ وما بعدها) اتهام الاكليروس الماروني بالدعوة الى الثورة على الاتراك واعلان الحرب المقدسة على الدروز والمسلمين مدعيا انه كان في الامر مؤامرة يقصد منها اخراج جميع ابناء الطوائف غير المسيحية من جبل لبنان ٠ وقد ذكر ان الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك رفضوا الاشتراك بهذه الحركة على الرغم من تحريض رجال الدين ٠ ويضيف السيد ايدواردس ان رجال الدين الموارنة كانوا يدعون ابناء طائفتهم الى حمل السلاح بواسطة المنشورات وخلال المواعظ والصلوات في الكنائس وانهم الفوا لجانا في كل مكان لتنظيم الثورة وشراء الاسلحة ٠

٢٥) رد جوبلان ٠ــ ويرد جوبلان على هذه النظرية التي يوردها في كتابه كابلي ؛ ان المستر ادواردس لم يعط البراهين المفحمة على ذلك ٠ فقد اشترك الاكليروس الماروني ولا شك بالحركة الشعبية في كسروان اشتراكا فعليا واسع النطاق ، ولكن لم يكن لاشتراكه اى طابع ديني بل كان اشتراكا سياسيا اجتماعيا يقصد من ورائه محاربة رجال الاقطاع الموارنة والدروز على حد سواء ٠ ويضيف جوبلان ان الاكليروس لم يهاجموا الشعب الدرزى ولا الفلاحين الدروز ٠ وان الثوار الموارنة كانوا يتمنون لو يشترك معهم الفلاحون

الدروز في محاربتهم النظام الاقطاعي ٠ ولم يكن الخطر الذى واجهه الامراء والمشايخ الدروز حسب راى جوبلان ، ناتجا عن معتقداتهم الدينية بل عن امتيازاتهم الاقطاعية ٠ وقد ادرك الدروز مغزى الحركة الشعبية فعرضوا على رجال الاقطاع الموارنة كما يعترف المستر ادوارد س ان ينضموا اليهم في مقاومة الخطر المشترك، ولكن النظام الاقطاعي الدرزى كان اثبت من النظام الاقطاعي الماروني ٠ فلم يتمكن تيار الحركة الشعبية من جرف الفلاحين الدروز الذين ظلوا اوفيا اوفياء لاسيادهم ٠ وفي كل مكان شعر فيه رجال الاقطاع الدروز باى خطر من قبل الثوار الموارنة كانوا يحرضون فلاحيهم الدروز على مهاجمتهم ٠ وينفي جوبلان رده على المستر ادواردس قائلا : اذا كان المستر ادواردس يزعم ان لجانا مارونية قد تألفت في شتاء ١٨٥٩ـ ١٨٦٠ لابتياع الاسلحة بكميات وافرة استعدادا للحرب المقدسة، فمن الثابت ان الموارنة لم يبداوا بشراء الاسلحة الا قبيل مذابح ١٨٦٠ ٠

وقد كانت الثورة في الاقضية والقرى المختلطة سببا في اثارة منازعات عنيفة بين الموارنة المتطلعين الى عهد جديد من المساواة والحرية الاجتماعية والسياسية ، وبين الدروز المتمسكين باهداب النظام الاقطاعي القديم وقد استغل الاتراك هذه المنازعات استغلالا عظيما ٠ ولا غرو فقد كانوا يسعون الى تعزيز السلطة المركزية ٠ فلم يكن من الممكن ان ينظروا بعين الرضى الى استقلال لبنان الذاتي ٠ بل كان من الطبيعي ان يسعوا الى ازالته ٠ وقد دفع عملاء الاتراك الدروز الى مهاجمة الموارنة ٠ فانقلبت حركة الثورة الشعبية الى نزاع بين الطائفتين مثلت فيه العصبية الدينية دورا كبيرا (١) ٠ ومن المؤسف ان يظن الاقطاعيون والفلاحون الدروز ان الحركة الشعبية الاجتماعية التي ظهرت في اوساط الفلاحين الموارنة كانت تكون خطرا عليهم ، فلم يكتفوا باتخاذ موقف دفاعي بل ، جرتهم اطماع رؤسائهم وقادتهم وتحريضات العملاء العثمانيين الى الانقضاض على الموارنة كما سنرى ٠ (١)

القسم الثالث

مجازر سنة ١٨٦٠

١) مقدمات هذه المجازر ٠ــ كانت سلطة قائمقام الدروز تشمل قرى

---

(١) جوبلان ص ٣٨١ ــ ٣٨٢

واقضية يسكنها دروز ونصارى في آن واحد . لذلك عظم شان الدروز وقوى نفوذهم وكان الوكلاء الذين عهد اليهم بمساعدة الحكام الدروز "يرون استبداد الدروز في بني طائفتهم ولا يقدرون على اصلاح الامور . واشتدت جراة الدروز الى حد انهم صاروا ينازعون النصارى في كل املاكهم ويضع كل واحد منهم يده على املاك جاره وجعل بعض مشايخهم يغزون القرى التي يسكنها النصارى حينا بعد حين فيسوقون الانعام والخيرات بين يديهم ويسومون الرجال عذابا مرا ولا حرج عليهم في ما يفعلون " (١).

وقد اراد الاتراك ان يعززوا نفوذهم في الجبل فاختاروا الامير بشير ابي اللمع الماروني المشاغبة على القائمقام المسيحي وعرقلة اعماله والتشجيع على توقيع العرائض ضده والتعرض "لعماله وجباة الاموال في الطرق "وسلب " الحاصلات والماشية من اهل القرى" على الرغم من ان القائمقام المذكور "كان حكيما عادلا " . (٢) فتقدم هذا الاخير بالشكوى الى الوالي وطلبه اليه المدد العسكري مرارا . فلم يلق طلبه قبولا ولم يرض الاتراك بمنع الاعتداء" وقمع الثورة " (٣).

وقد اسرف الدروز في اعمالهم ولم تحاول السلطات التركية زجرهم . وكان في طليعة من اشتهر منهم بهذه الاعمال المؤسفة سعيد بك جنبلاط . وعظم بساعده على ذلك " تقرب قنصل الانكليز منه ... وكان الانكليز يرون ان الموارنة اعوان فرنسا يعاونونها على مد نفوذها .... فراوا ان يستميلوا الدروز اليهم ... وكان سعيد بك جنبلاط اعلاهم مقاما ... ولهذا استخف الدروز بالنصارى وعم الاعتقاد بينهم ان الانكليز حلفاء الدروز واقاربهم وزادت جراتهم واستخفافهم بنصارى لبنان . وهكذا عادت الاحقاد وكان السبب فيها هذه المرة ايضا دسائس الاتراك بوساطة الموارنة وحب الدروز للحرب والغنيمة ... ومع كل هذا الضغط وهذه الاسباب لم يتاخر النصارى في جبل لبنان وضواحيه عن النمو والارتقاء . وكانت اشهر مدائن النصارى في لبنان دير القمر وزحلة ، وفي جنوبيه من بلاد الشام حاصبيا وراشيا " (٤).

اما دير القمر فقد كانت " من املاك الدروز " رغم ان اهلها من النصارى . واخر من تولى امرها من مشايخ الدروز آل نكد . وعندما تم ابعاد الدروز نهائيا من دير القمر

---

(١) حسر اللثام ص١٢٣

(٢) حسر اللثام ص ١٢٣ _ ١٢٤

(٣) " " " ١٢٤

(٤) " " " ١٢٤ _ ١٢٥

على اثر حوادث سنة ١٨٤٥ " اثرى النصارى فيها حتى لم تعد ترى ذكرا للدروز فيها ٠٠٠ وكان النصارى يفتخرون بقوتهم وثروتهم ويشيرون بذلك طمع الدروز وحقدهم في كل حين" (١)٠

" واما زحلة فنمت ٠٠٠ نموا هائلا اوجب قلق الدروز وحسابهم لانها كانت امنع مراكز النصارى ٠٠٠ وصار عدد سكانها ١٢ الف نسمة ٠٠٠ واتسعت تجارة اهل زحلة وامتد نفوذهم الى حد انهم صيروا البقاع في قبضتهم ومنعوا عنه تعدى الدروز وغزوات مشايخهم فاشتد الغيظ بالدروز واشتد الميل فيهم الى الانتقام ٠ وكثرت المخابرات بين زحلة ودير القمر بشان الاتحاد على الدروز وحماية النصارى حين اللزوم فحفظ الدروز كل هذا وزاد ميلهم الى الضرب والحرب "٠ (٢)

"واما حاصبيا فكان عدد النصارى فيها لا يقل عن ٦ الاف نسمة ٠٠٠ وبينهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من الدروز ٠ هؤلاء ايضا اشتد العداء بينهم لما تقدم من امور الحرب والخيانة ٠ وكان حكام هذه المدينة من ال شهاب الذين حافظوا على الاسلام فراوا من الدروز ميلا الى الاستقلال عن سلطتهم وتعرضا كثيرا لاوامرهم واصروا يستعينون بالنصارى عليهم وبدا الفريقان يستعدان لاعادة الكر والفر ٠٠٠ ومثل هذا يقال في راشيا وما يليها " (٣)٠

ومن الاسباب التي دعت الى عودة المذابح " دسائس الحكومة التركية ٠٠٠ فقد كان الدروز قد طمعوا بالحكومة وجاهروا بعصيان اوامرها لانهم رأوا انها تعينهم على النصارى وقت الحرب"٠ (٤)

" وكانت نتيجة حرب القرم شوما ٠٠٠ على بلاد الشام ٠٠٠ لان الاتراك خافوا ان يعرف الناس ضعفهم واحسان اوروبية اليهم فجعلوا يظلمون ٠٠٠ ويبطشون بكل من عرفوا عنه الميل الى الافرنج حتى لا يمتد نفوذهم في بلاد الشام ٠٠٠٠ وكان قناصل فرنسا ٠٠٠ يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية في كل امر حتى ان قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف له كما يقفون للوالي ٠٠٠ والا جعل يجلدهم بسوطه ٠٠٠ ويشتم اعز الامور عندهم ويكثر احتقارهم ٠ وكان الموارنة اعوانا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم على حد نفوذهم ويجاهرون بالانتماء

---

(١) حسر اللثام ص ١٢٦

(٢) " " ص ١٢٦ ــ ١٢٧

(٣) " " " ١٢٦ ــ ١٢٧

(٤) " " " ١٢٧

الى الدولة الفرنساوية حتى انهم كانوا يملاون الجبل زينةكلما زاره احد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون له قضاياهم على ما يريد ويهوى ويظهر للناس بكل واسطة انه مراقب على حكومة السلطان . واتى امورا مثل هذه هيجت مخاوف الاتراك والمسلمين عموما ... واضطر الاتراك ... الى الاهتمام اكثر من ذى قبل ... في عمل الطرق اللازمة لخراب الجبل ... واعادة امورهم وامور الشام الى ايديهم ... وتشكلت لجان من المسلمين في بيروت وصيدا ودمشق وحلب واكثر مدائن الشام كان الناس يشكون فيها من ضياع السلطة من يد الدولة الاسلامية وصيرورتها الى يد الافرنج (١) ... " .

" وظل اعضاء هذه الجمعيات يحرضون المسلمين ... واكليروس الموارنة وقناصل فرنسا يظهرون ميلهم الى اذلال المسلمين والدروز والاستبداد بالامور حتى سرى روح التعصب الشديد في كل البلاد (٢) " واخذ المسلمون والدروز يفكرون بالتخلص من النفوذ الاجنبي والانتقام من النصارى .

وعندما توفي قائمقام النصارى عام ١٨٥٧ سارع الاتراك الى تعيين صنيعتهم الامير بشير ابي اللمع ومما زاد الحال تحرجا موت بطريرك الموارنة . فخلفه " اخر لم يعرف اخرة التهور مثل الذى سبقه " فحرض ابناء طائفته على الدروز وعلى الروم الارثوذكس والبروتستانت واثار اعوانه على كل من كان يتصل بقناصل الانكليز ولو كان من الموارنة (٣).

" وعم الاعتداء في سنة ١٨٥٨ و ١٨٥٩ بمساعي القائمقام الجديد ودسائس الاتراك وجهل البطريرك .... وعلى ذلك وقعت بلاد الشام مرة اخرى في الفوضى وحاول عقلاء المسيحيين .... ان يحركوا خورشيد باشا والي بيروت على ردع الذين كانوا يعيثون في الارض فسادا فما لقوا منه غير الاعراض (٤) . "

"وكان والي الشام في تلك الايام واسمه احمد باشا من اشد الاتراك كرها للعرب والمسيحيين ... وقد كانت معظم الحوادث التي حدثت في سنة ١٨٦٠ بامر هذا الطاغية ... واخصها مذابح حاصبيا وراشيا والبقاع ودمشق (٥). ".

---

(١) حسر اللثام ص ١٢٨ ــ ١٢٩

(٢) " " " ١٣٠

(٣) " " " ١٣٠

(٤) " " " ١٣١

(٥) " " " ١٣١

٢) حادثة بيت مري الاولى ٠ــ " ولما تهيأت اسباب الحرب٠٠٠ واستعدت الافكار للقتال ٠٠٠ كثر الاعتداء والقتل في انحاء الجبل وكثر تشكي النصارى الى القائمقام والى الوالي التركي في شان تلك الحوادث ولم تهتم الحكومة لايقاف سير تلك الحركة فاصاب معظم الضرر النصارى والامراء الشهابيين المسلمين ٠٠٠ وقد راى الامير سعد الدين شهاب ، وكان هو الحاكم على حاصبيا يومئذ ، ان سلطته ضاعت فالتجأ من اجل ذلك الى دمشق ٠٠٠ وكثر بعد ذلك ربط الطرق في كل انحاء لبنان ٠٠٠ حتى عم الاضطراب ٠٠٠ ولما كان يوم ٣٠ اغسطس من سنة ١٨٥٩ حدثت حادثة بيت مري الاولى ٠٠٠ فقد تشاجر درزى ومسيحي من اولاد القرية وكان الولد الدرزى قوى على النصراني واوسعه ضربا فجاء ابوه وبعض اقاربه الى ابي الدرزى ووبخوه على ما بدا من ابنه ولما عادوا عنه دار الرجل على ابناء طائفته في القرية يحرضهم على مقاتلة النصارى وارسل اناسا الى الدروز في القرى المجاورة ٠٠٠ فتجمهروا وهجموا على النصارى في قرية بيت مري مع دروزها نهب النصارى ٠٠٠ وطردوهم على كثرة عددهم ٠ ثم وصلت نجدات الى الدروز فاعادوا الكرة ٠٠٠ فعادوا خاسرين ٠٠٠ ولما علم خورشيد باشا والي بيروت ٠٠٠ بما جرى ٠٠٠ ذهب بنفسه لتلك الجهة مظهرا رغبة شديدة في اخماد الشر ٠٠٠ وانصاف المظلوم ٠٠٠ فاوقف سفره الحركات العدائية الجارية ٠٠٠ الا انه امتنع عن مقاصة المذنبين ٠٠٠ فكان سفره وسيلة لازدياد جراءة الدروز ٠٠٠ ولما رجع الى بيروت ٠٠٠ عاد الدروز ٠٠٠ فاخذوا ينكلون بالنصارى اينما صادفوهم ٠٠٠ فقطعوا الطرق وعاثوا وسلبوا ونهبوا وقتلوا غيرمبالين بالعواقب ٠ وقد اوجبت اعمال الدروز هذه على النصارى ان يقابلوهم بمثلها دفاعا عن انفسهم ٠٠٠ فكان الويل كل يوم يزداد عن امسه ٠٠٠ وان خورشيد باشا ٠٠٠ لما راى ان الثورة وصلت الى قرية الحازمية ٠٠٠ واخذت تمتد منها للجهات المجاورة ٠٠ اظهر لقناصل الدول تصميمه على تسكينها ٠٠٠ وسار مصحوبا بالعسكر ٠٠ الا انه اتى ما اتاه في المرة الاولى ٠٠٠ فسكنت الامور وقتيا ٠٠٠ حيث دخل فصل الشتاء "٠(١)

" وقد تشجع النصارى وتقوت قلوبهم من بعد هذه المعركة ٠٠٠ وتحرك المسلمون في المدن ٠٠٠ بعد حادثة بيت مري واشتد نفور الدروز من جيرانهم ٠ ومن

---

(١) حسر اللثام ١٢٤ ــ ١٢٧

غرائب الامور ان بعض مشايخ هذه الطائفة نزلوا الى مدينة بيروت في الشتاء وقضوا كل ذلك الفصل فيها ... وكانوا يجتمعون كل ليلة في بيت الوالي خورشيد باشا وغيره من الحكام ويتشاورون ويكتبون الى اهل طائفتهم الكتب الكثيرة ... ولم يرجع هوءلاء المشايخ الى مواطنهم الا في اوائل الربيع من سنة الاهوال اى سنة ١٨٦٠ ... وفي شهر ابريل من تلك السنة وردت على خورشيد باشا تعليمات من الاستانة ... وارسل خورشيد باشا الكتب والرسل الى سعيد بك جنبلاط في المختارة ... فارسل رجاله يدورون على قرى لبنان وبدات جماهير الدروز تفد الى المختارة ... ثم جعل اشقياء الدروز يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى .... فهرب العدد الوافر من كل القرى الصغيرة الى جزين ودير القمر وزحلة (١) . " .

٣) معركة عين دارا .ـ وعندما تأكد المسيحيون ان الدروز يستعدون لمقاتلتهم هاجم ثلاثة الاف من اهالي زحله قرية درزية تدعى عين دارا فقابلهم ستمائة درزي فهزم المسيحيون . فشجع هذا الانتصار الدروز فهاجموا قرى كثيرة في المتن . وقد برهنت معركة عين دارا ان الدروز كانوا اكثر تنظيما واستعدادا للقتال من المسيحيين (٢).

٤) الاستعانة بدروز حوران .ـ ومن الاحتياطات التي اتخذها الدروز النجدات التي اتوها من الخارج . فقد ارسل سعيد بك جنبلاط كتابا الى اسماعيل الاطرش في حوران يستنجد فيه بدروز حوران لمساعدة دروز لبنان على المسيحيين " لان طائفة الدروز صارت على وشك الانقراض " . وقد تمكن اسماعيل الاطرش من حشد ثلاثة الاف درزي بعض مضي يومين على وصول الكتاب . فاوفدهم الى وادى التيم حيث كانت مذابح حاصبيا (٣).

٥) مذبحة حاصبيا .ـ كان عدد سكان حاصبيا سنة ١٨٦٠ حوالي ستة الاف نسمة معظمهم من الروم الارثوذكس والباقون دروز ومسلمون . "وكان الشهابيون حكامها وحكام البلاد المجاورة " . (٤)

---

(١) حسر اللثام صفحة ١٣٧ ـ ١٣٩
(٢) " " " ١٣٩ ـ ١٤٠
(٣) " " " ١٤٠ ـ ١٤١
(٤) " " " ١٤٦

ومن اهم الحوادث التي سبقتمذبحة حاصبيا الكبرى "انشقيا من دروز لبنان وجد قاطعا الطريق على اطراف قضاء حاصبيا ... فارسلت فرقة من العساكر لكف شره وتلته فكان قتله امرا عظيما على طائفته زاد عنفها على الامراء والنصارى " . (١) وتتالت على اثر ذلك هجمات الدروز على النصارى والامراء الشهابيين (٢) . وفي يوم الجمعة الواقع في ١٢ ايار "حينما كان اهالي حاصبيا والقرى المجاورة مجتمعين ... للبيع والشراء حضر درزي اسمه علي طيفور من اهالي شويا وصاح : هنا ملتقا خيال من دروز حوران قد حضروا لعين شويا " ورغم ان الخبر لم يكن صحيحا فقد انفض المجتمعون من الناس واخذ الدروز يتاهبون للقتال فنقلوا نساءهم واطفالهم وامتعتهم الى قرية شويا التي جعلوها مركزا لحركاتهم واعمالهم الحربية . وقد انضم اليهم فيها اكثر من الف مقاتل من دروز مجدل شمس واقليم البلان وراشيا حتى بلغ مجموعهم ما يزيد على الفين وخمسماية مقاتل . وعندما راى نصارى القرى القريبة من حاصبيا استعداد الدروز للقتال اخذوا يستعدون بدورهم ويحتاطون للامر . وفي ليلة السبت الواقع في ١٩ ايار سنة ١٨٦٠ ، بدأ الدروز ينهبون ويحرقون قرى النصارى فدافع النصارى عن انفسهم وديارهم وفي صباح الاحد في ٢٠ ايار هجم الدروز المتجمعون في قرية شويا على حاصبيا فاشتبكوا مع النصارى مدة ساعدة من الزمن فمنع النصارى ولحق بهم الدروز الى داخل البلدة حيث راحوا يحرقون بيوت خصومهم . ولكن النصارى انتصروا في الاشتباكات التي حصلت الي شرقي حاصبيا . وعندما علم هؤلاء المنتصرون بما حل باخوانهم جنوب حاصبيا هرعوا الى البلد فحيث كان الدروز قد حاصروا النصارى والامراء الشهابيين في السراى بحضور الجنود الاتراك . وقد اشتبك الفريقان المتقاتلان ، الا ان الدروز باؤوا بالفشل وانصرفوا عن السراى "وكانت عساكر السلطان واقفة تشهد القتال ولا تبدى حراكا (٣) . وفي ٢١ ايار اعاد الدروز الكرة على السراى ولما اراد النصارى مجابهتهم تدخل "عثمان بك قائمقام العساكر " واراد اصلاح ذات البين بين المتقاتلين . وقد اجتمع باعيان الدروز ثم عاد الى السراى ولكن بدلا من ان يسود الامن وتعود السكينة الى البلدة " اخذ الدروز ينهبون كل ما يجدونه في بيوت النصارى عموما ويحرقون ما كان باقيا منها ... واعين

---

(١) حسر اللثام ص ١٤٧

(٢) " " " ١٤٧

(٣) " " " ١٤٨ ـ ١٤٩

عثمان بك ورجاله تنتظر ... اما الامراء الشهابيون فالتجاوا الى بعض بيوت الدروز . اما النصارى فقد بقوا في السراى باستثناء عائلة غبريل لان كبيرها احتمى عند السيدة نائفة جنبلاط شقيقة سعيد بك جنبلاط . ومما هو جدير بالذكر ان الست نائفة اصبحت صاحبة الكلمة العليا في جميع انحاء حاصبيا . وكان الامراء الشهابيون قد طلبوا منذ زمن بعيد الى احمد باشا والي الشام ان يساعدهم على حفظ الامن فلم يجب طلبهم الا في هذه الاثناء اذ ارسل اليهم قائمقاما عسكريا هو عثمان بك على راس خمسمائة جندى تركي . ولكن الجنود الاتراك قد خيبوا الامال التي كانت معقودة عليهم كما ان عثمان بك تواطأ مع سعيد بك جنبلاط على النصارى .

وقد ذهب عثمان بك في تعرضه الى حد منع ادخال الطعام الى النصارى الذين باتوا سجناء في السراى ولم يكن يسمح الا بادخال الخبز والماء اليهم . (١) ولما بلغت هذه الانباء دمشق ثار البطاركة والقناصل واعيان النصارى وبعض المسلمين فتوجهوا في وقت واحد الى احمد باشا مناشدينه التدخل لحماية النصارى فتهرب واعتذر مدعيا ان جنوده قليلو العدد وانه بحاجة ماسة اليهم لاخماد نار الثورة في البقاع وحوران . عند ذلك رجوه ان يصدر اوامره لنقل جميع النصارى الى دمشق ففعل ولكن لم يلبث ان الغى ذلك .

وكان الدروز يفدون باستمرار الى حاصبيا ، وقد طلبوا في ٢٥ ايار الى عثمان بك ان يسلمهم جميع اسلحة النصارى لكي يتمكنوا من اعلان الامان لهم والا فانهم يفنونهم في السراى عن بكرة ابيهم . فاجاب عثمان بك الدروز الى طلبهم . وقد تردد النصارى بادىء الامر في تسليم اسلحتهم ولكنهم اضطروا الى ذلك عندما اجبرهم عثمان بك وطمانهم . ولما ادرك النصارى ان الدروز لا يزالون مصممين على ابادتهم رجوا الست نائفة جنبلاط ان تشملهم بحمايتها فلم تقبل . وفي يوم الاثنين ٤ حزيران توفي في قرية شويا شيخ قرية مجدل شمس متاثرا بجرح اصابه اثناء اشتباك سابق مع النصارى ، فنظم له الدروز ماتما حافـــلا واخذوا ينادون بضرورة الانتقام . وكانت النجدات الدرزية لا تزال تصل الى قرية شويا ، فخرج الدروز المجتمعون في شويا ، فدخلوا حاصبيا وتجمعوا حول السراى ، وقد حاول المسيحيون الخروج من السراى فحال عثمان بك دون ذلك ، بل نزل عند رغبة الدروز في تسليم اميرين شهابيين واحد عشر شخصا من اعيان النصارى ، فذبحوهم جميعا ، ثم هجموا على السراى

---

(١) حسر اللثام ص ١٤٩ ــ ١٥٠

فقتلوا

دون ان يلقوا ممانعة ما من قبل الجنود العثمانيين (١) " فقتلوا جميعهن كان فيها، ثم صعدوا الى السراى لقتل بقية الامراء ، الا ان هؤلاء دخلوا "بين نساء العساكر " للاحتماء بهن " فانكفأ عنهم الدروز خوف سوء العقبى (٢) " .

ويقول صاحب حسراللثام "ان عثمان بك كان قاعدا على باب السراى ورجاله من حوله وهو يرى تلك الاحوال ويقهقه ضاحكا مسرورا ."

ولم يرتد الدروز عن سراى حاصبيا الا بعد ان تدخلت السيدة نائفة جنبلاط بناء على طلب عثمان بك الذى خاف وقوع اصطدام بين جنوده وبين الدروز ، فتوقفوا عن القتل في ٤ حزيران مساء سنة ١٨٦٠ . وقد اصطحبت الست نائفة من بقي من النصارى على قيد الحياة ، وفي تلك الليلة احرق الدروز سراى حاصبيا بكاملها . وكان بعض المسيحيين في اموا السواحل لاجئين خلال هذه الحوادث فهاجم الدروز معظمهم في اراضي مرجعيون وقتلوا عددا كبيرا منهم . وبعد ٦ ايام من حادثة السراى ، ورد امر للجنود بالذهاب الى دمشق فذهبوا .

وبعد ان مكث ~~الناجون~~ النصارى والامراء الشهابيون الناجون من مذبحة حاصبيا عدة ايام في دار الست نائفة جنبلاط نقلوا الى قرية المختارة حيث كان يقيم شقيقها سعيد بك جنبلاط ومنها توزعوا على بلدان الساحل ، واستمروا يتعيشون من فضل المحسنين حتى زالت الثورة " . (٣)

٦) مذبحة راشيا الوادي . عندما راى نصارى راشيا ما اصاب اخوانهم نصارى حاصبيا اوجسوا خيفة وفضلوا التفاهم مع الدروز ولو كلفهم هذا ابهظ الاثمان . فانتخبوا وفداموءلفا من رجالهم البارزين فطافوا على اعيان الدروز ووجهائهم يوم الاثنين في ٢١ ايار سنة ١٨٦٠ طالبين اليهم الامان عارضين عليهم في سبيل ذلك كل ما يريدونه . وقد عادوا في المساء راضين عما اظهره لهم الدروز من لطف وصداقة ونية طيبة (٤). ولكن يظهر ان العزم كان معقودا على القتال فلم يكن بد من ابتداء الهجوم على النصارى مساء

---

(١) حسراللثام ص ١٥١ ـ ١٥٤
(٢) " " " ١٥٥
(٣) " " " ١٥٨
(٤) " " " ١٦٠ ـ ١٦١

ذلك اليوم نفسه . فدافع النصارى عن انفسهم دفاعا مجيدا واظهروا شجاعة فائقة . ولكن كثرة عدد المهاجمين واطباقهم عليهم من كل جهة جعلاهم في موقف عسير . وقد تظاهر قائد الجند العثماني بالاشفاق عليهم فدعاهم الى دخول القلعة ، فلبى النصارى الدعوة وكان كلما دخل فريق منهم اخذ القائد التركي سلاحه بحجة انه اصبح في حمايته (٢). اما الذين لم يدخلوا القلعة من النصارى فقد التجاوا الى دار خزاعي اغا العريان . ولكن خصوم خزاعي من اليزبكيين هددوه بقتل جميع اللاجئين اليه عندما مني الدروز بالخسائر بادئ الامر . وقد اظهر خزاعي هذا نبلا عظيما اذ ابى تسليم من احتمى به من المسيحيين وهيأ لهم سبيل السفر ليلا الى دمشق . كذلك هاجر ليلة المذبحة عدد كبير من النصارى فمنهم من ذهب الى جبل لبنان وزحلة ومنهم من توجه الى دمشق ومنهم من يمم وجهه شطر الجنوب الغربي . وهناك عدد اخر من نصارى راشيا لجاوا الى بيوت بعض وجهاء الدروز فحموهم في اول الامر ولكنهم قلبوا لهم ظهر المجن ونكلوا بهم فيما بعد . ولا بد من التنويه ايضا بما ابداه سائر مشايخ آل عريان من اخلاق سامية اذ " دافعوا عن استجارهم" (٢) وحموهم بكل ما لهم من قوة حتى اخر دقيقة .

اما المسيحيون الذين دخلوا القلعة فقد ظلوا ينتظرون وهم على اسوأ حال حتى يوم الثلاثاء في ٢٩ ايار عندما وصلت النجدات الدرزية الحورانية التي سبق لها الاشتراك في مذبحة حاصبيا . فاخذت تدخل القلعة ثم اخذت تمعن بقتل النصارى ومن معهم من الامراء الشهابيين المسلمين (٣).

٧) <u>مذبحة دير القمر .—</u> اطبق الدروز فجاة على دير القمر صباح الجمعة في ١ حزيران بقيادة مشايخ من آل نكد وعماد . وكان عددهم الفين . وقد كانت دهشة المسيحيين عظيمة لانهم بذلوا كل ما في وسعهم للمحافظة على علاقاتهم الودية مع الدروز الى درجة اضطر معها خورشيد باشا نفسه والي بيروت الى اطراء موقفهم ، مؤكدا لهم من جديد ان الجند تحميهم عند الاقتضاء . ولكن الجنود لم يحركوا ساكنا بل اووا الى قلعتهم عندما راوا الدروز يبداون بشن هجومهم . وقد تمكن المسيحيون من صد

---

(١) حسر اللثام ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢) " " " ١٦٤ — ١٦٥

(٣) " " " ١٦٦ — ١٦٨

الهجوم الدرزي على دير القمر "بعد الغروب بساعتين "(١) .

وقد استانف الدروز هجومهم في اليوم التالي فدافع المسيحيون عن انفسهم . وطلب اعيان البلدة الى حاكمها التركي ان تتدخل القوات التركية العسكرية لحمايتهم تنفيذا لوعد خورشيد باشا او ان يقدم اليهم السلاح اللازم لذلك ، فرفض الحاكم مصرحا انه لم يؤمر بالذود عنهم ، بل نصحهم بالذهاب الى سعيد بك جنبلاط وبشير بك ابي نكد والقاء اسلحتهم بين ايديهما . فكتبوا في سبيل ذلك الى سعيد بك جنبلاط ، وكان وقتئذ في بيت الدين في ضيافة عبد السلام بك " اميرالاى العساكر المنظمة " فاجاب سعيد بك جنبلاط انه من الضرورى ان يجتمع ببعض وجهاء النصارى للتداول في الامر ، فعقد اجتماع تعهد سعيد بك فيه بجلاء الدروز . ولكن جلاءهم لم يطل اكثر من يوم واحد . ففي ١٥ حزيران احاطوا من جديد بدير القمر ، فنهبوا البيوت الموجودة في النواحي ، ثم دخلوا البلدة وتوجهوا الى السراى دون ان يلقوا مقاومة ما من قبل قوى الامن الرسمية فاضطربت افكار النصارى . وفي مساء ذلك اليوم حضر طاهر باشا قومندان عسكر بيروت ومعه ٤٠٠ جندى منظم يرافقه سعيد بك جنبلاط وعلي بك حماده وعدد غفير من الدروز المسلحين ، وعندما وصل طاهر باشا استقبله اعيان النصارى ورحبوا به ، فاتهمهم بالعمل على دخول فرنسا الى لبنان ووجه اليهم لوما شديدا . ولكنهم برهنوا له على وفائهم ، فتظاهر بالاقتناع ووعدهم بالحماية ، ثم شخص الى بيت الدين تاركا جنوده في دير القمر . وفي اليوم التالي استقبل وجهاء النصارى في بيت الدين ، فرحب بهم وطلب اليهم الصدوف عن حمل السلاح واعدا اياهم بالمحافظة على حياتهم واموالهم وراحتهم ، فتعهدوا له خطيا بذلك ، ولكنه رفض ان يوقع تعهدا خطيا من قبله . كما انه اعلن ان الحكومة ليست مسؤولة من اى ضرر يصيب اهالي دير القمر خارج بلدتهم . وفي ذلك اليوم توجه بعض اصدقاء سعيد بك جنبلاط من النصارى مع عائلاتهم الى المختارة ، وعند وصولهم الى بيت الدين امر طاهر باشا بمنعهم من المرور وارجاعهم الى بيوتهم . ويوم الثلاثاء في ١٧ حزيران ١٨٦٠ توجه طاهر باشا الى دير القمر وجدد تعهداته لاهالي البلدة ، وبعد ذلك بيومين

---

(١) حسر اللثام ص ١٧١ ـ ١٧٢

حضر من صيدا الى دير القمر ٥٠٠ عسكري منظم ، وانظموا الى القوة العسكرية في بيت الدين ودير القمر . وبعد وصول هذه القوات قدم طاهر باشا الى دير القمر فجدد لاعيانها وعوده ، كما وجه اوامره الى حاكم البلدة ورؤساء العساكر بالانتباه واليقظة وان لا يدعوا البتة درزيا مسلحا يدخل البلدة . ورتب حراسا وخفراء يطوفون ليلا ونهار حول البلدة ، وامر رؤساء العسكر بجلب الحنطة لعوز الاهالي والسعي في كل ما فيه راحتهم . وبعد ان اكمل دور اعماله ... سافر مودعا بشكر الاهالي وثنائهم . ولكن لم يكد يغادر دير القمر الا وعاد الدروز الى حصار البلدة فاستولوا على المؤن الواردة اليها . وكان القتل مصير كل من يحاول من النصارى الخروج للتزود بالمؤن اللازمة . فعرض النصارى امرهم على حاكم البلدة فلم يقبل بتحمل مسؤولية خروجهم ، واستمر الحال كذلك حتى ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ ، عندما اخذ الدروز يدخلون البلدة من كل ناحية .

ولم يلبث الدروز ان ابتداوا بالسلب والنهب وقتلوا بعد المغرب نصرانيا يدعى حبيب الباحوط امام باب السراى ، وبعد ذلك بوقت قصير قتلوا راهبين في المحل نفسه . واستمرت اعمال السلب والنهب الليل بطوله . ويوم الخميس في ٢١ حزيران وصلت جموع كثيرة من الدروز من مختلف انحاء لبنان ، فوجد النصارى عندئذ الوسيلة الوحيدة للنجاة هي في الالتجاء الى السراى ، ففعل ذلك بعضهم ، كما لجأ اخرون الى بيت الدين . وبعد ان انتهى الدروز من تفتيش البيوت اخذوا يبحثون من الديريين فيقتلون من يصادفونه منهم . وعندما انتهوا من البلدة توجهوا الى السراى ، فدخلوها وانقضوا على من لجأ اليها من النصارى . ولم يترك الدروز دير القمر الا بعد ان تركوها خرابا يبابا . ثم اتوا بيت الدين فدخلوا السراى فيها وذبحوا جميع من لجأ اليها من النصارى ، وبعد ان انتهى الدروز من بيت الدين والقرى المجاورة لها رجعوا الى دير القمر فهاجموا دير الرهبان وبيت خليل الجاويش الذى التجأ اليه نحو ٣٥٠ نصرانيا ، وقد ظل الدروز يهاجمون البيت حتى تغلبوا على من فيه فامعنوا فيهم سلبا وتقتيلا .

وعندما بلغت انباء دير القمر المفجعة مدينة بيروت احتج البطاركة وقناصل الدول الكبرى فتوجه الوالي الى بيت الدين في ٢١ حزيران فوصل بيت الدين في الوقت الذى كان يهاجم فيه الدروز بيت الجاويش ، ولم يات دير القمر الا في اليوم الثاني . فامر الدروز بالجلاء عن دير القمر ففعلوا ولكن كان كل شيء قد حصل . وقد لجأ الماريون والنساء

والاطفال بعد معاينتهم ماجرى الى الشطوط البحرية فنظر اخوانهم وقناصل الدول الاجنبية لحالهم وعاملوهم بالانسانية والحسنى وسداد عوزهم بما تيسر" (١) ٠

٨) مذابح المتن والساحل ٠ــ وعندما اشتد خوف المسيحيين في المتن على اثر حادثة بيتمري الاولى وجدوا ان لا امل لهم في التفاهم مع الدروز استنجدوا بمسيحي كسروان فاهتم هوءلاء بذلك ، فلما علم خورشيد باشا بذلك وراى ان قناصل الدول يلحون عليه بالتدخل توجه الى الحازمية ترافقه فرقة عسكرية ٠ وقد اعرب عن رغبته في التوفيق بين الفريقين المتنازعين فاستدعى وجهاءهما وصالحهما ٠ وظن خورشيد باشا ان الامر انتهى عند هذا الحد فاعلم قناصل الدول في بيروت بما قام به ٠ ولم يمض طويل وقت الا واستانف الدروز هجماتهم ٠ وعندما اشتدت هذه الاعمال العدوانية في ٢٦ ايار اخذ المسيحيون يهاجرون الى بيروت فكان يقابلهم جنود السلطان على الطريق بالاهانة والاعتداء ٠ وفي ٢٧ ايار ازدادت الحالة توترا وكثرت اعمال القتل وكان بين الذين قتلوا الامير بشير قاسم شهاب والامير عباس الشهابي ٠

وفي ضحى هذا اليوم وصلت النجدة الكسروانية وكانت موءلفة من اربعمائة مقاتل فعسكرت على مقربة من بعبدا ٠ فاستدعى خورشيد باشا عند ذلك وجهاء النصارى ونصحهم بالتزام الهدوء والقاء اسلحتهم خوفا من تفاقم الخطب ٠ ولكن بينما كانت النجدة الكسروانية عائدة الى كسروان هاجمها الدروز بين بيتمري والعبيدية بقيادة آل عبد الملك ، فتدخل خورشيد واعلن اسفه للمسيحيين ٠ فتابع الكسروانيون طريقهم ٠ ولكن مسيحي المتن لم ينفكوا عن الاستعداد تحسبا للطوارئ وشكا منهم في اقوال خورشيد باشا ٠ ولم يلبث الدروز ان بداوا يغيرون على النصارى بمساعدة الباشبزق فيعملون فيهم القتل والسلب والنهب ٠ وقد بدأ الهجوم على بعبدا ٠ وحرق في ذلك اليوم من قرى الساحل الجنوبي وادي شحرور العليا والسفلى وبعبدا والحدث ومزرعة اللويزة ومن المتن الاعلى بيتمري وبرمانا ومزارعهما مع بعض قرى صغيرة مجاورة لهما ، ومما تجدر الاشارة اليه الموقف النبيل الذي وقفه الامير محمد ارسلان حاكم الشوف في ذلك الوقت ٠ فقد استنكر اعمال ابناء ملته وبذل كل ما في وسعه في سبيل ردعهم وايقاف اعتداءاتهم ٠ ولما لم يجد كلامه اذانا صاغية اكتفى بالمحافظة على الامن في بلاده فلم يحدث فيها اقل ضرر لاحد الناس ٠

---

(١) حسر اللثام ص ١٧٤ ــ ١٨٨

وعندما احتدم القتال في المتن وازدادت الفظائع ضاق صدر قناصل الدول في بيروت ولا سيما بعد ان بلغتهم انباء المواقف العدائية التي وقفتها السلطات والقوات العسكرية التركية فهددوا باستخدام الاساطيل والجيوش الاوروبية اذا لم يعد الامن والسلام الى نصابهما . فاتهم خورشيد باشا المسيحيين باثارة الفتن ثم تم الاتفاق على ان يطلب خورشيد باشا الى الدروز وان يطلب قناصل الدول الى المسيحيين الكف عن الاستعداد للقتال والامتناع من الاعمال العدوانية (١).

٩) حوادث صيدا :- ان الفتن والقلاقل التي سبق ذكرها ومواقف السلطات التركية منها اهابت بمسيحيي اقليم التفاح الى التضامن والاتحاد بقيادة يوسف المبيض كما حملت دروز تلك الجهات ومسلمي اقليم الخروب على التعاون والتقارب بقيادة الدرزي قاسم يوسف .

ويوم عيد العنصرة سنة ١٨٦٠ (وكان يومها العيد يشمل جميع النصارى) هجم قاسم قاسم يوسف على اربع قرى مسيحية تتصدى له يوسف المبيض والتقى الجمعان على مقربة من صيدا . وتلقى قاسم يوسف نجدة من الدروز ومسلمي صيدا فتمكن من التغلب على خصمه فقتل من قتل وهرب من هرب الى صيدا وجبل لبنان . وعندما بلغ سكان صيدا الخبر قام بعضهم بالاعتداء على النصارى فيها رغم نصائح العقلاء . فالتجأ بعض النصارى الى بيوتهم وبعضهم الاخر الى خان الافرنج . عند ذلك توجه الثوار الى باب المدينة وبساتينها للايقاع بالنصارى الهاربين من المذابح . وقد راى بعض الهاربين من صيدا ان ينضموا الى نصارى جزين ولكنهم لم يكونوا يعلمون ان جزين تعاني ايضا ضيقا شديدا .

وكان الدروز يرون في انضمام اهالي جزين الى اهالي اقليم التفاح اكبر الخطر عليهم . فهاجموا جزين والقرى التي حولها واخذوا يقتلون ويسلبون ويدمرون . وفيما صيدا وجزين واقليم التفاح على هذه الحال المؤسفة المؤلمة والمسيحيون يفدون زرافات ووحدانا للالتجاء الى خان الافرنج في صيدا اذ وصلت الى بيروت الاساطيل الاوروبية لتهدئة الحالة في سوريا ولبنان . وقد ارسل اميرال الاسطول الفرنسي بارجة الى

---

(١) حسر اللثام ص ١٨٩ ـ ١٩٨

صيدا فوصلتها والثوار على وشك الهجوم على خان الافرنج حيث احتشد الاف المسيحيين فنزل ربان البارجة الى البر فور وصوله فاجتمع بالمشايخ ففهم منه انه عاجز عن اعادة الامن الى نصابه فما كان منه الا ان عاد ادراجه ورجع بعد ساعتين مصحوبا ببواخر الاسطولين الفرنسي والانكليزي فخاف الثوار واخلدوا الى السكينة (١) ٠

١٠) موقعة زحلة سنة ١٨٦٠ ــ وكانت زحلة معقلا من المعاقل المسيحية المرهوبة الجانب وهدفا للطامعين والحساد ، لما بلغته من رقي وازدهار ٠ وقد راى الدروز ان الهجوم عليها ليس بالامر الهين فاخذوا يجتمعون ويتداولون في الامر فضموا اليهم جموعا كثيرة من العربان ومتاولي بعلبك الشيعة والبقاع كما استدعوا دروز حوران فاتاهم الشيخ اسماعيل الاطرش يصحبه ثلاثة الاف مقاتل ٠ ولما بلغ عدد الدروز واعوانهم ١٥ الفا بداوا غارتهم على زحلة ٠ وقد قاوم اهل زحلة مقاومة عنيدة وصدوا المهاجمين عدة مرات عن بلدتهم ٠ وبينما كان القتال مستعرا وصل زحلة جيش من الجند النظامي بقيادة نوري بك ، بناء على اوامر خورشيد باشا وموافقة قناصل الدول في بيروت وذلك لرد المعتدين ٠ فطلب القائد التركي الى اهالي زحلة تسليم اسلحتهم ووعدهم بالمحافظة على ارواحهم وممتلكاتهم ٠ فلم تنجح معهم هذه الحيلة كما نجحت مع غيرهم ٠ فهددهم القائد التركي فطلبوا اليه نزع اسلحة خصومهم اولا فلم يجبهم الى طلبهم بل وجه عليهم جيشه فرده الزحليون على اعقابه ٠ عند ذلك وجد القائد التركي ان لا طائل من وراء العنف وان الموقف يمكن ان يزداد توترا وخطورة لان اهالي زحلة كانوا ينتظرون قدوم نجدة كسروانية بقيادة يوسف بك كرم فلجأ الى الحيلة مرة ثانية ٠ فاجتمع بزعماء الدروز ولم يلبث هؤلاء ان اخذوا يتظاهرون كانهم جيش يوسف بك كرم ٠

وفي ٤ تموز سنة ١٨٦٠ شاهد الزحليون جموع الاعداء تحيط بهم من كل جانب وراوا في الوقت نفسه جيشا كثيفا ، يحمل اعلام النصارى ، قادما من ناحية جبل لبنان ويتقدمه رجل يحمل صليبا ٠ فخرج الزحليون لاستقبال القادمين خارج زحلة ظنا منهم ان هؤلاء هم رجال يوسف كرم ٠ ولكنهم لم يلبثوا ان فطنوا الى الحيلة فوجدوا انفسهم

---

(١) حسر اللثام ص ١٩٩ ــ ٢٠٩

محاطين بالمهاجمين من كل جانب فناضلوا بشجاعة عظيمة وتمكن عدد كبير منهم من النجاة . وكان قد بقي في زحلة اربعمائة مقاتل فلما عند ذلك ان لا فائدة من المقاومة فاخذوا ما امكنهم اخذه من الاموال والامتعة ولجأوا الى الجبال والقفار فدخل الدروز حينئذ زحلة فلم يجدوا فيها سوى النساء والعجز من الرجال والاطفال فقتلوا من تخلف من مقاتليها ونهبوا ما بقي فيها بمساعدة جنود منير بك . ولم تلبث الثورة ان امتدت الى قرى النصارى في البقاع وبعلبك فحل بها ما حل بسواها (١) من القتل والسلب والنهب .

(١١) حوادث بيروت :— لا بد لنا ونحن نروى هذه الحوادث المؤلمة المؤسفة الا ان نعترف بما اظهره الدروز نحو النساء من اللطف والاحترام . وقد حرص مشايخهم من آل نكد وحمادة على مرافقة نساء دير القمر الى بيروت (٢).

وقد واصل الاتراك دسهم حتى وفقوا الى اثارة مخاوف المسلمين في بيروت وسواها من المدن . واتفق ان قتل احد الشبان المسلمين في بيروت فقيل انه قتل بامر من خورشيد باشا كما قيل ان النصارى قتلوه . وقد راج القول الثاني اكثر من الاول فهاج المسلمون وتوقفت الاعمال في المدينة ، مما اضطر معظم النصارى الى الالتجاء الى القناصل والاجانب واشراف المسلمين واصحاب الذمة والمروءة منهم " . وقد استغل "اشرار" المسلمين هذا الحادث الفردي فراحوا "يتوعدون النصارى بالذبح ان لم يعرفوا القاتل حالا كما اهانوا قنصل فرنسا وانكلترا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لولا ان تدخل قائد احدى الباخرتين الانكليزيتين اللتين كانتا راسيتين في مياه بيروت وانذر باطلاق النار . وكان في المرفأ باخرة عثمانية يقودها انكليزي يدعى اسماعيل باشا (الجنرال كتي) فساعد على اخماد نار الفتنة وهدد باستعمال القوة اذا لم يرعو الضالون . ومع ذلك فلم تهدأ الحالة الا عندما شاع في المدينة انهم قبضوا على القاتل وقد حوكم هذا الاخير ونفذ فيه حكم الاعدام بعد نصف ساعة من ايقافه .

ولكن الدروز كانوا يفدون الى بيروت بصورة مستمرة ويجتمعون بالمسلمين . وما لبث الاضطراب ان عاد الى المدينة فتعطلت الاعمال واعيدت البضائع الواردة الى بيروت قبل تفريغها واخذ الناس ولا سيما النصارى يهاجرون الى اثينا ومالطة والاسكندرية وارسل

---

(١) حسر اللثام ص ٢١١ — ٢١٥

(٢) حسر اللثام ص ٢١٦ — ٢١٧

البنك العثماني كل ما في حوزته من الاموال والاوراق الى انكلترا ورحل اكثر الاجانب ٠

وقد اشتد الخوف على " كسروان وجبال الموارنة "لان خورشيد باشا امر رجاله بالتقدم اليها " حتى يحمي النصارى " فادرك قناصل الدول الخطر المحدق بنصف مليون من الموارنة ٠ فدعا المستر مور قنصل الانكليز سائر قناصل الدول الى الاجتماع في منزله لدرس الموقف ٠ فوجدوا ان الاتصال بخورشيد باشا لا يفيد مطلقا لانهم اصبحوا يعرفون اساليبه المبنية على الغدر والخداع ، فقرروا ، بانتظار وصول القوات البحرية الاوروبية ، ان يتوجهوا الى الدروز ويحذروهم من عواقب الاستمرار في القتال ٠ وقد ارسلوا المذكرة التالية الى سعيد بك جنبلاط وغيره من زعماء الدروز (١) "٠

نحن وكلاء دول انكلترا والنمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا قد علمنا بمزيد الاسف ان القتل والسلب والتدمير لم تزل الى الان تعمل على نمط يوجب اللوم الشديد ٠ وعليه فنحن نكلفكم رسميا بان توقفوا كل هذه المصائب ونحذركم بصفتنا وكلاء عن الدول الاوروبية وبناء على تفويض جاءنا من السفراء من عواقب هذه الامور ٠ ونعلمكم ان المسؤولية التي ستلقى عليكم في المستقبل ثقيلة عظيمة خصوصا اذا جدت منكم او من قومكم حركات اخرى ضد المسيحيين اوضياعهم اواملاكهم ٠ فلاجل الوصول الى هذا الغرض نرى من الضروري ان نكلفكم ونشدد عليكم ان تعقدوا الصلح باقرب ما يمكن من الوقت وان تامروا فرق جيشكم الموجودة الان في انحاء دمشق وصيدا وزحلة ودير القمر وكسروان وغيرها بالرجوع عنها ٠ فامعنوا النظر في النتائج الوخيمة التي تنتج عن عدم قيامكم بمطالبنا هذه واعلموا ان حكوماتنا لا تطيق السكوت عن حالة مثل هذه " ٠

وقد حمل هذه المذكرة انكليزي يدعى جراهام فاجتمع بسعيد بك جنبلاط وبشير بك ابي نكد وبذل اعظم الجهد حتى اقنع سعيد بك باصدار تعليماته الى الدروز للكف عن القتال ٠ وقد طاف المستر جراهام بعد ذلك على سائر مشايخ الدروز ووجهائهم فكان اكثرهم يدعون ان ليس بيدهم الحل والربط ٠

وكان يحدث كل ذلك بينما كانت الحملة البحرية الفرنسية في طريقها الى شواطئ لبنان في سبيل انهاء المذابح ومعاقبة المعتدين وقد وصلت بيروت في ١٦ اب ١٨٦٠ ٠

---

(١) حسر اللثام ص ٢١٨ ـ ٢٢٠

وكان فؤاد باشا مندوب السلطان قد سبقها الى بيروت لارجاء تحقيق في الحوادث واتخاذ التدابير اللازمة ٠ وقد هدأت الحالة بعد وصول فؤاد باشا وساد الامن في كل مكان (١)٠

١٢ مذبحة دمشق ٠ـ كانت دسائس الحكام الاتراك في مقدمة الاسباب التي اوقعت بين الدروز والمسلمين من جهة والنصارى من جهة ثانية ٠ واذا ذكر اسم خورشيد باشا في طليعة المسؤولين عن المذابح التي سبق ذكرها فلابد من ذكر احمد باشا ، والي دمشق كمسؤول اول للمذبحة التي جرت في دمشق عام ١٨٦٠ ٠ واذا تكلمنا عن مذبحة دمشق فلان لها علاقة وثيقة بحوادث لبنان وتدخل اوروبة في سبيل حماية المسيحيين ٠
ومما يجب الاشارة اليه الاثر الذي تركه في نفوس المسلمين الامر السلطاني القاضي بالمساواة بين رعاياه وفاقا لمعاهدة باريس عام ١٨٥٦ ٠ لقد اثار هذا القرار نقمة المسلمين وحسدهم ٠ وكان الاخبار الواردة الى دمشق عن مذابح حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر وبيروت تشجع الرعاع في دمشق على اعمال القتل والسلب والنهب ٠ الا ان بعض الوجهاء وارباب العلم من المسلمين داروا على الناس يحرضونهم على التعقل والسكينة فلم تجد مساعيهم المحمودة نفعا لان الحكومة واشقياء الاهالي كانوا اقوى منهم ٠ وعندما يئس النصارى من حماية الحكومة لهم لزموا بيوتهم واوقفوا اعمالهم منتظرين الفرج ٠ وعندما توتر الموقف الى حد لم يعد الصبر ممكنا معه اجتمع قناصل الدول في دار قنصل الانكليز فقرروا فتح بيوتهم للمسيحيين ، اذا حصل ذبح اونهب ، وتحذير الوالي من سوء العاقبة ٠ ولكن القنصل اليوناني الذى عهد اليه بمهمة مراجعة الوالي فشل في مهمته اذ احتج الوالي بقلة الجند لديه وعجزه عن ردع الاشقياء ٠ عند ذلك توجه القناصل جميعهم الى دار الوالي والحوا عليه بالتدخل فاصدر امرا الى السكان والجنود بالتزام جانب الهدوء وعدم التعرض للنصارى ٠ فظن هؤلاء ان كل شيء قد انتهى فاستانفوا اعمالهم ٠ ولكن الاضطراب لم يلبث ان عاد الى سابق عهده فتوارى النصارى عن الانظار من جديد ٠ فحاول قنصل انكلترا وقنصل اليونان حمل بعض وجهاء المسلمين على مساعدتهم في تهدئة الخواطر ولكن ذلك لم ينفع شيئا ٠ واخذ الموتورون في جوار دمشق يفدون اليها للانتقام من النصارى ٠ وكان قد وصـــل

---

(١) حسر اللثام ص ٢١٦ ـ ٢٢١

الى العاصمة الاموية النصارى الذين سلموا من مذبحة حاصبيا . وقد اشاع احمد باشا في ذلك الوقت ان النصارى ينوون الهجوم على المسلمين ليلا ، ثم نقل الوالي عائلته الى القلعة وارسل فرقة من العساكر الى باب توما لحماية النصارى فاحس النصارى بسوء المصير فحاولوا استرضاء الجند والضباط بالاموال الوافرة والهدايا الكثيرة فلم يغن ذلك عنهم شيئا . وقد اتفق ان شكا بعض المسيحيين بعض المسلمين الى الوالي . فامر هذا بالقبض على ثلاثة مسلمين بتهمة اهانة المسيحيين وارسل بهم الى حي النصارى لتكنيس شوارعه . وعندما رآهم المسلمون اوقفوهم عند مدخل الجامع الاموي ففكوا اغلالهم ، وبما انهم ظنوا ان في الامر نية مبيتة فقد اجتمعوا في الجامع ووجهوا نداء " الى سائر المسلمين طالبين اليهم الانتصار للاسلام والمسلمين ". فهجم " رعاع المسلمين عندئذ من كل صوب على حارة النصارى ... وهكذا ابتدات المذبحة فصوبت نيران مدفع على كنيسة للروم الارثوذكس بامر الوالي . فادرك الثائرون حينئذ ان السلطات راضية من الهجوم على المسيحيين فاضرموا النار في حي النصارى من كل جانب وراحوا ينهبون البيوت ويقتلون من فيها "وكان عساكر الاتراك يفتحون الابواب للقادمين ويمنعون النصارى من الفرار . وقد بلغت مذبحة دمشق حدا هائلا من الشدة اذ قتل في ذلك اليوم ستة الاف نفس تقريبا " على ان الارض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المر ... فقد وجد ... رجل عظيم المقام رفيع القدر كثير التمسك بفضائل الاسلام ، شريف في الحسب والنسب ... بطل مغوار ... وكان اخصامه في ايام عزه اناس من المسيحيين . ولما خانه الدهر ... اثر الانزواء في دمشق ... هو الامير عبد القادر الحسني الجزائري ... الذي اشتهر بالمروءة والنخوة ... فاجتمع يوما بوجوه المسلمين في حضرة احمد باشا ... فافهمهم ان مثل هذا الغدر يعد جبنا وعارا ... وان الايقاع باهل الذمة ما داموا في طاعة الحكومة الاسلامية مناف للشرع الشريف ، ولا يجوز في دين من الاديان . فلم ير الوالي بدا من التسليم برايه ... ولكن الحاكم التركي ومن معه ... خانوا العهود ... ولما شعر بذلك الامير بعث رجاله في الليل في كل ناحية من انحاء دمشق فجعلوا يدورون في جوانبها ويفتشون على النصارى فيقودونهم الى سراي الامير اينما وجدوهم ويردون عنهم جموع الهائجين ومضى الليل كله والنهار التالي والامير عبد القادر يجمع هؤلاء المساكين في بيته وهو يطعمهم ويسقيهم من ماله ويواسيهم ...وكان يخرج

بنفسه في احيان كثيرة فيمر بالشوارع التي يكثر القتل فيها ويرد القاتل عن فريسته بيده الشريفة ويقصد الحوانيت والكنائس ومنازل القناصل حيث اجتمع الفارون بالمئات والالوف فيخلصهم ويقودهم الى داره ثم يعود الى تخليص غيرهم ... حتى اجتمع لديه حوالي اثني عشر الف نفس ... ورجا الوالي الوحشي احمد باشا ان يامر بقبولهم في القلعة بعد ان تعهد له : ان لا يمد الى هؤلاء المساكين يد سوء فوضع هؤلاء ... في القلعة حيث ظلوا اياما واسابيع ... وذاقوا كل لون من الوان الشقاء ... وكانوا يخافون ان تكون القلعة شركا لهم مثل سراي حاصبيا ودير القمر وراشيا .... ولكن هذا لم يحصل .. . وكان اكثره بحسا في ذلك الشريف الامير عبد القادر . واما مساعي القناصل فلم تجد نفعا لان الحكام كانوا يعدونهم في جملة الاعداء ويريدون الفتك بهم . ولما كثر عدد اللاجئين الى بيت الامير عبد القادر (غير الذين ارسلوا الى القلعة) قصد اشقياء المسلمين من دمشق ان يقتلوهم عن اخرهم ونقموا على هذا الامير العظيم .... فتجمهروا حول داره ... يصخبون ويطلبون تسلم النصارى في الحال او يحرقون بيته ... فلما سمع هذا الضرغام نداءهم امر بجمع رجاله في الحال حول قصره ... ثم تقدم الامير وحده الى وسط اولئك الثائرين " فوجه اليهم اعنف القول .... فعادوا على اعقابهم خاسرين وسلم ١٢ الف نفس بواسطة هذا الشهم الفريد ، واما كرام المسلمين واصحاب العقل فيهم من اهل دمشق الذين دافعوا ما استطاعوا عن المسيحيين فكثيرون لم نعثر على اسمائهم كلهم ... فمن هؤلاء الافاضل الشيخ سليم العطار والشيخ سالم الكزبري ....وصالح اغا المهايني وعمر اغـــــا العابد والعلامة الشيخ عبد الغني الميدانـــــي وهاشم اغا متسلم القلعة الذي عاون الامير عبد القادر على حماية المسيحيين الذين لجاوا الى القلعة وال حمزة العلماء الاعلام ....الذين ادخلـــــوا الى بيوتهم جمعا غفيرا من الهاربين وظلوا اياما يعولونهم ويدافعون عنهم .... "وقد حصل كل ذلك خلال شهر حزيران في سنة ١٨٦٠ " . (١)

---

(١) حسر اللثام ص ٢٢٢ ـ ٢٣٦

القسم الرابـــــع
العلاقات بين لبنان وفرنسا حتى اواسط القرن التاسع عشر

لما كان الدور الذى مثلته فرنسا في تاريخ لبنان بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ عظيم الاهمية ، بعيد الاثر ، فقد وجب علينا ، لكي نفهمه تمام الفهم ونتعرف الى اصوله التاريخية حق التعرف يجب ان نلقي نظرة سريعة على العلاقات بين لبنان وفرنسا منذ نشاتها حتى اواسط القرن التاسع عشر ٠

هنالك تقليد يرجع هذه العلاقات الى الحروب الصليبية فاذا اضفنا الى ذلك المعاهدات التي عقدت بين فرنسا والباب العالي ظهر لنا بوضوح المصدران الرئيسيان لهذه العلاقات ٠

١) في العهد الصليبي ٠ـ غادر الصليبيون سنة ١٠٩٩ مدينة انطاكية، بعد ان وقفوا على ابوابها مدة طويلة ، ميممين وجههم شطر بيت المقدس ٠ وعندما بلغوا طرابلس بداوا يجتمعون بابناء الطائفة المارونية الذين كان معظمهم يقيم في الجهات الشمالية ٠ وقد استقبل الموارنة جيوش الصليبيين بحفاوة بالغة وقدموا لهم احسن المساعدة ٠ ولم يكن الصليبيون على معرفة بالطرقات المؤدية الى مدينة القدس ، فعرفهم الموارنة اليها وسلكوا واياهم الطريق الساحلي مارين بالبترون وجبيل ونهر ابراهيم ونهر الكلب وبيروت وصيدا وعكا حيث تركوا طريق الساحل متوجهين الى القدس ٠ وقد تطوع عدد من الموارنة في صفوف الصليبيين فاشتركوا بمعركتي طرابلس والمدينة المقدسة ٠ ولم يقتصر الموارنة على الاشتراك في الحروب بل تجاوزوا ذلك الى التعاون والصليبيين في خدمة الدويلات اللاتينية (١)٠

وقد احتل الموارنة في مملكة القدس المركز الذى ياتي مباشرة بعد مركز الافرنج متقدمين في ذلك على اليعاقبة والارمن الذين كانوا يتقدمون على اليونان والنساطرة والاحباش ٠ وكان الموارنة قادرين على امتلاك الاراضي والتمتع ببعض الامتيازات التي لم تكن الا لابناء طبقة البرجاسية من الافرنج (٢) ٠ ومن الامتيازات التي منحها الصليبيون

---

(١) ريستلهوبر ص ٤٥ ـ ٥٤

(٢) راجع كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ الذى يستعمل هذه الكلمة بمعنى بورجوازية ص ١١٥ و ١٤١

للموارنة اعطاؤهم الحق في ان يحكمهم رئيس منهم (ريس) تشبه صلاحياته الى حد كبير صلاحيات الفيكونت ، كذلك احترم الصليبيون صلاحيات البطريرك واعتبروه الممثل الشرعي الوحيد للطائفة المارونية بل رمز وحدتها واستقلالها (١)٠

وقد ترك الافرنج لبعض المسيحيين جزءا من الاماكن المقدسة وكان بين هؤلاء المسيحيين جالية مارونية صغيرة كانت على اتصال وثيق مع الفرنسيسكان فيما بعد ٠

وقد اقام في لبنان ابان الاحتلال اللاتيني لبلاد الشام عدد كبير من زعماء الافرنج ٠ واذا كان الصليبيون قد فضلوا الاقامة في المناطق المارونية فلا يعني ذلك انهم اقتصروا في سكناهم عليها فقد اقاموا ايضا في المناطق الدرزية كما تدل على ذلك اسماء الباروك ويعقلين والمختاره التي نجدها بين اسماء اقطاعات بارونية صيدا ٠

وكان بين الصليبيين مهندسون معماريون على جانب كبير من المهارة فعلاوا الاراضي المفتوحة بقلاعهم وقصورهم وكنائسهم التي لا يزال بعضها حتى يومنا هذا (٢)٠

وقد ظل الموارنة والصليبيون يعيشون جنبا الى جنب مدة قرنين من الزمن ٠ فاثروا وتاثروا " لقد قام السادة الافرنج بسوريا فالتقت بذلك فجاة مدنيتان لم يكن بينهما من قبل الا النفرة والعداء ٠ فلم ير الصليبيون ٠٠٠ ان يغمضوا عيونهم عن المجتمع العربي وعما فيه من المحاسن بل اخذوا بها فنشات عن ذلك في الممالك اللاتينية المدنية الافرنجية السورية ٠" (٣)

وعندما استولى "جي دي لوزنيان "عام ١١٩٢ على جزيرة قبرص لم يكتف بان يدعو اليها الزعماء الافرنج المطرودين من فلسطين بل دعا ايضا مسيحيي سوريا الذين كانوا يميلون الى التخلص من الحكم الاسلامي ٠ وكان الموارنة في طليعة من لبوا هذه الدعوة ٠ فهاجر منهم عدد كبير الى قبرص ٠ ولما وصل لويس التاسع الى قبرص لقي فيها جالية مارونية كبيرة فانضم عدد كبير من ابنائها الى جيشه بعد ان اتتهم النجدة من اخوانهم في لبنان ٠

وعندما عاد لويس التاسع الى عكا استقبله فيها الامير سمعان ، ابن احد الزعماء الموارنة ، على راس عدد من الرجال حاملا اليه الهدايا والخيول الكريمة الاصيلة ٠ وكان

---

(١) ريستلهوبر ص ٥٤ ـ ٥٥
(٢) " " ٥٦ ـ ٦٢
(٣) " " ٦٢ ـ ٦٧

مسيحيو لبنان يدعون لويس التاسع " سيف العالم وابن الشرع والانجيل" . وبهذه المناسبة ، مناسبة الاستقبال الذي جرى له ، وجه لويس التاسع الى الموارنة في ٢١ ايار ١٢٥٠ كتابا تاريخيا شكر فيه امير لبنان على ما بذله نحوه ونوه فيه بالصداقة التي تربط الموارنة بفرنسا وبالعطف الذي تكنه لهم كما صرح بان لا فرق عنده في الحقوق بين فرنسي وماروني (١).

وكان نزوح القديس لويس مقدمة لافول نجم المستعمرات الافرنجية في بلاد الشام . وضاعف المسلمون هجماتهم فاحاطوا بالصليبيين من كل جانب وقد امتدت مقاومة الصليبيين في لبنان اكثر من اي بلد اخر . الا ان جحافل المسلمين لم تلبث ان بلغت اعالي جبال لبنان ، فاضطر عند ذلك اسياد الفرنجة الى الجلاء عن لبنان بعد ان اقاموا فيه طوال قرنين من الزمن غير ان الذين كانت لهم مصالح او روابط عائلية في لبنان اثروا البقاء فيه والصدوف عن وطنهم الام نهائيا . والى هؤلاء يرجع ابناء بعض العائلات المارونية التي تقطن لبنان الاعلى . كما ان هناك كثيرين نزلوا جزيرة قبرص ، وكانت يومئذ في اوج ازدهارها ، منتظرين الوقت المناسب للعودة الى سوريا . وقد حكم الافرنج في قبرص حتى عام ١٣٧٣ ، عندما استولى عليها ابناء جنوة . وعند ذلك انقطعت كل علاقة تقريبا بين لبنان والغرب وظلت الحال كذلك الى ان نشأت العلاقات التجارية المتصلة بين مرفأ مرسيليا وسوريا والى ان وصلت الى لبنان طلائع المبشرين الفرنسيين (٢).

ويذكر السودا (٣) نقلا عن غليوم مطران صور وهو شاهد عيان لحوادث تلك الايام ما يلي " لم يكن ذلك الشعب قليل العدد ، فهم على ما يقال يربون على الاربعين الفا وهم يسكنون ارض فينيقيا ولبنان . وكان هؤلاء القوم على جانب عظيم من البسالة والتدرب على السلاح ولقد ساعدوا قومنا المسيحيين مساعدات جلى في محاربة اعدائنا " . وعندما استولى المسلمون على البلاد اخذوا يراقبون حركات النصارى مراقبة شديدة بسبب المساعدة التي قدمها هؤلاء الى الصليبيين (٤) وكان من نتائج مناصرة اللبنانيين للصليبيين ان انقطعت علاقة الموارنة بفرنسا اكثر من مئتي سنة . وبعد موت الملك القديس لويس التاسع بقيت مسالة انقاذ مسيحيي الشرق والاستيلاء على الاماكن المقدسة ماثلة في ذهن ملوك فرنسا وعدد من رجال الدولة فيها . غير ان الظروف لم تسمح بتحقيق ذلك في وقت يسير قريب .

---

(١) تيستا ج ٣ ص ١٤٠ ، ريستلهوبر ص ٦٧ ــ ٧٢
(٢) ريستلهوبر ص ٧٢ ــ ٧٧
(٣) في سبيل لبنان ص ٥٩ ــ ٦٠ وراجع ايضا ريستلهوبر ص ٤٥ ــ ٤٦
(٤) الدويهي ص ٣٧٣ ، وريستلهوبر ص ٢٦

٢) بعد القرن الرابع عشر :- وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر توثقت العلاقات بين فرنسا والشرق بفضل التجار الفرنسيين ولا سيما تجار مرسيليا . وفي اوائل القرن السادس عشر كانت فرنسا في طليعة البلدان التي تربطها علاقات تجارية بسوريا .

٣) فرانسوا الاول وسليمان القانوني :- وهذا ما جعل الملك الفرنسي فرانسوا الاول يتقرب عام ١٥٢٨ من السلطان سليمان الاول المعروف بالقانوني . ولكن هذا التقرب كانت لها ايضا اسباب سياسية . فقد اراد الملك الفرنسي ان يجد لنفسه حليفا يدرأ عنه خطر الامبراطور شارلكان او (شارل الخامس) . وقد ادت المفاوضات بين فرنسوا الاول وسليمان الاول الى ابرام معاهدة تحالف هجومية دفاعية عام ١٥٣٥ في مدينة القسطنطينية وكانت هذه المعاهدة موجهة ضد النمسا (١) .

٤) الامتيازات :- ولم يمض طويل وقت حتى جاءت الامتيازات . وهي المعاهدات التي كانت غايتها ان تؤمن لرعايا الدول المسيحية ، المقيمين موقتا او بصورة دائمة خارج بلاد المسيحيين ولا سيما في البلدان الاسلامية، الحق بان يستثنوا ، الى ابعد حد ، من نفوذ السلطات المحلية وان يعودوا الى سلطاتهم الوطنية التي يمثلها القناصل والموظفون الدبلوماسيون . وقد نص الامتياز الموقع عام ١٥٣٥ بين فرانسوا الاول وسليمان الاول (٢) على ان يشمل النظام الخاص بالقناصل والدبلوماسيين ، في الناحيتين المدنية والجنائية ، جميع الفرنسيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية وعلى ان تقدم السلطات العثمانية القوة اللازمة لتنفيذ الاحكام الصادرة عن المحاكم القنصلية الفرنسية . فلم يكن بوسع السلطات العثمانية ان تدخل منزل فرنسي من غير حضور قنصله . وكان يحق للفرنسيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية الوصية باموالهم واملاكهم الى ورثتهم او نقلها الى اسمهم . وكانوا فوق ذلك يتمتعون بالحرية التامة في شراء اي صنف من البضائع غير الممنوعة وبيعه واستبداله ونقله من بلد الى اخر ، برا او بحرا ، لا يتكبدون في ذلك سوى الرسوم العادية . اضف الى ذلك انهم كانوا معفيين من دفع الضرائب والرسوم الاعتباطية والواجبات التي كانت مفروضة على ابناء البلاد المسيحيين . فكانت فرنسا الدولة المسيحية الوحيدة التي اجيز لرعاياها ان يقيموا في الامبراطورية العثمانية وان يمارسوا فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

---

(١) محمد فريد ب.ت ص ٨٤ ـ ٩٠

(٢) تيستا ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

اما رعايا الدول الاخرى فلم يكونوا قادرين على الملاحة والاتجار داخل الامبراطورية العثمانية الا في ظل العلم الفرنسي ، وظل الامر كذلك الى ان قبل الباب العالي بتوقيع امتيازات مماثلة مع الدول الاخرى . واخر ما منحه امتياز عام ١٥٣٦ الى الفرنسيين الحرية الدينية وحماية الاماكن المقدسة . فسمح لهم بممارسة طقوسهم الكاثوليكية في اراضي الامبراطورية كما اعطى لممثليهم الحق في السهر على حماية الاماكن المقدسة وساكنيها (من المسيحيين) ومن كان يرتادها من الحجاج (١). ولم تلبث هذه الحماية ان امتدت مع الزمن الى جميع رعايا السلطان الكاثوليك ولا سيما بعد الامتياز الموقع بين الملك هنرى الرابع والسلطان احمد سنة ١٦٠٤ . ولم تلبث هذه الحماية ان تجاوزت الناحية الدينية الى غيرها من نواحي الحياة (٢) .

ولكن الباب العالي كان يعتقد ان الامتيازات موقتة يمكن نقضها في اى وقت وانها بحاجة الى تجديد من قبل السلطان لدى تسلمه العرش .

وبالفعل فقد جددت الامتيازات بموجب فرمانات سلطانية اكثر من اثنتي عشرة مرة اهمها كان عام ١٥٦٩ و ١٦٠٤ و ١٧٤٠ (٣).

واهم ما جاء في فرمان عام ١٦٠٤ الحق الممنوح لقناصل فرنسا في حماية جميع التجار الاجانب المقيمين في الامبراطورية العثمانية وحماية رجال الدين اللاتين في الاراضي المقدسة .

اما فرمان عام ١٧٤٠ فقد تضمن بالاضافة الى كل ما ذكرنا انفا ، منح الافضلية لقناصل فرنسا على قناصل سائر الدول في الامبراطورية العثمانية وتخفيض الرسوم الجمركية للتجار الفرنسيين من ٥ ٪ الى ٣ ٪ ، وتاكيد الحماية الفرنسية للفرنسيين والاجانب الكاثوليك ولمن كان يلوذ بهم .

وقد اجيزت الكنائس الفرنسية في صيدا وغيرها من المراكز التجارية (٤) .

٥) قنصليات فرنسا ومراكزها التجارية :- وكان لفرنسا قنصليات في حلب وطرابلس وصيدا . وكانت احدى مهماتها الرئيسية حماية رجال الدين المسيحيين واديرتهم وكنائسهم . وقد سبق لنا ان اشرنا الى اهمية العلاقات التجارية بين مرسيليا وبلدان الشرق . والحقيقة

---

(١) محمد فريد بك ص ٩١ ـ ٩٥

(٢) " " " ١٢١

(٣) تيمتا جزء ١ ص ٩١ و ١٤١ و ١٥٢ و ١٨٦ ، محمد فريد بك ص ١١٠ و ١٢١ و ١٤٩

(٤) تيمتا ج ١ ص ١٨٦

ان اساس التجارة الفرنسية في الشرق يرقى الى توقيع الامتيازات الاولى في ايام فرانسوا الاول . ولم ينافس الفرنسيين في ذلك الوقت سوى الانكليز وابناء البندقية . وقد تأسست اولى المراكز التجارية الفرنسية حوالي عام ١٥٥٠ في القسطنطينية ثم قامت مراكز ازمير وحلب والاسكندرونة وطرابلس وصيدا وبيروت . وكان قناصل فرنسا في هذه المدة يرجعون الى حد كبير الى غرفة التجارة في مرسيليا على الرغم من كونهم ممثلين للملك في الدرجة الاولى (١).

٦) سليمان القانوني والموارنة :- يروي الدويهي في كتابه تاريخ الطائفة المارونية (٢) ان سليمان القانوني ، قد ضمن للموارنة حرية ممارسة طقوسهم الدينية مرتين الاولى عام ١٥٤٩ والثانية عام ١٥٥٣ وذلك بناء على طلب سفراء فرنسا .

٧) المبشرون الفرنسيون :- كان للمبشرين الفرنسيين اثر عظيم في تعزيز العلاقات بين لبنان وفرنسا . وقد بدأ هؤلاء يفدون الى لبنان منذ الحروب الصليبية . فقد وصل الى فلسطين مؤسس جمعية الفرنسيسكان عام ١٢٢٠ . ولم يلبث هؤلاء ان اسسوا ارسالية لهم في طرابلس وكنيسة المخلص في بيروت . كما ان جمعية الدومينيكان الموجودة في دمشق منذ ١٢٣٠ استقروا لها في عكا ونيقوسية وطرابلس . ولكن كل ذلك كان قصير الحياة اذ ان زوال الدويلات اللاتينية قد اودى بكل شيء منه . الا ان الفرنسيسكان تمكنوا في القرن الخامس عشر من العودة الى ارسالياتهم في طرابلس وكنيستهم في بيروت . وقد عينهم قداسة البابا منذ وبين له في لبنان . ودام نفوذ الفرنسيسكان حتى اوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر . ومنذ عام ١٥٧٨ بدأت تفد الى لبنان جماعة الاباء اليسوعيين من الايطاليين . وهم الذين وضعوا عام ١٥٩٦ ، بتكليف من قداسة البابا ، نظام الكنيسة المارونية ثم عدلوه عام ١٧٣٦ . وفي اوائل القرن السابع عشر بدأ يتكاثر عدد القادمين الى لبنان من الاباء اليسوعيين ولا سيما من الفرنسيين .

وفي اوائل القرن السابع عشر بذل رجال لويس الثالث عشر اقصى ما في وسعهم لتعزيز هذه السياسة . فاتجه الفكر نحو المبشرين لغزو الشرق روحيا ومعنويا بدلا من غزوه عسكريا . فبدأ ايفاد الاباء الكبوشيين ثم تبعهم الاباء اليسوعيون . وكان جميعهم تقريبا من

---

(١) ويستلمبور ص ٩٩ ـ ١٠٤

(٢) ص ٥٤٩ و ٥٥٣

الفرنسيين . اما الاباء الكرمليون فكانوا من جنسيات مختلفة . وفي اواسط القرن السابع عشر وصل لبنان لاول مرة بعض الاباء العازاريين . ولا شك انه كان لاعمال هؤلاء المبشرين جميعا ، سواء منها الدينية او الاجتماعية او الثقافية ، اكبر الاثر في تعزيز مركز فرنسا في لبنان (١).

٨) الرحالة الفرنسيون :- ولا بد لنا من ذكر الرحالة الفرنسيين . وكان في طليعتهم الحجاج ثم تلاهم الصليبيون . وتعاقب من بعدهم على زيارة لبنان والشرق عدد لا حصر له من المبشرين والتجار ورجال الفكر الذين جابوا البلاد ، يحيطهم قناصل بلادهم برعايتهم وحمايتهم . ونذكر من هؤلاء فرانسوا شارل دى روزيل الذى زار عبطة البطريرك الماروني في قنوبين عام ١٦٤٤ ، والشفالييه دارفيو الذى زار عام ١٦٦٠ ، قبل تعيينه قنصلا في حلب ، صيدا وبيروت وطرابلس واهدن ، والمركيز دى نواتيل ، سفير لويس الرابع عشر في القسطنطينية الذى أم طرابلس وصيدا ووجه عام ١٦٧٤ من صيدا كتابا وديا الى الشيخ نوفل الخازن ، احد كبار وجهاء الموارنة الذين اشتهروا بعطفهم الخاص على المبشرين الفرنسيين (٢).

٩) البعثات العلمية اللبنانية :- وجرت العادة منذ اوائل القرن السادس عشر ان توفد بعثات من الرهبان الموارنة الى روما للدرس . وقد بلغت بعثة عام ١٥٨٤ العشرين ، مما حمل البابا غريغوريوس الثامن على تاسيس الكلية الشرقية . ومن روما انتقل بعضهم الى فرنسا في اوائل القرن السابع عشر ، نذكر منهم جبرائيل الصهيوني الذى عين في اوائل القرن السابع عشر استاذا للغات الشرقية في الكوللييج دى فرانس وترجمانا للملك لويس الثالث عشر . وكان ساعده الايمن في اعماله حنا الحصروني . وقد خلف جبرائيل الصهيوني عام ١٦٤٦ ابراهيم الحاقلاني (٣) .

١٠) تطور اهتمام فرنسا بالموارنة وتعيينهم في قنصلياتها :- كانت علاقات فرنسا بلبنان في اوائل القرن السابع عشر تقوم على اساسين متينين الاول ديني والثاني تجارى ، وقد وجه بيكيه قنصل فرنسا في حلب بين عام ١٦٥٢ و ١٦٦١ ، كتابا الى مازاران يحثه فيه على تبني قضية الطائفة المارونية . وقد طلب لويس الرابع عشر الى سفيره في القسطنطينية

---

(١) ريستلهوبر ص ٧٨ ـ ٩٨

(٢) ريستلهوبر ص ١٠٤ ـ ١١٣

(٣) " " ١١٣ ـ ١٢٤

أن يتدخل لدى الباب العالي للحد من جشع والي طرابلس في جبايته الضرائب .

وفي عام ١٦٤٩ وجه لويس الرابع عشر رسالة الى بطريرك الموارنة مؤكدا له من جديد عطفه وصداقته وانشأ عام ١٦٦١ في بيروت قنصلية مستقلة عن قنصلية صيدا . وعهد بها الى الشيخ ابي نوفل الخازن الماروني من عام ١٦٥٥ حتى ١٦٧٩ بعد ان منحه جميع الصلاحيات والامتيازات التي كانت للقناصل الفرنسيين في المشرق (١) .

وقد خلف أبا نوفل ابنه ابو قانصو من عام ١٦٧٩ حتى ١٦٩١ وخلف هذا ابنه حصن من ١٦٩٢ حتى ١٧٠٧ فخلفه ابنه الشيخ نوفل حتى عام ١٧٥٨ واهمية هذين التعيينين الاخيرين تعود الى الامر الملكي الصادر في ١١ اذار سنة ١٦٨٥ والذي منع بموجبه منعا باتا صريحا تثبيت الاجانب في الوظائف القنصلية الفرنسية باستثناء الشيخ الماروني الانف الذكر (٢) .

وكان الملك لويس الرابع عشر ايضا يراسل مطارنة الموارنة ويدود عنهم . ويورد جوبلان (ص ١٥٥ - ١٥٦) رسالة موجهة من لويس الرابع عشر الى سفيره في القسطنطينية المسيو فريول في ١٠ اب سنة ١٧٠١ يوصيه فيها بموارنة لبنان ومطارنتهم ويطلب اليه التدخل لرفع جميع المظالم اللاحقة بهم . وكان موارنة لبنان يوفدون رسلهم الى لويس الرابع عشر لبثه شكواهم ومناشدته التدخل لدى السلطات العثمانية (٣) .

وقد كان لموت لويس الرابع عشر رنة اسف عميقة في قلوب الموارنة (٤) . ولم يلبث لويس الخامس عشر ان سار على نهج سلفه في سياسته الشرقية . فاعاد في عام ١٧٣٧ القنصلية الفرنسية في بيروت ، تحقيقا لرغبة البطريرك الماروني ، واكد جميع التعليمات التي اصدرها اسلافه الى قناصل فرنسا بشان حماية الموارنة وبطريركهم (٥) . وعندما وجد الامير يوسف شهاب ، حاكم لبنان في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، امام خطر ظاهر العمر ثم احمد باشا الجزار ، توجه الى ملك فرنسا ، وكان يومئذ لويس السادس عشر ، طالبا اليه مناصرته .

---

(١) تيستا ج ٣ ص ١٤١

(٢) ريستلهوبر ص ١٤٢ - ٢٠٦

(٣) " " ٢٠٧ - ٢٢٠

(٤) " " ٢٨٧ - ٢٩٠

(٥) " " ٢٩١ - ٢٩٤

وقد عهد بهذه المهمة الى القنصل الفرنسي في صيدا، وكان حينئذ توليس • وفي ١٤ اب سنة ١٧٨٧ عين لويس السادس عشر الشيخ غندور سعد الخوري، قنصلا لفرنسا في لبنان بناء على رغبة الامير يوسف، ومنحه جميع الصلاحيات التي كانت لسائر قناصل فرنسا (١)•

وقد استمرت هذه السياسة الفرنسية تجاه الشرق عموما ولبنان خصوصا طوال عهد الثورة • وقد ادت حملة نابوليون على مصر الى قطع العلاقات بين فرنسا وبلدان الامبراطورية العثمانية والى القضاء على الامتيازات • واذا كان وفد المونسنيور يوسف تيان قد قدم بعض المؤن للجيش الفرنسي المرابط حول عكا، فان الامير بشير قد تحفظ في جوابه على طلب المعونة المقدم اليه من قبل القائد الفرنسي • وقد دام انقطاع العلاقات بين فرنسا وتركيا من ١٧٩٨ حتى ١٨٠٠ • وعندما اصبح نابوليون اول قنصل لفرنسا اراد ان يستأنف سياسة فرنسا التقليدية في الشرق • ولما نصب نابليون امبراطورا على فرنسا اقام قنصله في طرابلس احتفالا عظيما دعا اليه بطريرك الموارنة (٢) •

وقد تدخلت فرنسا اثر وقوع حوادث عام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ وحاولت الحصول للموارنة على بعض الضمانات كما سنرى •

الفصـــــــل الثاني

الاحداث التي ادت الى قيام المتصرفية

القسم الاول

ازمة عام ١٨٤٠

١) ازمة ١٨٤٠ بوجه عام •— بعد ان تمتع محمد علي السيادة على مصر وانتزع اعتراف الباب العالي بولايته عليها ، تمكن من الاستيلاء على اليمن والحجاز في جزيرة العرب ،

---

(١) ريستلهوبر ص ٣٠١ ــ ٣٠٤

(٢) " " ٣٠٥ ــ ٣١٨

وعلى اقريطش في بحر ايجه ، وكذلك على فلسطين ولبنان وسوريا وقيليقية • فكان سلطانه يشمل الاسكندرية والقاهرة والخرطوم والمدينة المنورة ومكة المكرمة وجدة وقندية، والقدس ودمشق وعكا وبيروت وحلب ومرسين واضنة في آن واحد •

وهكذا تمكن ، بين ١٨٠٧ و ١٨٣٣ من ان يؤسس ، بسرعة فائقة ، دولة مؤلفة من ولايات تتبع الامبراطورية العثمانية من الناحية القانونية ولكنها تخضع في الواقع تمام الخضوع لوالي مصر •

ومن المعلوم ان محمد علي كان عند بدء فتوحاته في خدمة السلطان ولكنه لم يلبث ان انقلب عليه وسعى الى الاستقلال عنه •

اما البلدان التي كانت موضع نزاع شديد بين السلطان ومحمد علي فهي قيليقية وسوريا ولبنان وفلسطين • وقد اثار احتلالها عام ١٨٣٢ ازمة اوروبية دقيقة • فرحب السلطان محمود الثاني بمساعدة الروسيا للوقوف في وجه محمد علي • ودخل الاسطول الروسي البوسفور في ٢٠ شباط سنة ١٨٣٣ • فخشيت فرنسا وانكلترا والنمسا وبروسيا وقوع تركيا تحت نفوذ الروسيا ، التي كانت تطمع دائما بالسيطرة على مضيقي الدردنيل والبوسفور •

وتمكنت الدول من الضغط على الفريقين المتقاتلين ، وبصورة خاصة على السلطان ، وحملهما على عقد اتفاق كوتاهية في ٥ ايار سنة ١٨٣٣ ، فاعترف فيه السلطان لمحمد علي بحكومة قضاء اضنة وسوريا ولبنان وفلسطين • وقد مثلت فرنسا في هذه المسالة دورا مهما (١)•

لكن هذا لم يمنع السلطان من ان يدين للروسيا ثمن المساعدة التي قدمتها له فعقد معها في ٨ تموز عام ١٨٣٣ معاهدة خونكار اسكلة سي لمدة ثمان سنوات • وقد جاء فيها ان الروسيا ، رغبة منها في تامين الاستقرار والاستقلال التام للباب العالي تتعهد بان تقدم اليه جميع المساعدات البرية والبحرية التي يطلبها ، وان تركيا تتعهد ، مقابل ذلك ، باغلاق ابواب الدردنيل ، اي بان لا تسمح لاية سفينة اجنبية بدخوله مهما كان السبب • وهكذا نرى ان هذه المعاهدة اعطت الروسيا حق التدخل في الامبراطورية العثمانية دون سائر الدول الكبرى • لذلك احدث توقيعها انفعالا كبيرا في لندن وباريس الى درجة ان الحكومة الانكليزية اقترحت على الحكومة الفرنسية حرق الاسطول الروسي فورا في سباستوبول • وقد اخذت قطع من الاسطولين الفرنسي والانكليزي تجوب بحر الارخبيل • وخيل الى المراقبين

---

(١) دريو ص ١٤٠ ـ ١٤٣ ، روص ٨ و ٩ (خلاصات عن رسائل تيار الى كوشليه قنصل فرنسا العام في الاسكندرية) •

في وقت من الاوقات ان الحرب واقعة لا محالة .

ولكن حالة فرنسا الداخلية لم تكن لتسمح لها بدخول حرب ضد الروسيا ، لا سيما وان هذه الاخيرة كانت تستطيع ان تعتمد على النمسا وبروسيا . لذلك لم يلبث روع فرنسا وانكلترا ان هدأ واكتفيا بالتصريح انهما لا يعترفان باتفاقية خونكار اسكلة سي .

واتخذت بريطانيا احتياطات اخرى، اذ تقربت من النمسا ووقعت واياها في ٣ تموز عام ١٨٣٨ اتفاقية ضمنتا فيها حرية الملاحة في الدانوب والامن لتجارتهما في البحر الاسود .

وقد ادركت الدول الاوروبية ولا سيما فرنسا وانكلترا ، على اثر توقيع اتفاقية خونكار اسكلة سي ان على اوروبة ان تصلح ذات البين بين محمد علي والسلطان كلما حدث خلاف مسلح بينهما وان التدخل الجماعي الاوروبي في مثل هذه الحالة من شأنه ان يبعد خطر السيطرة الروسية على البوسفور والدردنيل (١) .

واذا كانت فرنسا قد تباهت بابتهاج فتوحات محمد علي المتتابعة ، فان ذلك كان يبعث القلق في نفس الانكليز ، لما ينطوي عليه من تهديد لطريق الهند ولمصالحهم في المشرق . فاخذت انكلترا تحتاط للمستقبل ، فوقعت مع السلطان في ١٦ اب عام ١٨٣٨ اتفاقية (٢) تقضي بتحظير اي امتياز او احتكار تجاري في الامبراطورية العثمانية حتى في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين . وقد انضمت فرنسا الى هذه الاتفاقية .

وكانت الغاية منها القضاء على قوة العزيز المالية . وفي عام ١٨٣٩ احتلت بريطانيا عدن لتتمكن من مراقبة طريق الهند بصورة اجدى واكثر فعالية ولم تيأس بريطانيا في محاولاتها المستمرة الرامية الى الحط من شأن محمد علي وحصر حدوده بوادي النيل (٣) . فدأبت تغذي ضغائن السلطان على محمد علي ولقيت تشجيعا على ذلك لدى خسرو باشا كبير الوزراء الجديد والذي سبق لمحمد علي باشا ان انتزع منه بشالق القاهرة . وكانت بريطانيا على مثل اليقين من ان اتفاقية كوتاهية ومعاهدة خونكار اسكلة سي لن تعمرا طويلا . ولم يطل انتظارها . فقد كانت مطالب محمد علي الظافر تزداد يوما بعد يوم . ومن اهم مطالبه

---

(١) دريو ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، روص ١٠

(٢) كدالفين وبالروج ا ص ٣٤٨ وما بعدها (النص الرسمي للمعاهدة مع مقدمة لها) لبنان مباحث علمية ص ٢٩٦ ، دريو ص ١٤٤ .

(٣) دريو ص ١٤٤

الجديدة تامين وراثة امبراطوريته لابنائه وعائلته من بعده (١)٠

الا ان السلطان محمود الثاني لم يكن ليقبل بذلك ولم يكن رضوخه عام ١٨٣٣ الا نتيجة للضغط الاوروبي عليه ٠

وكانت غايته الرئيسية من اعادة تنظيم جيشه استعادة سوريا من محمد علي ٠ وفي ٢١ نيسان عام ١٨٣٩ ظن السلطان ان الوقت قد حان للانتقام من محمد علي وتاديبه فامر الجيش التركي ان يغزو سوريا بقيادة حافظ باشا (٢) والتقى الجيشان التركي والمصري في معركة نصيبين في ٢٤ حزيران ١٨٣٩ فكان النصر حليف الجيش المصري الذي تابع سيره المظفر نحو جبال طوروس (٣) بغية اجتيازها والاتجاه بعد ذلك نحو القسطنطينية ٠ ولما بلغ نبأ الهزيمة العاصمة التركية كان السلطان محمود قد توفي في ١ تموز وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد البالغ من العمر ١٦ سنة فتجدد امل محمد علي في امكانية التفاهم معه لا سيما وانه كان يخشى التدخل الاوروبي ولا يريد ان يعطي الروسيا فرصة تطبيق معاهدة هونكار اسكلة سي ٠ اضف الى ذلك ان الدبلوماسية الفرنسية كانت تزوده دائما بالنصح وتشير عليه بالتروى ٠

وكان محمد علي وقتئذ في حالة تمكنه من المفاوضة في ظروف موءاتية ٠ وقد خيل له ان الامبراطورية العثمانية كانت تحت رحمته لان امير البحر احمد فوزى باشا كان قد خان الدولة العثمانية بتسليمه الاسطول العثماني الى محمد علي في مطلع تموز سنة ١٨٣٩ ، في الوقت الذى خرج فيه من القسطنطينية بغية الرسو في المياه المصرية واحتلال مصر ، وعلى الرغم من موافقة الدارية البريطانية الفانخارد له (٤) ٠

لذلك لم يكن بد للسلطان من التسليم بمطالب محمد علي ٠ وكان هذا الاخير يطالب ، بالملكية الوراثية لسوريا ومصر وعزل خسرو باشا بينما كان السلطان يرى منحه

---

(١) كدالفين وبارو ج ١ ص ٣٤٧ (مذكرة محمد علي لقناصل انكلترا) قتاوى ص ١٣١ ، رو ص ١٤ ٠

(٢) كدالفين وبارو ج ١ ص ٣٥٥ وص ٣٥٩ ـ ٣٦٢ وص ٣٦٥ ـ ٣٦٨

(٣) كدالفين وبارو ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧

(٤) كدالفين وبارو ج ٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ ومذكرة محمد علي الى قناصل الدول

الملكية الوراثية لمصر وملكية سوريا مدى حياته (١) ٠

وفي ٢٧ تموز عام ١٨٣٩ اعربت دول انكلترا والروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا بناء على اقتراح مترنيخ وزير خارجية النمسا ، للباب العالي عن اتفاقها بشان المسالة الشرقية وطلبت اليه ان يمتنع عن كل مفاوضة نهائية في هذا الموضوع من غير مشاركتها ، وان يترقب فائدة الاهتمام الذى تبديه له هذه الدول (٢) ٠

الا ان فرنسا كانت تبدى صراحة عطفها على محمد علي وتاييدها لقضيته (٣) ومصالحه وقد تبنى المسيو تيار هذه السياسة فتمكن بذلك من اسقاط وزارة سول ٠ وكان الراى العام الفرنسي يكن في نفسه المحبة والاعجاب والاحترام لمحمد علي ٠

وتمكن اللورد بالمرستون من ايقاظ حفائظ اوروبة على فرنسا ٠ غير ان المفاوضات بين سفراء الدول الخمس استمرت في لندن وفاقا لمذكرة ٢٧ تموز عام ١٨٣٩ التي تقدمت بها هذه الدول الى الباب العالي ٠ وكان سفير فرنسا في لندن المسيو غيزو الذى كان له من العلاقات والصداقات الشخصية ما مكنه من ادراك النوايا الخفية للحكومة البريطانية ٠ وقد حاول المسيو تيار حل المشكلة المصرية التركية عن طريق الاتفاق المباشر بين الفريقين المتنازعين ٠ وفي شهر ايار عام ١٨٤٠ عزل السلطان وزيره الاول خسرو باشا لارضاء محمد علي ٠ فاظهر باشا مصر استعداده للمفاوضة والتفاهم ٠ وقد اوشكت تركيا ومصر على توقيع اتفاقية يعترف فيها الباب العالي بالملكية الوراثية لمحمد علي وابنائه واحفاده على مصر وسوريا حتى طوروس ٠ وكانت الحكومة الفرنسية تستعجل الحكومة التركية في اصدار فرمان بهذا الشان ٠ ولكن هذا السر لم يبق مكتوما في الاسكندرية والقسطنطينية بل تمكن العملاء البريطانيون من الوصول اليه ٠ فحمل ذلك اللورد بالمرستون على التقرب من الروسيا وبروسيا ٠

وهكذا فان التفاهم الانكليزى الفرنسي الذى قامت عليه السياسة الاوروبية بين ١٨٣٢ و ١٨٣٨ قد اخذ بالزوال عام ١٨٤٠ ٠ وكان رد الفعل الانكليزى على المحاولة الفرنسية الانفة الذكر العمل الاوروبي الجماعي الذى اشتركت فيه انكلتـــرا والنمسا وبروسيا والروسيا بمعزل عن فرنسا ، الذى تمثل في معاهدة لندن التي وقعتها

---

(١) كدالفين وبارو ج ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ ومذكرة محمد علي الى قناصل الدول

(٢) دريو ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ، فتاوى ص ١٤٧

(٣) دريو ص ١٤٧ ـ ١٤٨

الدول المذكورتين ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ . وقد تعهدت الدول الاربع الموقعة على هذه المعاهدة بان تحافظ على استقلال الامبراطورية العثمانية وحدودها وان تحمي المضايق كما انذرت باشا مصر بان يعيد الى السلطان الجزيرة العربية وجزيرة قندية واضنة وشمالي سوريا على ان يبقى له ولاية عكا ، واذا لم يقبل بعد مضي عشرة ايام اخرى بحق توارث الولاية على مصر فقط بفقد كل شيء . ولكن محمد علي لم يخف ولم يهن امام التهديد الاوروبي بل هدد بالمقاومة حتى الموت . وكانت تؤيده فرنسا تاييدا قويا ظاهرا (١). وقد بدأ الاستعداد في فرنسا لدخول حرب اوروبية (٢) .

وفي ١٤ اب سنة ١٨٤٠ ارسلت الدول المتحالفة اسطولا بقيادة امير البحر روبرت ستوبفورت والسير شارل سميث فجاء وارسل الكومندور السير شارل نابيير الى بيروت فضربها في ١١ ايلول سنة ١٨٤٠ . ولم تلبث الثورة ان اندلعت نيرانها في لبنان .

٢) تطورات ازمة ١٨٤٠ بالنسبة الى لبنان .– ولا بد لنا هنا من الحديث عن تطورات ازمة عام ١٨٤٠ خلال الحوادث التي وقعت اثناء ذلك في لبنان . لقد انضم اللبنانيون عام ١٨٣٢ الى ابراهيم باشا فساعدوه على احراز النصر . ولكنهم انفضوا منه عام ١٨٤٠ للاسباب التي سبق ذكرها في فصل سابق . فكان ذلك احد الاسباب التي ادت الى اندحاره (٣) . وقد اتحد الدروز والموارنة لمجابهته ، مفضلين النضال على تسليم اسلحتهم وعلى دفع الضرائب التي فرضها عليهم القائد المصري .(٤)

ولم يكن انقلاب اللبنانيين على ابراهيم باشا ليخفى عليه . وكانت بريطانيا في عهد بالمرستون تبدي رغبتها للتدخل شيئا فشيئا في الشرق بصورة فعلية . وكانت غايتها الوقوف في وجه محمد علي واقصائه عن بلاد الشام . وكانت الروسيا والنمسا وبروسيا تؤيدها في سياستها هذه ، بينما كانت فرنسا حليفة محمد علي الوحيدة . اضف الى ذلك انه لم يكن واثقا من استعدادها لخوض حرب في سبيله (٥).

---

(١) قناوي ص ١٨٣ – ١٨٤

(٢) دريو ص ١٥١

(٣) المحررات ج ١ ص ٧ ، راجع ايضا مذكرات تاريخية ص ٢٠٥

(٤) " " " " ١ – ١٢

(٥) " " " " ١٤ – ٢٠

ومع ذلك كله فقد صمم على المقاومة · ولكنه لم يحسن حماية مؤخرته وطريق انسحابه اذ لم يوفق في ازالة الاسباب التي كانت تحمل اللبنانيين على الثورة · والحقيقة ان ابراهيم باشا كان رجلا عسكريا في الدرجة الاولى ولكنه كان ينقصه كثير من الدهاء السياسي · فبدلا من الاستماع الى شكاوى اللبنانيين والعمل على معالجتها بالحكمة وجه اليهم في ٦ حزيران سنة ١٨٤٠ اعلانا انذرهم فيه بابادتهم وتدمير بيوتهم اذا لم يعودوا الى الهدوء والسكينة · وقد تجاهل في هذا الاعلان السببين الرئيسيين لسخطهم الاوهما نزع اسلحتهم وارهاقهم بالضرائب (١) ·

وقد كتب اللورد بالمرستون في ٢١ نيسان سنة ١٨٤٠ الى اللورد بونسوبي :
" اعلمكم بضرورة بذل كل ما في وسعكم من جهود لاقناع الباب العالي بمنح الدروز ، في الوقت المناسب ، امتيازات واعفاءات يمكن ان ترضي رغبتهم " ·

وقد ظل الامير بشير وفيا لمحمد علي باشا · فقد اسرف في تاييده منذ عام ١٨٣٢ بحيث لم يعد بوسعه ان يتركه وشانه (٢) وخشية انتقام الاتراك من جهة واعتقادا منه بان قوة المصريين اقوى من ان تحطم وان فرنسا لن تخذل محمد علي · وقد قاوم الامير بشير في سبيل ذلك اماني شعبه ومساعيه ورفض الانقلاب على خليفه المصرى (٣) ·

وقد اعرب اللبنانيون في بيان نشروه في ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ عن شكاويهم ومطاليبهم ، كما استنكروا ما لحق بهم من مظالم وفرض عليه من ضرائب (٤) ·

وقد جاء في هذا البيان : "انهم احتملوا بصبر مظالم السلطة الجائرة مراعاة لخاطر الامير بشير الشهابي على امل ان يضمن لهم صبرهم هذا حفظ شرفهم وحريتهم وكيانهم . واذا كنا لم نلجأ قبل الى السلاح للتخلص من السلطة الجائرة فلاننا كنا نبني امالنا على توسط اميرنا ··· انما لسوء الحظ هذه الحكومة المستمرة في غيها وظلمها لم تحفظ جميلا لاميرنا ··· ولكي نسلك بحزم وفقا لما تقتضيه ظروف خطيرة كهذه ···· يجب ان نعقد اجتماعا من الرجال المعروفين بعلو المنزلة وسمو المدارك ويكون قوام هذه الجمعية خمسة

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢ و ٢ ، تيستا ج ٣ ص ٧٣ ، ومذكرات تاريخية ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦
(٢) مذكرات تاريخية ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦
(٣) المحررات ج ١ ص ١٠ و ١١
(٤) " " " ٣ و ٤ و ٥

رؤساء ينتخبون باكثرية الاصوات في كل اقطاعة فيعقدون كلهم او بعضهم مجلسا في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة ويتتقى عشرة الاف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسددة نحو حريتنا ولتخصص الضرائب ، التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننهض ، لشراء المؤن اللازمة للعشرة الاف مقاتل ٠٠٠٠ ويقتضي ان تكون روابط اعضاء هذا المجلس مع بعضهم متواصلة ٠٠٠٠ وان اهالي دير القمر هم في مقدمة من تسلح للدفاع عن دعوانا المقدسة والعادلة فليسمع نداؤهم الوطني في كل الانحاء ، اما نحن ٠٠٠٠ فقد اقسمنا على استعادة استقلالنا او نموت في هذا السبيل " ٠

ورغم ذلك فقد قام اللبنانيون بمحاولة اخيرة لدى الامير بشير لتسوية القضية بصورة سلمية ، اذ وجهوا في ١٢ حزيران كتابا الى الاميرامين ، اكبر ابناء الامير بشير شعبية ، وكان يحاول تهدئة الخواطر ، وذلك لتبرير الاعمال التي قرروها (١) ٠

وقد ورد في هذا الكتاب مايلي : " اننا لماكنا كما قد فقدنا اموالنا واولادنا وحريتنا ولم يبق لدينا شيء من حطام هذه الدنيا واستولى علينا اليأس ٠٠٠ اضطررنا الى اجابة داعي الثورة تخلصا من الاستبداد واستعادة لراحتنا وحريتنا ٠ انما اذا التفتت الحكومة الى الله ورفعت عنا المظالم فنحن مستعدون للخضوع لها واطاعة اوامرها اذ لا نقصد بنهضتنا انشاء حكومة بدلها بل جل غايتنا التملص من ربقة هذا الاستبداد الذى لا يطاق اذ لا نقوى على غير دفع الميرى عن املاكنا وجوالة واحدة فاذا صادف ورجاؤنا اذنا صاغية وانقذنا من المظالم المذكورة كما نرغب فهاك ما نلتمسه من سمو الخديوى : ان يقتصر على اخذ " ميرى وجوالة " ويرفع عنا كل مظلمة وسخرة ويتعهد بذلك على يد سفيرى انكلترا وفرنسا اوعلى يد قناصلهما في هذه البلاد حتى اذا لم يعمل بهذه العهود تماما يتسنى لنا رفع الشكوى الى هذين المرجعين وعليه فنحن موطدو النية على البقاء حيث نحن الى ان يرد الجواب " ٠ (٢)

ويستنتج من هذا الكتاب ان الحركة الثورية التي نحن بصددها لم تكن تستهدف النظام الاقطاعي كما انها لم تكن حركة تحرر شعبي ديمقراطي اذ لم يكن المقصود منها ازالة الامارة الشهابية من الوجود ولا القضاء على امتيازات اصحاب الاقطاعات بل وضع حد لمظالم صادرة عن سلطة اجنبية ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٨ ـ ١٠

(٢) المحررات ج ١ ص ١٠

واهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب هو مطالبة ابناء الجبل بحماية انكلترا وفرنسا واشرافهما على علاقاتهم بالباب العالي • ويستفاد من المراسلات الدبلوماسية البريطانية ان المستر ريتشارد وود كان على اتصال دائم باللورد بونسونبي ، السفير الانكليزي في القسطنطينية ، وبوزارة الخارجية البريطانية بل حتى بالمستر بالمرستون نفسه • وكان يبحث من جهته بكل ما يتجمع لديه من معلومات عن الحالة في لبنان ويتلقى من الجهات الثانية التعليمات اللازمة بشان المهمة الملقاة على عاتقه • وكانت المصلحة الانكليزية تقضي باكتساب صداقة السوريين واللبنانيين • اضف الى ذلك ان تدخل الانكليز لمصلحة اللبنانيين ضد محمد علي باشا كان يتفق والسياسة التي كانوا يتبعونها ازاء الباب العالي والرامية الى المحافظة على الامبراطورية العثمانية وسيادة السلطان • (١)

ولم يكن يخفى على بريطانيا ان ثورة اللبنانيين على ابراهيم باشا كانت بمثابة ضربة قاصمة للحكم المصري في سوريا • لذلك انبث عملاؤها في كل مكان لاشعال نار الثورة (٢) • وقد كتب السيد مور ، قنصل بريطانيا في بيروت في ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ في معرض كلامه عن الثورة التي اندلعت شرارتها في الجبل ما يلي : "اعتبر ان النفوذ المصري على وشك النهاية • واذا اعطي للثوار اسلحة وذخيرة فان جيوش الباشا مقضي عليها بالطرد او الذبح " (٣) •

وقد ضاعف عملاء الانكليز جهودهم لتشجيع اللبنانيين على الثورة واغدقوا عليهم الوعود بالمساعدة •

وكان الراي العام في فرنسا قد اخذ يميل الى مناصرة محمد علي وكان من جراء ذلك ان اضطر المريشال سول الى رفض الانذار الذي اقترح توجيهه اللورد بالمرستون الى والي مصر ، للمطالبة باعادة الاسطول التركي • عند ذلك ترك اللورد بالمرستون فرنسا وتوجه نحو التفاهم مع النمسا والروسيا لمقاومة محمد علي كما راينا • وعندما راى بالمرستون هاتين الدولتين مؤيدتين لسياسته اقترح ارسال قطع من الاساطيل الانكليزية والفرنسية والروسية الى القسطنطينية في ان واحد •

---

(١) مجلة العالمين ، عام ١٨٤١ ، ليون فوشيه

(٢) المحررات ج ١ ص ٦٠ و ٦١

(٣) مجلة العالمين ، عام ١٨٤١ ، ليون فوشيه

وقد قبلت حكومة سول هذا الاقتراح ولكن قبولها اثار سخط الراى العام الفرنسي ، الذى اتهم الحكومة بالخضوع لمشيئة الانكليز ، وطلب اليها اتخاذ موقف حازم في وجه " الاجانب " . وقد زاد استياء الراى العام عندما بلغه نبأ التقارب بين بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا . وقد سقطت على اثر ذلك وزارة سول فخلفتها في ١ اذار سنة ١٨٤٠ وزارة تيار . وكان هذا من انصار التحالف مع الانكليز ولكنه كان راغبا في الوقت نفسه في انقاذ محمد علي والحؤول دون اى تدخل اوروبي ضد مو تقوية مركزه اى مركز محمد علي بتحقيق اتفاق مباشر بينه وبين الباب العالي يمكنه من الاحتفاظ بالجزء من سوريا وبملكية مصر الوراثية . ولكن تيار لم يكن يحسب حساب بالمرستون . والحقيقة ان هذا الاخير كان يرمي الى اضعاف محمد علي باشا صاحب السويس واحدى الطرق الرئيسية المؤدية الى الهند " وكانت سياسته ترمي الى اضعاف كل دولة يمكن ان تجابه بريطانيا وان يبقى على الرجل العربي لان ذلك كان السبيل الوحيد للمحافظة على النفوذ البريطانية في الشرق " .

وكان بالمرستون يهدف ايضا الى ابعاد السلطان عن دائرة النفوذ الروسي وذلك بالذود عنه ضد محمد علي . لذلك نصح له بان لا يدخل في مفاوضات مع واليه المتمرد محمد علي بل ان يوجه اليه انذارا ، واقترح ، من جهة ثانية ، على الروسية والنمسا وبروسيا ان تدخل جماعيا في وجه محمد علي من غير اشتراك فرنسا . وكان بالمرستون يعتقد ان هذا التدخل من شانه ان يمنع كل تدخل روسي لمصلحة السلطان وبالتالي وقوع الباب العالي تحت رحمة الروسيا .

وقد جرت المفاوضات كما راينا بصورة سرية فلم يطلع عليها بالمرستون الحكومة الفرنسية ولا سفير فرنسا في لندن السيد غيزو ، الذى كان ، رغم ذلك كله ، من اكبر انصار التفاهم الفرنسي الانكليزى . وفي ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ وقعت في لندن معاهدة بين بريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، حددت صيغة الانذار الذى كان على السلطان ان يوجهه الى محمد علي (١) . وقد عرضت هذه المعاهدة على محمد علي وراثة الولاية على مصر في كنف السلطان ، ومها سيطرته طوال حياته على باشالق عكا وجنوبي سوريا وعلى ان يخلي فورا سائر الباشالق السورية وقضاء اضنة ، وجزيرة قندية والجزيرة العربية . وقد منح عشرة ايام لقبول هذا الانذار . فاذا رفضه فانه يفقد باشالق عكا ، واذا لم يخضع في مدة عشرين يوما تنزع منه

---

(١) مارتنز ج ١ ص ١٣٦ وما بعدها .

مصر بكاملها . وقد تعهدت الدول الاربع الموقعة على المعاهدة وكذلك تركيا على تنفيذها ، ولو اقتضى الامر بالقوة .

وقد وجه اللورد بالمرستون في ١٧ تموز عام ١٨٤٠ مذكرة سرية الى حلفائه الجدد القى فيها التبعة على الحكومة الفرنسية في التطورات التي طرأت على المحالفات الاوروبية وطلب ان تتمسك فرنسا في المستقبل بتصريحاتها واقوالها . وقد نشرت هذه الوثيقة الهامة لاعلام فرنسا بان معاهدة ١٥ تموز كانت موجهة ضدها (١).

وفي ٤ اب عام ١٨٤٠ كتب اللورد بالمرستون الى المستر ريتشرد وود فقال : "آمرك ان تعلن باسمي على رؤوس الاشهاد ان الحكومة البريطانية ، بالاتفاق مع حكومات النمسا وبروسيا والروسيا ، ستحمي الذين يريدون العودة الى طاعة الباب العالي وان الاسطول البريطاني سيخف الى نجدة السوريين وان الباب العالي سيرسل اعتدة واسلحة".(٢)

وكان معنى ذلك ان بريطانيا وحكومات البلدان الانفة الذكر تتعهد بحماية اللبنانيين في معزل عن فرنسا ، شرط ان يعلنوا خضوعهم للسلطان ويعودوا الى الحظيرة العثمانية. وكان معنى ذلك ايضا ان حكومات الدول المذكورة عازمة على اخراج محمد علي حليف فرنسا ، من سوريا . الا ان محمد علي كان قد استعد اثناء ذلك كله على المقاومة . وكان هدفه الاول اخماد ثورة ابناء الجبل . ففي اخر شهر حزيران اوفد سليمان باشا على راس ١٥٠٠٠ جندي الى بيروت للذود عن الساحل كما حاول ارضاء الثوار باجابة بعض مطاليبهم فترك لهم اسلحتهم واعفاهم من اعمال السخرة في المناجم وعهد الى الامير بشير بابلاغهم هذين التنازلين . ولكن الامير لم يبذل جميع الجهود اللازمـــــة في مهمته (٣) .

وعلى الرغم من ان نفوذ الامير بشير كان قد تضاءل لدى اللبنانيين فقد كان الشخص الوحيد القادر على تهدئة روعهم واصلاح ذات البين بينهم وبين محمد علي باشا : كان نفوذه لا يزال قويا عظيما . ولكن الامير اكتفى بانتداب ابنه الامير امين لهذه المهمة . فاجتمع هذا ببعض زعماء الثورة وابلغهم نوايا محمد علي السلمية ، فلم يقتنعوا بذلك بل طالب

---

(١) ثورو دانجان ج ٤ ص ٢١٢ وما بعدها

(٢) مجلة العالمين، عام ١٨٤١ ، ليون فوشيه

(٣) موريه جزء ٤ ص ٢٨٢ وما بعدها

معظمهم بضمانة الدول الكبرى لكل اتفاق جديد (١).

ولم تتمكن الجيوش المصرية من اخماد الثورة الا في فلسطين ولا سيما في قضاء نابلس . وقد قام سليمان باشا في بيروت بهجوم عام على الثوار فانسحبوا الى الجبال ولكن سكان بيروت اعلنوا خضوعهم وقد تمكن الموارنة والدروز من ايقاف الجيش المصرى على الرغم من قلة المؤن التي كانت لديهم وكانوا لا ينفكون عن الاستنجاد بالانكليز (٢).

وفي ٢٤ تموز سنة ١٨٤٠ كتب المستر ريتشارد وود الى اللورد بونسونبي فقال ان الدروز هم في حالة تدعو الى اليأس الكلي . انهم يطلبون في كل يوم مساعدتنا ويعدون بان يهبوا جميعهم اذا ما اعطيناهم الوسائل اللازمة . وكل ما يطلبونه مؤن واسلحة ، ان السوريين يطلبون دائما مساعدة مباشرة من قبلنا " (٣) .

وفي ١٤ اب سنة ١٨٤٠ ، قبل ان تبلغ معاهدة لندن لمحمد علي ، وصلت الى بيروت بعض قطع من الاساطيل الانكليزية والنمساوية والتركية تحت امرة الكومندان الانكليزى السر شارل نابيير (٤) .

ولم يجرؤ سليمان باشا على اطلاق النار على اسطول الحلفاء فتمكن السر شارل من الاتصال باللبنانيين وتاييد حركتهم الثورية رغم ان هذه المهمة لم تكن ترقه شخصيا كما صرح بذلك في مجلس العموم فيما بعد (٥) .

وبفضل التشجيع الذى لقيه المستر ريتشارد وود من جراء وجود الاسطول البريطاني ، فقد كتب في ١٥ اب رسالة سرية الى الامير بشير وعده فيها بالاستقلال اذا ما قبل بالتخلي عن محمد علي (٦) . وكتب كذلك الى جميع زعماء الجبل وحوران يخبرهم بوصول الاسطول الحليف ويشجعهم على الثورة على المصريين وشن الهجوم عليهم . ومن جهة ثانية فان الباب العالي لم يقف مكتوف اليدين فقد اكد رشيد باشا في ٢٢ اب ، بناء على نصائح " اللورد بونسونبي " اكد في رسالة للامير بشير عفو السلطان عنه وصداقته له شرط ان يصرح

---

(١) موريه جزء ٤ ص ٢٨٣

(٢) " " " " ٢٨٥

(٣) " " " " مجلة العالمين عام ١٨٤١

(٤) مذكرات تاريخية ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩

(٥) تورو ـ دانجان جزء ٤ ص ٢٨٩

(٦) " " " " ١٨٤١

بانه ضد محمد علي باشا . وقدام اللورد بونسونبي المستروود بان يؤكد مضمون هذا الكتاب للامير بشير وان يعلمه بانه يجلب لنفسه عداوة الدول الاربع العظمى فيما اذا استمر في معاضدته لمحمد علي . واخيرا تدخل السر شارل نابيير مباشرة لدى الثوار في نداء وجهه اليهم ودعاهم فيه كما دعا سائر السوريين الى الثورة : " يا سكان لبنان ، يا من هم تحت ناظري اكثر من سواهم ، قوموا وانزعوا النير الذى ترتعدون تحت وطاته وستصل اليكم الجيوش والاسلحة والمؤن في اول يوم من القسطنطينية . ولن تعود البواخر المصرية بعد اليوم الى اهانة شواطئكم (١) " . وقد ناشد السر شارل في النداء نفسه الجنود المصريين بان يرموا اسلحتهم ويكفوا عن القتال وينتقلوا الى المعسكر الثاني مبينا لهم انهم جنود السلطان وان عليهم الا ينقادوا الى ثائر : " يا جنود السلطان انتم الذين انتزعتكم الخيانة من بيوتكم لكي تجروا فوق رمال مصر المحرقة ثم تنقلوا الى سوريا ، اني اناشدكم باسم السلطان المعظم ان تعودوا الى الخضوع اليه ، لقد وضعت سفينتين قرب المكان الذى ترابطون فيه لاستقبال الذين يضعون انفسهم منكم في حمايتي وان السلطان يضمن لكم بان ينسى الماضي بكامله ويسدد جميع رواتبكم المتاخرة ، وكذلك كل ما هو مستحق للجنود الذين سينضوون تحت لوائه " .

اما الانذار الذى تضمنته معاهدة ١٥ تموز فانه لم يبلغ لمحمد علي الا في ١٦ آب اى قبل وصول السفن الحليفة الى بيروت بيومين وبعد كتابة رسائل المستر ريتشارد وود والخطوات الاولى التي قام بها السر شارل نابيير لدى الثوار او بكلمة اخرى بعد ابتداء النزاع المفتوح . ذلك ان الانكليز كانوا يعرفون طمع محمد علي المتناهي وصلفه وشدته . فقدروا انه سيرفض الانذار ولا سيما اذا رافقت هذا الانذار تدابير وتعديات (كالتي قام بها المستر وود والسر شارل نابيير) تجعل قبوله عبارة عن اهانة تامة . فلم يكن امام الحلفاء في حالة الرفض المؤكد من قبل محمد علي الا الالتجاء الى القوة . وبالفعل فقد اجاب محمد علي غاضبا ساخطا لدى قراءة الانذار الانف الذكر : " لن اعيد الا بحد السيف ما اكتسبته بحد السيف " . فاسرعت اساطيل الحلفاء بجمعها الى الشواطيء السورية وكانت تتالف من عمارة بريطانية وبعض السفن النمساوية والتركية . فاعلن المصريون حالة الحرب في سوريا (٢) وفي ١١ ايلول سنة ١٨٤٠ انزل في خليج جونيه ١٠ الاف جندى

---

(١) موريبه جزء ٤ ص ٣٠٥ ، جوبلان ص ٢٢٧

(٢) موريبه جزء ٤ ص ٣٠١ وما يتبعها

تحت قيادة السر شارل نابيير من غير ان يتمكن المصريون من ردهم · وفي اليوم نفسه ابتدأ ضرب مدينة بيروت من قبل الاسطول الحليف ·

واستمر القصف ثلاثة ايام دون ان يتمكن الحلفاء من احتلال المدينة · ولو لم يتمكن الحلفاء من الاتصال بالثوار في خليج جونية ويوزعوا عليهم الاسلحة والذهب لانتهى هجومهم على بيروت بفشل تام (١) · وعندما بلغ قصف مدينة بيروت مسامع فرنسا ثارت ثائرتها · فالقيت في مجلس النواب خطب نارية طالب من القاها بتحطيم معاهدة ١٨١٤ و ١٨١٥ المهينة التي فرضتها الدول التي تحالفت ضد فرنسا كما طالبوا باستئناف الحرب في وجه اوروبا · كذلك انشدت المارسيلياز في شوارع باريس وعززت وزارة تيار بحريتها وصدر قانون يقضي بتحصين باريس للمقاومة في حالة هجوم اوربي كما الغيت جميع اجازات العسكريين وطلب ارسال جيش للرين لمعاقبة بروسيا والنمسا حليفتي انكلترا اللتين لم يكن لهما مصلحة في الشرق ولم ينضما الى بريطانيا الا لاهانة فرنسا · وقد قام في المانيا رد فعل شديد على ذلك تبعه تقارب بين حكومتي النمسا وبروسيا وعقد اتفاقية عسكرية بينهما في تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ كانت تستهدف فرنسا · وقد اعلنت بروسيا تعبئة جيشها واخذت تلوح في الافق امكانية وقوع الحرب ·

ولم يكن تيار يريد ذلك بل كان يحسب ان افضل وسيلة للحصول على حل سلمي موافق لمصالح فرنسا وكرامتها هو استخدام اسلوب حازم مع الدول والظهور بمظهر المصمم على القتال في حالة رفض مطاليبه ، ولم يكن الملك لويس فيليب كما لم تكن طبقة البرجاسية (البورجوازية) التي كانت تسيطر في فرنسا انئذ براضيين عن خلق نزاع مسلح ولا سيما مع انكلترا · وقد ضغط الملك على المسيو تيار ودفعه في سبيل التساهل والتنازل رغم الراى العام · وفي ٨ تشرين الاول وجه المسيو تيار مذكرة الى لندن اعلن فيها ان فرنسا لن تجعل من مسالة سوريا مشكلة · ولكن اذا حاول محاول انتزاع مصر من محمد علي بدلا من منحه ادارتها الوراثية فان فرنسا تتدخل بقوة السلاح لتاييده · واقترح المسيو تيار على لويس فيليب ان يطلب الى البرلمان الاعتمادات اللازمة لرفع عدد الجيش الى ٥٠٠ الف جندي وتجنيد ثلاثمائة الف حارس وطني عند اللزوم · ولكن الملك رفض ذلك وحمل تيار على تقديم استقالة وزارته · فخلفه المارشال سول من حزب السلام وقد عهد الى المسيو غيزو سفير فرنسا في لندن ، بوزارة الخارجية ، وكان هذا الاخير من انصار

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩

التفاهم الكلي مع بريطانيا . وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ ، اعلنت الوزارة في المجلس انها تسعى الى السلام ، وقد اخذ عليها المسيو تيار وانصاره انها تريد السلام باي ثمن " ان حكومة ٢٩ تشرين الاول تريد سلما اكيدا وهي واثقة من انها ستجده " . وقد ظهر فيما بعد ان فرنسا كانت قد تخلت عن محمد علي .

ويظهر ان اللورد بالمرستون كان مطلعا على استعدادات الملك لويس فيليب السلمية . لذلك اعطى امره الى الاميرال ستوبفورت الذى كان يقود الاسطول الحليف المرابط امام بيروت والى السر شارل نابيير لمتابعة الهجوم بشدة على المصريين فضربت طرابلس ودمرت ثم هوجمت جبيل والبترون وغزير فتم احتلال كل الشاطئ اللبناني وهزم المصريون في كل مكان (١) . وقد اضطر ابراهيم باشا الى اخلاء شرقي وشمالي سوريا لتامين الدفاع عن الساحل وللمحافظة على مواصلاته مع مصر ، وقد وجد ابراهيم باشا في مركز حرج وسط شعوب معادية ثائرة وعلى راس جيش ينقصه الغذاء والملبس والعناية الصحية وهو فوق ذلك ساخط على رؤسائه لانه لا يقبض اجرا . وكان اكثر جنوده ولا سيما السوريين على استعداد لتركه والالتحاق بالمعسكر الثاني ، وقد اراد ابراهيم باشا قبل مهاجمة الحلفاء اخماد الثورة اللبنانية ولكنه فشل تماما (٢) . وقد قسم جيشه الى ثلاثة اقسام : الاول لمقاومة غارات ابناء الجبل ، والثاني قاده بنفسه الى بيت شباب وحاول ان يتقرب من الامير بشير الذى لم يكن يحرك ساكنا في بيت الدين ، اما القسم الثالث فكان بقيادة سليمان باشا يرابط عند ابواب بيروت لمنع الحلفاء من احتلال المدينة . اما عثمان باشا فقد احتل موقع ميروبا لقطع المواصلات مع الساحل من الثوار في كسروان وقد هزمت جميع هذه القوات . ففي ٤ تشرين اول قام ابناء الجبل بقيادة الشيخ فرنسيس الخازن والامير بشير ابن قاسم شهاب وكان حفيدا للامير بشير بمهاجمة عثمان باشا في وطا الجوز بشدة فائقة وكان الجنود السوريون في الجيش المصرى يتركون الجيش المصرى ليلتحقوا باللبنانيين . وقد اضطر عثمان باشا الى الهرب ولم يسلم من جنوده الستة الالاف سوى الف وانوه في بعلبك (٣) . وهكذا تخلص شمالي لبنان من الجيوش المصرية فاتصل ثوار كسروان بالشاطئ ووقفوا بين بيروت وبين الفرقة التي كان يقودها ابراهيم باشا بنفسه في بيت شباب فعزلوه واياها ، وكانت تضم خمسة الاف رجل . وقد صمم السر شارل نابيير على مهاجمته فجاة على راس بضعة الاف من اللبنانيين والقوات العثمانية .

---

(١) موريه جزء ٤ ص ٣١٠ وما يتبعها

(٢) موريه " " " ٣٢٢ "

(٣) الشدياق ص ٦٠٨ وما بعدها

وكان الامير قاسم النجل الاكبر للامير بشير قد التحق برجال الثورة . وقد حال الامير قاسم بالتعاون مع عدد من اللبنانيين دون وصول نجدة مصرية استقدمها ابراهيم باشا من زحلة . وفي ليلة ٩ ـ ١٠ تشرين الاول تمكنت اربع كتائب عثمانية من تسلق الجبال المسيطرة على مواقع ابراهيم باشا وتصفها بنيران حامية وادخال الرعب والفوضى الى صفوف المصريين ، فقاوم هؤلاء مقاومة يائسة ثم لم يلبثوا بعد مضي اربع ساعات الا ان انسحبوا الى مغاور كسروان الموحشة . وقد اسر اللبنانيون ٨٠٠ جندي واضطر ابراهيم باشا الى الهرب بصعوبة مع بعض الخيالة الى بعلبك . وكانت هذه المعركة حاسمة ففي مساء اليوم نفسه احتل الاميرال ستوبفورت بيروت التي كانت قد انحطت معنويات حاميتها كما ان قسما من قوات سليمان باشا استسلم للانكليز بينما شتت شمل الباقي بعد ان خسر مدافعه وحوائجه وقد وصل سليمان باشا الى بعلبك وحده تقريبا (١) . كذلك كانت صيدا قد سقطت بعد ان دافع عنها حسن باشا دفاع الابطال ، وفي اخر شهر تشرين الاول عام ١٨٤٠ لم يكن قد بقي للمصريين على الساحل سوى عكا . وقد حملت هذه الهزيمة الامير بشير على ترك قضية حليفه محمد علي وبدأ يتفاوض مع الاميرال ستوبفورت منذ اوائل تشرين الاول ، وكذلك مع السر عسكر عزت باشا الذى كان قد عين من قبل الباب العالي حاكما عاما على سوريا . وقد وقع الامير بشير بعد هزيمة وطا المجوز بيوم واحد مع ستوبفورت والسرعسكر اتفاقية اعترف فيها بسيادة السلطان عبد المجيد وتعهد بخدمته بامانة شرط ان لا تمس حياته بسوء وان يحافظ على جميع ممتلكاته . ولكن الامير بشير اعتذر عن الاشتراك في القتال بحجة ان قوات ابراهيم باشا تسد عليه الطريق ووعد بان يرسل اثنين من ابنائه رهينين (٢) .

ولكن الحلفاء لم يكونوا ليرضوا بذلك لان الامير بشير كان يتمتع بنفوذ كبير في لبنان وكذلك خارج لبنان فحرصوا على كسبه . وقد اكدوا له ابقاء لقب امير الجبل على الرغم من موقفه عام ١٨٣١ ووقوفه طويلا الى جانب محمد علي . وقبل ان يتمكن الامير من اتخاذ قرار نهائي التحق نجله الاكبر قاسم بالحلفاء وقاد فريقا من ابناء الجبل . وعندما راى الحلفاء ان

---

(١) موربيه ج ٤ ص ٣٣٢ وما يتبعها

(٢) " " " " ٣٣٤ " "

لا طائل من وراء محاولاتهم في سبيل اكتساب الامير بشير ، اعلنوا عزله من امارة الجبل . الا ان الامارة لم تمنح الى ابنه الاكبر قاسم بل الى الامير بشير ملحم قاسم شهاب حفيد الامير ملحم ، احد اوائل زعماء الثورة اللبنانية . وقد قاد اللبنانيين في وطا الجوز . هذا وان الانكليز والعثمانيين لم يعد لهما ثقة في ابناء الامير بشير الكبير .

وعندما بلغ الامير بشير نبأ عزله ، توجه بصحبة عائلته وبعض افراد حاشيته الى احد المعسكرات الحليفة على الرغم من دعوة ابراهيم باشا له لموافاته في بعلبك . وقد وصل صيدا في ١٩ تشرين الاول وكان الاميرال ستوبفورت حينئذ في بيروت فانتقل اليها راسا ليضع نفسه تحت رحمة المنتصر وكرمه . فاستقبله الاميرال الانكليزي وممثل الباب العالي خليل باشا بالاحترام ولكن افهماه بانه لا يمكن ان يبقى في لبنان بعد اليوم فاحتج بادىء الامر وذكر الحلفاء باتفاقية تشرين الاول وبوعودهم له ولكن عبثا . فلم يعطوه الا حرية اختيار مكان اقامته او مكان نفيه باستثناء فرنسا ومصر . فطلب اولا نقله الى روما ولكن الاميرال الانكليزي افهمه ان عليه ان يختار بين جزيرة مالطة وانكلترا . فاختار الاولى وانتقل اليها هو وعائلته وعدد كبير من رجال حاشيته في ١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ (١) .

وقد اقام فيما بعد في القسطنطينية حيث توفي عام ١٨٥٠ وقد بلغ من العمر ٨٧ سنة ، محاطا باحترام العثمانيين .

ادرك ابراهيم باشا حينئذ انه خسر عالي سوريا ولبنان نهائيا فحاول ان يعيد تنظيم جيشه في بعلبك بعد ان انهكته الحروب وفتكت به الامراض والخيانات واصبح لا يعد سوى عشرين الف مقاتل (٢) .

وكانت الحكومة الفرنسية قد عدلت عن فكرة التدخل المسلح لمصلحة محمد علي باشا ولم يعد غيزو يعتمد الا على مفاوضاته الدبلوماسية مع اللورد بالمرستون لتامين ادارة مصر لمحمد علي على الاقل . فلم يلق في لندن استعدادا طيبا . وقد جاء في مذكرة وجهها اللورد بالمرستون في ٣١ اب سنة ١٨٤٠ الى الدول الحليفة " ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية لديها من الاسباب ما يجعلها تعتقد ان ممثل فرنسا في القسطنطينية

---

(١) بوريه ج ٤ ص ٢٢٨ ، ٢٢٥ وما يتبعهما ، راجع ايضا مذكرات تاريخية ص ٢١٧

(٢) " " " " ٢٢٥

قد عزل فرنسا بصورة واضحة عن الدول الاربع الكبرى ، فيما يتعلق بالقضايا التي تتعلق بها هذه المذكرة ، واستعجل كثيرا وعدة مرات الباب العالي للتفاوض مباشرة مع محمد علي لعقد اتفاق مع الباشا ، ليس فقط بدون تعاون الدول الاربع الكبرى ، ولكن بتوسط فرنسا فقط ووفاقا لاراء الحكومة الفرنسية الخاصة (٢) ٠

وفي ٢٦ كانون الثاني سنة ١٨٤١ ، القى اللورد جون رسل ، في خطاب له في مجلس النواب البريطاني ، كل التبعة في هذه الازمة على المسيو تيار ٠

وخلاصة ما ذكره : اولا ليست اوروبة هي التي انفصلت عن فرنسا بل ان فرنسا هي التي انفصلت عنها ٠ ثانيا ان هذا الانفصال لا يبرر مطلقا شتائم الحكومة الفرنسية وتهديدها للسلام الاوروبي بتسلح واسع المدى ٠ ثالثا ان الحكومة الفرنسية باعتبارها ما يمكن ان يروق او يرضي الاسكندرية فقط بدلا من اعتبار ما يشرف القسطنطينية قد حولت عمليا الى محمد علي الود الذي سبق ان اظهرته نحو السلطان (٢) ٠

وهكذا نرى ان الحكومة البريطانية رفضت سلوك سبيل التفاهم والتسوية لانها كانت تريد اجبار فرنسا على التزام جانب الصمت وعدم تحريك ساكن الى ان تتم هزيمة محمد علي نهائيا ٠ وكانت واثقة من ان هذه الهزيمة ستتم قبل حلول الشتاء ٠

وقد حتى حزب المحافظين واعضاء الحكومة في مجلس النواب الفرنسي رؤوسهم وقبلوا مقترحات اللورد بالمرستون ٠ ولقي هذا الموقف مؤيدين كثيرين في المجلس الفرنسي وقفوا جميعهم في وجه مسيو تيار (٣) ٠

وكانت اسوار عكا اخر حصن بقي لمحمد علي اذ لم يكن بالامكان اختراقها قبل انتهاء الشتاء ٠

وهكذا كان يعتقد انه ستتوفر له الوقت الكافي في سبيل اعادة تنظيم جيشه وتشييد الحصون في فلسطين ٠ ولعل الدبلوماسية الاوروبية تتمكن في هذه الاثناء من ايجاد سبيل للتفاهم ٠ (٤)

---

(١) مجلة العالميق عام ١٨٤١ ، ليون فوشيه

(٢) " " " " " " "

(٣) جوبلان ص ٢٣٩ نقلا عن Le Moniteur t.XXVII et Les Mémoires de Guizot

(٣) شورو دانجان جزء ٤ ص ٣٧٢ وما يتبعها ٠

ولكن عكا استسلمت بعد مقاومة طفيفة قصيرة . وبسقوطها لم يعد في سوريا اى معقل او حصن اخر لابراهيم باشا .

وكان ابراهيم باشا عازما على الاحتفاظ بزحلة وبعلبك ولكن الامير بشير قاسم ملحم اقام في حمانا على راس عدد كبير من اللبنانيين على بعد ٤ فراسخ من المعسكر المصرى . وكان ابناء الجبل جميعهم تقريبا قد حملوا السلاح في وجه محمد علي وبداوا حرب عصابات ضد قواته ، مرهقينها بهجماتهم المتواصلة ومانعين وصول المؤن والاغذية اليها ومحطمين مراكزها الامامية . فامر الباشا بالانسحاب الى دمشق حيث كان يود حشد جميع جيوشه في الشمال واستئناف الهجوم على الحلفاء .

ولكن صادف الانسحاب طقسا رديئا . وقد تفشت الديزنتاريا في الجيش المصرى ومرض ابراهيم باشا وسليمان باشا انفسهما . ولحق الامير بشير قاسم بالجيش المصرى مرهقا اياه . ولقد ان سبقه الى الحولة اراد ان يسرع الى حوران لاثارة الدروز والاحاطة بالمصريين في دمشق . ولكن ابراهيم باشا تمكن في ليلة ٢٦ ـ ٢٧ تشرين الثاني ١٨٤٠ على راس بضعة الاف من الفرسان ، من مفاجاة اللبنانيين قرب قرية سعسع واعمل فيهم الذبح . ولم يتمكن من النجاة منهم سوى الامير بشير ملحم وبعض رفاق له (١) .

وتمكن ابراهيم باشا من حشد ٢٥٠٠٠ مقاتل نظامي في دمشق وثلاثة الاف مقاتل غير نظامي وبضعة الاف خيال و ٢٨٠ مدفع . وكان ذلك كافيا لمقاومة الجيش العثماني الضعيف وغير المنظم ، وبعض القوات البريطانية التي انهكها الجو والمناخ . غير انه بعد سقوط عكا لم يعد لابراهيم باشا اية نقطة ارتكاز على الساحل اللبناني ولم يعد له قاعدة للعمليات العسكرية كما ان طرق مواصلاته مع مصر اصبحت مهددة او اصبحت صعبة على الاقل . وكان الشتاء قاسيا جدا والجبال مكسوة بالثلوج والامطار تهطل غزيرة باستمرار . وقد افتقر الجيش المصرى الى الخيام فكان قسم كبير من افراده ينامون في الاوحال الباردة . وكما ان المؤن كانت مفقودة والجنود السوريو الاصل يتفننون في اساليب الهرب .

ومع ذلك فان ابراهيم باشا لم ييأس بل وجه على عكا طابورا من خيرة جنوده عبر لبنان . ولكن اللبنانيين سدوا له الطرقات وحالوا دون تنفيذ خطته (٢) .

---

(١) موريبه ج ٤ ص ٣٦٩

(٢) موريبه " " ٣٧١

عند ذلك تلقى ابراهيم باشا من ابيه امرا باخلاء سوريا . ومما ساعد على استسلام محمد علي بعض التطور في السياسة الانكليزية . وذلك ان اللورد بالمرستون علم ان القيصر نقولا الاول ارسل الكونت دي ليافن الى القسطنطينية في مهمة فوق العادة لاعلام السلطان بان ثمانين الف جندي روسي قد حشدوا في اوديسا وانهم على اتم الاستعداد ليكونوا تحت تصرفه (١) . وكان ذلك بمثابة محاولة جديدة من قبل القيصر لوضع السلطان تحت وصايته بعقد اتفاقية كريمة . الا ان جهود بالمرستون كانت ترمي الى الحؤول دون وضع يد الروسيا على القسطنطينية . وكان يخشى ان يمل السلطان من مقاومة ابراهيم باشا ويسعى الى انهاء هذا القتال في اقرب وقت ممكن ، فيقبل عروض القيصر ويفتح للفرق الروسية ابواب اسيا الصغرى وسوريا . فامام هذه الامكانية المخيفة قرر الوزير البريطاني العدول عن الانذار الذي تضمنته معاهدة ١٥ تموز عام ١٨٤٠ وعرض شروط مشرفة على محمد علي . وقد تم في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ بين السر شارل نابيير ومحمد علي اتفاقية تعهد فيها محمد علي باخلاء سوريا واعادة الاسطول العثماني شرط ان تضمن له الملكية الوراثية لمصر والسودان الشرقي . وقد قام السر شارل نابيير بالمفاوضات وبتوقيع الاتفاقية من تلقاء نفسه اعتمادا منه على ما يعرفه شخصيا من نوايا حكومته واهدافها . لذلك لم يقبل بها اللورد بالمرستون الا بصعوبة . فاستدعى محمد علي ابراهيم باشا الى مصر فوصل على راس خمسين الفا تقريبا الى القاهرة في كانون الثاني وشباط سنة ١٨٤١ (٢) .

وعندما انتهى امر القوات المصرية في سوريا وزال خطر التدخل الروسي المسلح ، انصرفت بريطانيا الى مقاومة النفوذ الفرنسي في الشرق . فقد حاول اللورد بونسونبي ، سفير بريطانيا في القسطنطينية ، ان يحمل الباب العالي على رفض الشروط التي منحت لمحمد علي . وقد تساءل اللورد بالمرستون اذا ما كان محمد علي وخلفاؤه ، بسبب علاقاتهم بفرنسا ، لا يكونون خطرا دائما على انكلترا . وقد فكرت بريطانيا في وقت من الاوقات بنقض الاتفاقية التي وقعها باسمها السر شارل نابيير واستئناف القتال ضد محمد علي واحتلال مصر . فلم توافقها على ذلك بقية الدول وقد عارضت النمسا في متابعة

---

(١) موريه ج ٤ ص ٣٢٧

(٢) " " " ٣٧٢ ، راجع ايضا مذكرات تاريخية ص ٢١٩ ــ ٢٣٣

الحرب • وكان السيد مترنيخ سعيدا بعودة المحافظين والسيد فيزو على الخصوص الى دست الحكم في فرنسا • فلم يكن يريد ان يعطي للاحزاب الجمهورية وسواها حجة لازاحتهم وقد اعرب عن رغبته الملحة في عقد اتفاق يضع حدا للنزاع في الشرق ويسمح لفرنسا بالتفاهم مع الدول الاوروبية •

فاضطر اللورد بالمرستون للرضوخ ووافق على ترك مصر لمحمد علي كما وافق السلطان على اتفاقية نابيير • وفي ١٢ شباط عام ١٨٤١ صدر فرمان منحت بموجبه لمحمد علي الملكية الوراثية لمصر ، والنوبة والسنار وكردوفان ودارفور • وتعهد ان لا يزيد في المستقبل جيشه ولا اسطوله من غير اذن السلطان وان يدفع الضريبة سنوية • وقد ترك للسلطان حق تعيين الضباط المصريين فوق درجة كولونيل • وقد فرضت انكلترا هذه الشروط الاخيرة لانها كانت تريد الحؤول دون تاليف قوة عسكرية كبيرة في مصر ، على مقربة من السويس وطريق الهند وان تكون لها يد ، بواسطة السلطان ، في تسيير دفة الجيش المصري •

بعد ذلك جرت مفاوضات بين فرنسا والدول الاربع الكبرى ادت الى الغاء معاهدة ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ وعقد معاهدة عامة لانهاء "المسالة السورية" بالاتفاق مع فرنسا •

وفي ١٠ تموز سنة ١٨٤١ اجتمع مندوبو فرنسا والروسيا وبروسيا وانكلترا والنمسا وتركيا في وزارة الخارجية في لندن وصرحوا رسميا في بروتوكول خاص ان الصعوبات التي حالت حتى الان دون تحالفهم قد ذللت وان اتفاقية ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ لم يعد لها موجب • وبعد ثلاثة ايام وقع البارون دي بوركنيه ممثل فرنسا بامر من حكومته ، اتفاقية جديدة • وهذه الاتفاقية هي المعروفة باتفاقية المضايق المؤرخة في ١٣ تموز سنة ١٨٤١ والتي اعترفت لتركيا بحق منع دخول البوسفور للسفن الحربية لجميع الدول (١) • وقد اعترفت فرنســـــا بموجب هاتين الوثيقتـــــين الدبلوماسيتين بوضع محمد علي الجديد الذى حددته اتفاقية نابيير • فكان ذلك انتصارا للسياسة البريطانية •

وقد [illegible] طوال
[illegible] ١٨٢٧ وقد ادت حملة نابوليون [illegible]

---

(١) تيمبتا ج ٣ ص ٢٠ وما بعدها •

مارتنز ج ٢ ص ١٢٨ وما بعدها

والحقيقة ان اتفاقية المضايق الغت ضمنا معاهدة خونكاراسكلة سي التي منحت للاساطيل الروسيةحق الملاحة في البوسفور والدردنيل ، كما ضيقت حدود الامبراطورية المصرية واوقفت توسع محمد علي فارجعته الى حدود ولايته ، كذلك اصبح الباب العالي تحت تاثير العملاء البريطانيين فاكتسبت بريطانيا في سوريا النفوذ الذي كانت تطمع اليه منذ اكثر من ربع قرن .

وقد اصاب فرنسا فشل عظيم وتاثر بذلك نفوذها في الشرق الى حد كبير .
ومنذ هذا التاريخ بدأ يتزايد النفوذ البريطاني في الشرق وينافس النفوذ الفرنسي الى حد كبير جدا (١) .

القسم الثاني
مذابح عام ١٨٤١ في الحقل الدبلوماسي

عندما قطع الدروز كل امل في ابعاد الامير بشير قاسم بالوسائل السلمية المشروعة لجاوا الى الثورة عليه (٢) . واغلب الظن انهم لاقوا تشجيعا في سبيل ذلك لدى سليم باشا وسائر المسؤولين الاتراك (٣) . والواقع ان الثورة او القلاقل كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تفتح امام السلطات التركية باب التدخل في لبنان ، على مصراعيه ، لان الدول الاوروبية كانت تقف لها بالمرصاد وقد انتهز بعض مشايخ الدروز فرصة احد الاجتماعات التي كانت تعقد لتوزيع الضرائب فتداولوا فيما بينهم وقرروا الهجوم الفجائي على المعارضة وانصار الامير بشير قاسم . ولكي يضللوا الامير بشير قاسم فقد طلبوا اليه : " اصدار الاوامر الى الباقين من المشايخ بالاجتماع للتفاوض بمسالة الضرائب المذكورة والقطع بها " . فلم ينتبه الامير بشير قاسم الى هذه الحيلة بل اجابهم الى سؤالهم ، واوعز الى : " هؤلاء الاخيرين بالاجتماع نهار الاربعاء " . وكان ان كتبوا الى رجالهم الدروز في اليوم السابق يدعونهم اليهم . وفي صباح الاربعاء وصل الخبر الى دير القمر بان القوات

---

(١) مجلة العالمين عام ١٨٤١ ، اتفاقية ١٣ تموز وموقف فرنسا الحالي
(٢) المحررات ج ١ ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٩٦
(٣) " " " ٧١ و ٧٣ و ٧٦

الدرزية اضحت متاهبة "٠ فاتى اهالي دير القمر الامير بشير قاسم " : " واوضحوا له عدم موافقة استقبال الجماهير المذكورة في المدينة متوقعين شرا من وجودهم لان المشايخ المذكورين يضمرون العداء " ٠ فاستصوب الامير رايهم وارسل : "في الحال اوامر صريحة الى المشايخ المذكورين ليوافوه الى عين السوق ، لكن المشايخ المذكورين ظلوا يتقدمون مع اتباعهم " فانفذ اليهم " الشاب الامير محمود لابلاغهم عدوله عن الاجتماع بهم ورغبته بان لا يعقدوا هذا الاجتماع اتقاء سوء مغبة وجود قواهم في دير القمر فوقفوا خارج المدينة وفي خلال ذلك دخل المدينة مشايخ بني نكد وغيرهم من مشايخ الدروز مصحوبين بعدد غفير من اتباعهم الذين كانوا تسللوا ليلا الى حي الدروز وبداوا بالاعتداء على الاهالي في الاسواق وناجاوا عدة عائلات في بيوتها ودمروا مقتنيات المسيحيين وحرقوا دورهم وحوانيتهم وقتلوا الاشخاص الذين وجدوهم فيها وهم عزل من السلاح ومن كل الوسائل ٠ وقد بدأ هذا الهجوم بعد ظهر نهار الاربعاء واستمر حتى خيم الليل ٠ وكان الدروز قد استولوا على معظم المدينة فدافع المسيحيون عن حوزتهم وتمكنوا من صد اعدائهم واخراجهم من وسط المدينة قبل ان يداهمهم الليل "٠ وقد اشترك رجال الامير بشير قاسم "في هذه الواقعة فقتل منهم اثنان وجرح بعضهم " فرأى ان يامرهم "بالانسحاب وبالمحافظة على السراي معه وان يكونوا قيد الاستعداد ليذودوا عن انفسهم ٠ وكان العدو يضيق عليهم حلقات الحصار من كل جانب ٠" "ومن الغد عند بزوغ فجر الخميس استؤنف القتال واستمرت رحاه دائرة حتى اخر ذلك اليوم وظلت سحابة نهار الجمعة بكاملها يضا حتى ظهر السبت " ٠ وقد حاول الامير بشير قاسم " دعوة الفريقين الى السلام اصلاحا لذات البين ان بالمكاتبة وان بالعلاقات ولكن على غير جدوى " ٠ (١)

وقد قامت جماعات اخرى من الدروز فخربت عدة قرى مسيحية بعد ان ذبحت اهلها ٠

كذلك هب الموارنة للثار فامتدت المذابح هكذا الى شتى انحاء الجبل حتى ان دوي الرصاص كان يصل الى مسامع قناصل اوروبا ومحمد سليم باشا في بيروت (٢) ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٦٣ ــ ٦٤ ــ ٦٥ ، تيستا ج ٣ ص ٩٣ (كتاب الامير بشير الى القنصل البريطاني في دمشق المستر وود تاريخ ١٨ تشرين اول سنة ١٨٤١ الصادر عن دير القمر

(٢) تيستا ج ٣ ص ٩٣

و   ولم يلبث ان وصل رسل المسيحيين من الجبل يحملون اوفى التفاصيل الى قناصل الدول في بيروت عن الاضطرابات التي وقعت في دير القمر مناشدينهم التدخل لحمايتهم (١)٠ فتقدم القناصل فورا بالاحتجاجات الشديدة وطلبوا الى المسؤولين الاتراك اتخاذ التدابير الفعالة لوقف هذه الاضطرابات (٢)٠

فاكتفى محمد سليم باشا بايفاد ايوب باشا ، احد كبار ضباطه ، الى دير القمر للتحقيق والعمل على اعادة الامن الى نصابه ٠ ورافقه الكولونيل روز قنصل بريطانيا العام في بيروت ، فوصلا دير القمر ظهر السبت بينما كانت رحى المعركة دائرة بعنف شديد ، فتوقف الجانبان فورا عن اطلاق النار وتمكن الوسيطان من عبور خطوط النار والوصول الى السراى حيث كان يقيم الامير بشير قاسم ٠ فتباحثا معه في الامر واصدروا جميعا "الاوامر المتوالية لتهدئة الهياج وبنوع خاص الى المحاصرين والى قاطعي طرق المواصلات والابتعاد والاخلاد الى السكينة متخذين وسائل اخرى لاجل نشر رايات الامان ٠٠٠ وكان الدروز قد قطعوا السبل المؤدية الى دير القمر وداهموا المدينة على حين غرة حؤولا دون مجيء المسيحيين الى مساعدة ابناء دينهم ٠ وقد انهالت على مسيحيي دير القمر الاضرار وخسروا الخسائر الباهظة "٠٠٠ ثم كان ان امتدت عاصفة الهياج الى سائر اقضية لبنان وحرق الدروز قرى ودساكر المسيحيين فقابلوهم بالمثل "٠ وقد بذل الامير بشير قاسم اقصى ما في وسعه " لاخماد النار وقمع ثورة اهالي هذا الجبل ، فامر زعماء الدروز والمسيحيين بالانسحاب مع قواهم والتوقف عن كل حركة عدائية "٠ وقد طلب الامير بشير قاسم الى ايوب باشا "حضور فرقة من الجند " للمحافظة على النظام فتوجه الى بيروت لمراجعة الوالي ٠ واذا كان الهدوء النسبي قد عاد الى دير القمر فان الدروز والنصارى كانوا يصطدمون في اكثر انحاء الجبل (٣) ٠ وكان الاضطراب يزداد يوما بعد يوم ٠ فجدد قناصل الدول في بيروت احتجاجاتهم الملحة لدى محمد سليم باشا في سبيل اعادة الامن والمحافظة على مصالح رعاياهم ، وفي ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٤١ وجه المستر

---

(١) المحررات جزء ١ ص ٢٣

(٢) " " " " ٧٥ ـ ٧٨

(٣) " " " " ٦٩ و ٧٠ و ٧٢ و ٧٤

ريتشارد وود الى سليم باشا والي صيدا رسالة لفت نظره فيها الى الامور التالية (١)٠
اولا "ان هذه الحرب الاهلية مسالة تامة التنظيم ومرماها بعيد لان فروعها ممتدة من جنوب سوريا الى شرقيها"٠

ثانيا "ان المقاومة الشديدة التي يبديها المسيحيون لحفظ مركزهم وسيطرتهم في جبل لبنان من شانها اطالة هذه الحرب الاهلية مما يمهد السبيل لاعداء الباب العالي ان يستاصلوا سلطته من تلك الولايات"٠

ثالثا " لما كانت كل البلاد في حالة تقرب من الثورة وليس لدى الحكومة سوى قوة صغيرة لارهاب السوريين فارى من الحكمة ابقاء هذه القوة غير مشتبكة في القتال ٠٠٠ فهذا الحياد يجعل دولتكم في موقف اكثر موافقة للتوسط ٠٠٠"

لذلك نرى محمد سليم باشا يكتفي ، هذه المرة ايضا ، بالتدخل المعنوى مدعيا الحرص على استقلال لبنان الذاتي قدر الامكان ٠ فاوفد اثنين من كبار ضباطه هما سليم بك ومحصل اغا لتقريب وجهات النظر بين الفريقين المتخاصمين وحمل جميع ابناء الجبل على تسليم اسلحتهم (٢)٠ كذلك توجه سليم باشا الى الشويفات بصحبة قناصل بريطانيا وفرنسا والروسيا لتهدئة الخواطر (٣) ٠

وقد طاف الضابطان العثمانيان على زعماء الفريقين المتنازعين فابلغاهم اوامر السلطان بضرورة تسليم اسلحتهم ٠ واعدين اياهم مقابل ذلك بحماية ارواحهم واموالهم وشرفهم ٠ فرضخ الموارنة وسلموا ما لديهم من اسلحة ثم اخذوا يعودون الى دورهم (٤) ٠ وظن الامير بشير قاسم ان السلام قد عاد الى البلاد فغادر دير القمر مع عدد قليل من افراد حاشيته متوجها الى بيت الدين " ٠ الا ان السلطات العثمانية لم تنجح لا لدى الدروز ، اذ استمر الدروز في " مهاجمة المسيحيين والاعتداء عليهم خارج المدينة ٠ " فلما كان سعادة الاميرالكبير يغادر دير القمر مصحوبا ببعض المسيحيين

---

(١) المحررات ٦٧ ـ ٦٩
(٢) تيهيتا ج ٣ ص ١٠١ وما بعدها ، المحررات ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٨
(٣) المحررات ج ١ ص ٧٦
(٤) المحررات ج ١ ص ٧٣ و ٧٤

انقض الدروز على حاشيته القليلة العدد نسلبوها اشياءها واساؤا معاملة افرادها ومنعوهم من اللحاق بسعادته ولم يسلم هو من اعتدائهم مع انه يحمل الوسامات المنعم عليه بها من الحضرة السلطانية . وعندما راى الموقعون ادناه ان سلوك الدروز مخالف للوعود تيقنوا انهم قد خالفوا اوامر صاحب الدولة سليم باشا الرغب في استتباب الراحة والسكينة الانف من خفر ذمة العهود المعطاة . وتحقق اذ ذاك للموقعين ان الدروز سيدخلون بدون ريب دير القمر لذبح المسيحيين الذين امسوا عاجزين عن المقاومة لسبق تسليم اسلحتهم فاتووا رايا على رفع عريضة الى صاحب الدولة سليم باشا يلتمسون فيها ان يامر بارسال الجنود التركية لانقاذ المسيحيين الموجودين في دير القمر ويتولى خفارتهم حتى بيروت بما ان بيوتهم حرقت وامسوا بلا مال ولا قوت ولم يبق مسيحي في المدينة يملك شروى نقير " (١).

وعندما قصد سليم بك ومحصل اغا الى الدروز لنزع اسلحتهم اسروهما واساؤا معاملتهما ثم قادوهما الى دير القمر حيث جمعا اسلحة المسيحيين وسلما المدينة للدروز .

ثم انطلق الدروز ، بحضور الضابطين التركيين في اعقاب الامير بشير قاسم فانقضوا على حاشيته الضعيفة نازعين سلاحها تماما ومفرقين شملها ثم اسروا الامير الشهابي بعد ان انتزعوا ثيابه واسلحته ، ولم يكن محمد سليم باشا اوفر حظا من ضابطيه . فقد جمع عددا من زعماء الدروز في الشويفات فخطب فيهم بحضور قناصل الدول مناشدا اياهم الكف عن القتال وواعدا بدرس شكاويهم وانصافهم . كذلك ذكرهم بواجباتهم نحو السلطان . فاعرب الدروز عن خضوعهم واقسموا بان يلقوا سلاحهم ، لكنهم لم يلبثوا ان استانفوا القتال قبل مغادرة محمد سليم باشا المنطقة . وقد ظلت الاضطرابات طوال شهر تشرين الثاني . وعندما تجاوزت اعمال التقتيل والتدمير والتخريب جميع الحدود الى درجة ان القتال كان يجري على بعد فرسخ فقط من مدينة بيروت وعلى [illegible] مراى ومسمع من احد معسكرات القوات النظامية التركية ، اضطر موارنة دير القمر الى توجيه نداء خاص الى محمد سليم باشا لايفاد قوات نظامية تنقذهم من الموت المحتم وتقودهم

---

(١) المحررات ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٥ (عريضة مسيحيي دير القمر الى قناصل الدول في ٥ تشرين الثاني عام ١٨٤١) .

الى بيروت . الا ان الباشا لم يرسل قواته الى الجبل بل اكتفى بارسال الاسلحة الى الموارنة ليتمكنوا من الدفاع عن انفسهم كما اعطى الاوامر المشددة لمنع تزويد الدروز بالعتاد الحربي . الا ان اوامره لم تنفذ الا في ولاية بيروت . (١)

وقد كان حظ الموارنة سيئا في كل مكان تقريبا وكانت القوات التركية تقصر في واجب حمايتهم بل كانت بعض الاحيان تشترك في المذابح (٢). ومع ذلك فقد اعتقد محمد سليم باشا بامكانية عودة السلام الى ربوع الجبل بينما كانت الحرائق تجرى على ابواب بيروت نفسها . ورغم ذلك فقد اصدر اوامره الى اللاجئين من دير القمر بالعودة الى قريتهم (٣) . هذا وان الاضطرابات لم تلبث ان شملت زحلة وحاصبيا وراشيا . بل ان موارنة كسروان انفسهم باتوا مهددين بهجمات درزية ، وكان الامل الوحيد لدى موارنة لبنان تدخل اوروبا . لذلك قدم بطريرك الموارنة بنفسه الى بيروت وقابل قناصل الدول وسالهم عما اذا كانت الحكومة التركية راضية عما يجرى او هي عاجزة عن اعادة الامن (٤) . فاعترف القناصل بضرورة القيام بعمل مشترك حازم فقدموا المذكرة المعروفة الى محمد سليم باشا في اخر شهر تشرين الثاني فاتوا فيها على شكاويهم المتعلقة بالدروز وشكوكهم الخاصة بالسلطات العثمانية . وقد اخذوا على " الحكومة انها لم تات عملا يدل اهل لبنان على نياتها بخصوص القتال الناشب الان بينهم ولم تعلمهم ارادتها فان زعماء الدروز اخذوا يؤولون سكوتها وتقاعدها عن العمل الى تنشيطهم لتسليح الاهلين ومداومة الحرب الاهلية ".

ولقد ذكر القناصل في مذكرتهم ان تركيا امدت المسيحيين في دير القمر بالذخائر بدلا من المحافظة على ارواحهم بنفسها ولكن الدروز تلقوا الامدادات من دمشق "رغما عن تنبيه القناصل المقيمين في هذه المدينة وصاحب الدولة نجيب باشا تكرارا الى

---

(١) المحررات ص ٧٥ ـ ٧٨ (مذكرة مشتركة من قبل قناصل فرنسا وبريطانيا والروسيا في بيروت الى سليم باشا تاريخ تشرين الثاني سنة ١٨٤١) .

(٢) المحررات ص ٧٥ ـ ٧٨ جزء ١ ، تيمبتا ج ٣ ص ١٠٣

(٣) " " ٧٧

(٤) " " ٧٧

الى وجوب منعها " . (١) وان الجنود غير النظاميين الذين جي" بهم من دمشق وعسكروا " منذ عشرة ايام بجوار ساحات القتال اخذوا يسلبون التعسا" الذين نجوا من الدروز وتمكنوا من الفرار التجاء الى بيروت (٢) " . وان هناك اشاعة مفادها ان الدروز في لبنان "زاحفون على مدينة زحلة موافاة لشبلي العريان رئيس القوات غير المنظمة المقيد بخدمة نجيب باشا وهو الذى سبق له ان امرا وان ماموراً ان نزع السلاح من ايدى مسيحيي حاصبيا وراشيا الذين لا دخل لهم في كوائــــن لبنان " .

" وقد خرب الدروز التابعون ولاية دمشق عدة قرى في سهل البقاع فازداد اهالي كسروان المهددون بالدمار قلقا بسبب نزع اسلحتهم وحصار زحلة (٣) " .

وبعد ان ابلغ القناصل سليم باشا مضمون المذكرة التي تلقوها من غبطة البطريرك الماروني والتي يسال فيها عما اذا كانت الحكومة التركية عاجزة عن قمع الحوادث التي نحن بصددها ام انها راضية عن وقوعها ، رجوه ان يقدم اليهم "جوابا يوضح لهم حقيقة موقف هذه البلاد ويمكنهم من مد السلطة الشرعية بكل عضدهم الادبي لحفظ الراحة في هذه الولايات وفقا لارادة حكومة كل منهم " . (٤)

ومن الجدير بالملاحظة ان قناصل الانكليز كانوا يتدخلون بصورة مستمرة وانهم كانوا يتمتعون بمركز خاص لدى السلطات التركية . كما انهم كانوا دائما يسدون النصح للموظفين الاتراك ولا ينقطعون عن توجيه الارشاد اليهم (٥) . وقد وجهت التهم الى عملا" الانكليز بتوزيع الاسلحة على الدروز ومدهم بالدخائر فكذب الكولونيل روز هذه الشائعات في كتاب وجهه الى سليم باشا في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٤١ (٦) .

---

(١) المحررات ج ١ ص ٧٦
(٢) " " " " "
(٣) " " " " ٧٧
(٤) " " " " ٧٧ ــ ٧٨
(٥) " " " " ٦٠ــ ٦٢ و ٩٧ ــ ٦٩ و ٧١ ــ ٧٣ و ٧٨ ــ ٧٩
(٦) " " " " ٦٦ ــ ٦٧

والواقع ان الانكليز كانوا يميلون الى الدروز لان الموارنة كانوا يفضلون فرنسا .
فقد جاء في تقرير للكولونيل روز في ١ تشرين الاول سنة ١٨٤١ " ان الموارنة مستسلمون نفسا وجسدا الى فرنسا ... وعليه فلم يبق لانكلترة ان تختار في الامر بل امسى من المتحتم عليها عضد الدروز (١).

ويبدو ان السلطات العثمانية كانت تعتمد في وساطاتها بين الفريقين على القناصل الانكليز في الدرجة الاولى (٢).

ولا بد لنا من الاشارة الى ان التهم في التحيز الى الدروز قد وجهت ايضا الى العثمانيين (٣) .

وقد افسحت الاضطرابات المذكورة المجال امام الباب العالي للتدخل في لبنان صيانة لارواح السكان ورغبة في حفظ النظام . فاوفد السرعسكر مصطفى باشا للتوجه الى الجبل" مستصحبا الجنود وقد خول السلطة اللازمة لايقاف تيار الشر " (٤) .
وقد عزل الامير بشير قاسم بعد ان امر بالذهاب الى بيروت ومنها استدعى الى الاستانة (٥).
حيث " اخذ منه سلاحه وماله (٦) " .

وقد كانت نية الحكومة التركية تعيين باشا تركي على لبنان . فلفت المستر ريتشارد وود نظر سليم باشا الى عواقب ذلك "اذ ان اهالي لبنان باجمعهم لا يسمحون مطلقا بان يتولى ادارة بلادهم احد الباشوات لان ذلك مخالف لامتيازاتهم القديمة التي شاء الباب العالي تأييدها حديثا (٧) . ومما يدل ايضا على ان الحكومة البريطانيـــة كانت غير راضية عن هذا التدبير ما ورد في تعليمات السير ستراتفورد كانين سفير انكلترا في الاستانة الى المستر بيزاني ترجمان السفارة الاول في ٩ شباط ١٨٤٢.

---

(١) المحررات ١ ص ٧٣ (عن الكتاب الازرق الانكليزي الصادر في سنة ١٨٤٣)
(٢) المحررات ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٣
(٣) المحررات ج ١ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٤
(٤) " " " ٧٩ ـ ٨٠
(٥) " " " ٦٩
(٦) " " " ٨٠
(٧) " " " ٦٩

"بيد ان هذا التبديل الموجب الدهشة والاستغراب غير كاف لحقن الدماء وضبط الاهواء بل ينبغي اتخاذ وسيلة اضمن فائدة وارسخ قدما ويتراءى لنا من خلال الحوادث الحاضرة ان المستقبل غير مفرح واصبح من المؤكد انه بعد فترة من الزمن تضطرم نار الفتنة في لبنان باشد ماكانت عليه قبلا ... فعسى ان يكون التدبير الحالي موقتا وان الوسائل ستتخذ عاجلا لاعادة تنظيم حكومة جبل لبنان المحلية على اسس ثابتة وفقا لامتيازات شعوبه القديمة والعهود المعطاة لهم (١).

وقد اجاب الصدر الاعظم المستر بينزاني عن الاسباب التي دعت الى عزل الامير بشير قاسم فقال : "لما حدثت الاضطرابات في سوريا اشارت علينا الدول صديقاتنا باتخاذ الذرائع الكافلة اعادة السكينة اليها فارسلنا السرعسكر مصطفى باشا لهذه الغاية ولما بلغ بيروت جمع اعيان الجبل فبينوا له ان الامير بشير قاسم رجل صفيق غير كفوء للحكم وانه يجب ان تنسب القلاقل والاقتتالات التي جرت في البلاد الى عدم جدارته بالولاية ، وحرصوا انه لا سبيل لتوطيد دعائم الامن في ربوع لبنان ما دام امير الجبل ينتقى من اهليه وطلبوا خلع الامير بشير قاسم مسترحمين من الباب العالي شفاها وخطا ان ينعم عليهم بتعيين احد موظفيه واليا على جبلهم . ولما كان انالتهم مطاليبهم وتحقيق رغائبهم احسن ذريعة لاستتباب الراحة وضرب اوتاد الامن بين الاهلين عين احد الباشوات واليا على لبنان ".

" ولقد حدثتني عن امتيازات اللبنانيين في حين اني لا اعرف سوى التي تعهدت انا وامير البحر استوبفورت بها خطا للامير بشير الشهابي السابق فيما لو خضع لسلطة السلطان في مدى اثني عشر يوما وضمنا له ثروته وامارة الجبل وامتيازاته ، على ان هذا الامير لم يؤد الخضوع في الاجل المضروب ومع ذلك امهلته مدة اربعة ايام اخرى، غير انه عجل في تسليم الامير بشير قاسم الفرمان المؤذن بجعله اميرا على لبنان خلافا لرايي . بيد انه اذا قضت الاحوال فيما بعد بادخال تغيير على حكومة الجبل فالباب العالي بصفته مستقلا بتدبير شؤون تبعته مباشرة سيتخذ تدابير اكثر مناسبة لاحداث التغيير المذكور ". وعندما سئل الصدر الاعظم " اذا كان يعني بلفظة تغيير تعيين وطني "اجاب" بالايجاب " (٢).

---

(١) المحررات ج ١ ص ٧٩ ــ ٨١

(٢) " " " ٨٢ ــ ٨٣

وجاء في مذكرة وجهها صارم افندي وزير الخارجية الى سفراء النمسا وفرنسا وبريطانيا وبروسيا والروسيا في ١٧ اذار سنة ١٨٤٢ انه اوفد ولي باشا زاده سليم بك من كبار موظفي الباب العالي الى دولة السرعكسر للاطلاع على نتيجة التحقيق وما آل اليه الموقف في البلاد وانه يعد الدول بارضاء اهالي لبنان وان لا يتمسك بعمر باشا النمساوي الذي عينه السرعكسر حاكما على لبنان "مراعاة لظروف الحال" (١) ٠

القسم الثالث

مهمة السرعسكر مصطفى باشا وتعيين عمر باشا النمساوي حاكما للجبل لبنان

عندما وصل السرعسكر مصطفى باشا الى بيروت استقبلته وفود الدروز من مشايخ ووجهاء ، معربين له من كبير احترامهم واملهم في ان ينقذهم من ظلم العائلة الشهابية وطغيانها ٠ وقد طالبوا بان لا يحكمهم بعد اليوم اى فرد من افراد هذه العائلة او من افراد العائلات الدرزية او المسيحية الاقطاعية ، بل ان يعهد بذلك الى احد رعايا السلطانة الاوفياء (٢)٠

وقد جاء في العريضة التي رفعها اهالي جبل لبنان الى الباب العالي في اواخر ايار عام ١٨٤٢ (٣) " ان المظالم التي انصرفا امراء الاسرة الشهابية الى انزالها في الاعيان وفي سائر اهالي لبنان قد استفحل امرها ولم يبق في الشعب احد بنجوة منها خلا بعض افراد مقيدين بخدمتهم وامسى الجميع على شفا هاوية الدمار ٠ ولذلك عند ذيوع خبر وصول دولة السرعسكر باشا الى بيروت خففنا الى تاديه لنرنح الى اعتابه عواطف احترامنا الشديد كما هو مفروض علينا "٠

" وبعد ان قمنا بهذا الواجب استرحمنا من دولته ان ينقذنا من يد الاسرة الشهابية وينتخب احد رعايا السلطنة الامناء فيوليه علينا ٠ وفي الوقت ذاته التمسنا

---

(١) المحررات ج ١ ص ٨٤

(٢) تيمستا ج ٣ ص ١٠٩

(٣) المحررات ج ١ ص ٩٦ ــ ٩٧ ، تيمستا ج ٣ ص ١١٠

منه ان ينعم علينا فيبتاع ان يولي علينا من الان فصاعدا احد من السلالة الشهابية او من اعيان الدروز والمسيحيين الذين يقطنون هذا الجبل ... فولى علينا ماموراً تركيا ...".

"فبحمد الله وبفضل تعيين دولتعمر باشا زالت الاحقاد والشحناء من بينناوعاد كل منا الى اشغاله .... وبدات مياه الطمانينة والسكينة تعود الى مجاريها ..."

" وقد اغتنم بعض الامراء الشهابيين المشهورين بقلاقلهم فرصة سفر دولة السرعسكر الى الدوير من ملحقات سوريا واتفقوا مع مريديهم ورعايا الدول الاجنبية فاذاعوا خبرا مؤداه ان تعيين دولة عمر باشا على جبل لبنان حدث خلافا لرغبة الاهالي .... وانهم يتوقون الى عودة الاسرة الشهابية الى حكم الجبل ..."

" بيد انه اذا اعتمد على تسليم زمام امورنا الى احد اعضاء الاسرة الشهابية او خلافهم من سكان لبنان فقد صممنا النية ... على المهاجرة والتشتت في انحاء السلطنة العثمانية لنكون بمامن من طائلة يدهم ."

وقد سر السرعسكر اعظم السرور من هذه البادرة بادرة الاستقبال التي سهلت مهمته ومكنته من عزل الامير بشير قاسم بعد ثلاثة شهر من وصوله الى لبنان . وقد طاف السرعسكر مصطفى باشا لبنان من اقصاه الى اقصاه لتهدئة الخواطر وتوفير الامن في كل مكان ، كما انه اصدر اوامره الى القوات التركية الموضوعة تحت تصرفه للاستيلاء على المراكز الستراتيجية الرئيسية . فانسحب الدروز كما راينا اعلاه ، الى قراهم وانصرفوا الى ممارسة مهنهم العادية ، كما ان الثقة والسكينة عادتا الى نفوس الناس . ولم يلبث ابعاد الامراء الشهابيين ان اعطى النتيجة المرجوة (١).

لقد كان الباب العالي يريد التدليل على ان تعيين حاكم تركي في لبنان هو السبيل الوحيد للقضاء على الفتن والمنازعات الطائفية (٢) . ولكن الموارنة لم يطمئنوا الى هذه النية بل قاوموها . وقد وجد موقفهم هذا تاييدا جديا لدى قناصل الدول الاوربية(٣). ومن الجدير بالذكر ان اللبنانيين الساخطين سلكوا سبيل الحـــــذر والحكمة

---

(١) تيمستا ج ٣ ص ١٠٨

(٢) المحررات ج ١ ص ٨٢ و ٨٤ و ٨٥ و ١٠٩

(٣) " " " " ٨٠ و ٨١

في تذمرهم فتقدموا بشكاويهم الى السلطان وممثلي الدول في آن واحد . اما العريضة التي رفعها الى الباب العالي امراء لبنان ومشايخه في ٢٢ ايار سنة ١٨٤٢ فهي تنم عن الحكمة والانفة في ان واحد . وقد جاء فيها ما يلي (١) : " وبينا كان رعاياكم ينتظرون بذاهب الصبر التمتع بالسكينة التامة وبالائكم السلطانية الخاصة الجديرة بشرفكم الشاهاني مكافأة لنا على خدماتنا الشاقة وعلى الضحايا التي بذلناها في سبيل محاربتنا الحكومة المصرية وفقا لاوامر سلطاننا وارادته فوجئنا بحبوط امالنا وبما لم يمكن ننتظره من مكارم الباب العالي . فلقد فرضت علينا ضرائب مذلة اشدها وطأة التعريفة الجمركية ....

اذ يجب الانتباه قبل كل شيء الى اننا نحن رافعو هذه العريضة الطائعون لا نكسب عيشنا من التجارة او الفنون او من صناعة اخرى وان ليس لنا سهول لاستغلال جبوبها وانما كل ثروتنا قائمة على الزراعة الشاقة لاستنبات اراضينا ... وبزراعة التوت لتربية دودة الحرير وهي مورد رزقنا الوحيد مع قليل من الزيت . وعدا ما تقدم فان حاجاتنا المعاشية الضرورية تضطرنا الى بيع هذين المحصولين لشراء الحبوب اللازمة لقوتنا فنبيعهما غالبا باثمان بخسة ونشتري بهما الحبوب بثمن غال . ومن السهل على جلالتكم ان تتحقق الامر . ومن ثمة ان التجار المضاربين الذين يشترون حريرنا وزيتنا سيسقطون من اثمان المحصولين المذكورين قيمة التعريفة كما ان بائعي الحبوب يضيفون هذه القيمة الى ثمن حبوبهم وقد تحققنا بالامتحان في معاملات البيع والشراء منذ فرضت هذه التعريفة الجديدة انه يؤخذ مناخمس مالنا .... وخلا اضرار التعريفة .... فرضت علينا حكومة بيروت مبلغا معينا للخزينة يوزع علينا بالسواء وهو بدل العشر " بوركو " والخراج . وعليه نتجرأ على العرض بان العشر لم يفرض قط على جبلنا ... ولم يدفع هذا الجبل سوى " ميرى " . اما " الويركو " فمن المعروف ان قيام جبل لبنان على الحكومة المصرية نشأ خاصة عن ضريبة الفردة المماثلة " للويركو " وعن سائر المكوس المجحفة بما فيها ايجاب الخدمة العامة فلم يطق احتمال عبئها ولذلك نهضنا على الحكومة المذكورة .. اما الخراج ، مال الاعناق ، فقد فرض على المسيحيين في السلطنة العثمانية بدل حماية حياتهم وعرضهم واموالهم . اما نحن سكان

---

(١) المحررات ج ١ ص ٨٤ ـ ٨٨

جبل لبنان فلم نكلف قط حكومة الباب العالي بهذه الحماية بل بالعكس كان من عاداتنا حماية ذواتنا من الافتئات والذود عن وطننا والولايات المجاورة واقطاع سكانها كلما حاولوا شق عصا الطاعة على الحكومة العثمانية . ومقابلة لهذه الخدمات لم يطلب السلاطين العثمانيون منا مال الاعناق ومن السهل تحقيق قولنا هذا بمراجعة سجلات المالية ....".

"وكنا نامل في ان تعوض الخسائر التي لحقت بنا من جراء سلب اموالنا وتدمير املاكنا منذ الثورة الاولى على الحكومة المصرية حتى طردها وما خربته ايضا الجنود التركية بامر عال ....." . (١)

وقد وقع هذه العريضة الامراء واصحاب الاقطاع الدروز واصحاب الاقطاع المسيحيون والاعيان واهالي جبل لبنان عموما (٢) .

وقد اهمل الباب العالي بادئ الامر اجابة مطالب اللبنانيين . بل ذهب الى حمل بعضهم على توقيع العرائض لتاييد الحكم العثماني والثناء على الموظفين الاتراك (٣).

وقد وجه السرعسكر مصطفى باشا اليهم ، ولا سيما الى اهالي كسروان منهم ، في ١٩ شعبان سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) بلاغا انبأهم فيه انه لن تعاد الاسرة الشهابية الى امارة جبل لبنان مطلقا وهدد من يحاول منهم الشغب او مخالفة القوانين باشد العقوبات (٤) . ولم يوفق عمر باشا النمساوي اذ انه حاول محاربة الاعيان ورجال الاقطاع كما سعى الى تعيين مشايخ من قبله ، مكان الامراء ورجال الاقطاع المحليين ، فاثار هذا الدروز والمسيحيين على السواء . اضف الى ذلك اعمال العنف التي كان يرتكبها الجنود الالبانيون الذين دخلوا لبنان مع السرعسكر مصطفى باشا (٥).

وقد تدخل سفراء النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا والروسيا في القسطنطينية لدى الباب العالي محتجين على تعيين عمر باشا النمساوي وعلى السياسة

---

(١) تيستا ج ٣ ص ١١٠ ـ ١١١
(٢) المحررات ج ١ ص ٨٨
(٣) " " " ٩٩ ـ ١٠١
(٤) " " " ١٠٤ ـ ١٠٥
(٥) " " " ١٠٢

التي كان يتبعها فاجابهم الباب العالي انه عهد الى سليم باشا باجراء تحقيق واسع النطاق وانه سيطلعهم على نتائجه واوضح انه لا " يتشبث بابقاء عمر باشا النمساوى الذى كان تعيينه من قبل السرعسكر مراعاة لظروف الحال (١)٠

وفي ٢٧ ايار سنة ١٨٤٢ جرى اجتماع بين وزير الخارجية العثمانية من جهة وسفيرى انكلترا وفرنسا ووكلاء سفراء الروسيا وبروسيا والنمسا من جهة ثانية ٠

فافتتح الاجتماع وزير الخارجية التركية صارم افندى قائلا (٢) :" انه لما كان قد حدثت اضطرابات في جبل لبنان رأى الباب العالي من الموافق ارسال السرعسكر مصطفى باشا الى ذلك الصوب فنذ نحو ستة اشهر ووكل اليه الاشراف على حالة الشؤون واتخاذ التدابير والاحتياطات المناسبة فخلع السرعسكر الامير بشير قاسم من منصبه وارسله الى الاستانة وولى مكانه عمر باشا وان ممثلي الدول الخمس احتجوا على عدم موافقة هذا العمل وطلبوا ان يحسب هذا التعيين وقتيا والحوا بوجوب حفظ طريقة الاحكام القديمة ونصحوا الباب العالي ان يعيد الحكم الى الاسرة الشهابية، وانه على اثر هذه المساعي ابلغ هو الممثلين المشار اليهم اعتماده على ارسال مندوب الى سوريا مفوض بالتحرى عن مجرى الامور حتى بعد عودته تتخذ طريقة الحكم الواجب وضعها في لبنان ٠ وان سليم بك قام بالمهمة الموكولة اليه ورفع للباب العالي بيانا عن نتيجتها مشفوعا باربع عرائض موقعة من المشايخ الموارنة وغيرهم من اهالي جبل لبنان "٠

وقد تليت العرائض المذكورة على الحاضرين واوضح صارم افندى انه جمع ممثلي الدول لاستشارتهم والتداول معهم في مضمونها ، فاجاب سفير بريطانيا " ان البيانات التي انفذت اليه من سوريا مخالفة للتي تلقتها الحكومة العثمانية وزاد ان تلك تثبت ان العرائض التي ارسلها مصطفى باشا استحصلت بالوعد والوعيد وان لديه مايدعوه الى الاعتقاد ان رصفاءه تلقوا من قناصل دولهم رسائل مماثلة لهذه " ٠ فوافقه سائر الممثلين على كلامه هذا ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٨٣ ــ ٨٤

(٢) " " " " ٨٨

فاجاب صارم افندي : "ان العرائض التي تليت في الجلسة تثبت صدق تقارير السرعسكر مصطفى باشا ومطابقتها للحوادث وموافقة ابقاء طريقة الحكم الجديد في لبنان تحت ولاية باشا تركي لان فيه ضمانة راحة الاهالي ورضاهم وهما منتهى الغاية التي يسعى الى تحقيقها الباب العالي والدول . وفي رايها ان الاهالي مجمعون على نقض ولاية الاسرة الشهابية لان عودها يكون سببا لاستئناف القلاقل . وان الباب العالي اضطر الى استعمال سلطته لمنع جمهور كبير من اهالي لبنان عن الشخوص الى الاستانة العلية لاقامة الدعوى على الامير بشير الكبير بما انزل فيهم من المظالم وضروب الاستبداد والاثرة. والفت انظار السفراء الى ان العرائض المذكورة موقعة من اشخاص معروفين في حين ان بيانات القناصل مبنية فقط على اقوال اناس سيئي القصد خالين من كل ضمير يذهبون من قنصل الى اخر ناقلين ذات الاكاذيب والافائك ".

" فرد ممثلو الدول الخمس اقوال ناظر الخارجية باجماع القناصل على رواية واحدة واوضحوا ان العرائض التي تليت عليهم مقصورة على تواقيع قليلة وانه من المشهور انها اخذت بوسائل الارهاب والوعود وانه يوجد عرائض تتضمن التماس اعادة الحكم الى الاسرة الشهابية موقعة من ذات الاشخاص الموقعين في ذيل العرائض السابقة الذكر".

" فذهب النظار الاتراك (١) الى ان سبب هذا الانقلاب في الراى متات من انقاص الحكومة الضرائب من عشرين الف كيس الى اربعة الاف كيس".

" فاجابهم ممثلو الدول ان انقاص الضرائب ليس امرا جديدا نتج من تعيين عمر باشا بل انه يتصل بعهد تسوية المسالة المصرية في ايام حكم الامير بشير قاسم . وانه ليس ثمة ما يوجب زيادة الضرائب اذا ما اعيدت الاسرة الشهابية لان امر زيادة الضرائب او انقاصها منوط بالباب العالي . ثم ذكروا النظار بما وعدت به الدول والباب العالي اهالي جبل لبنان عندما كانوا في حاجة الى خدماتهم . وبعد ان استفادوا منهم انكروا عليهم هذه الوعود ".

" وزعم الصدر الاعظم ان هذه الوعود لم تتناول غاية خاصة وانما هي وعود عامة تتضمن المحاسنة والحماية وهو مستعد لتجديدها او انها وعود خاصة وشرطية تتعهد

---

(١) ناظر العدلية وامير البحرية وناظر الخارجية .

بها للامير بشير الكبير على ان ليس له ان يطالب بانجازها لعدم قيامه بالشروط المفروضة عليه ."

وقد اجمع ممثلو الدول على ان الادلة التي قدمها الباب العالي غير كافية وذكروا ان قناصل النمسا وفرنسا وبريطانيا في بيروت رغبوا الى مصطفى باشا ان يجتمعوا اليه للتداول معه بشان التقارير التي رفعوها الى سفراء بلدانهم في الاستانة والتقارير التي صدرت عنه لمقارنتها ببعضها البعض وان هذه الرغبة تؤلف حجة بالغة توجبة تصديق رواياتهم . ولفت ممثلو الدول الخمس انظار المسؤولين الاتراك ايضا الى ان : " السلم والراحة السائدتين في لبنان لا يدلان على حسن طريقة الحكم الجديد بل هما نتيجة مساعي وعود الحكومة العثمانية بان الادارة المذكورة هي موقتة ، " واضاف ممثلو الدول الى ذلك قولهم "وان السبب الاولى في هذه السكينة الضاربة اطنابها موثقة الاهالي في حسن نتيجة مساعي الدول المتحابة لاعادة طريقة الحكم القديمة المحبوبة منهم اليهم اذ انها الضامن الوحيد لتوطيد اركان سلم مستمرة . واردفوا انه ماخلا القلاقل المحلية التي تتاتى عن نزع الاحكام من يد الاسرة الشهابية فان تبديل طريقة الحكم القديمة بالقوة لخطر عظيم ومثل سيء لسائر اهالي السلطنة العثمانية . وان الدول المواليقد جهرت حديثا في عهد شهير باجماعها على احترام سلامة كيان المملكة العثمانية ولذلك فهي تود الا ياتي الباب العالي عملا من شانه جر نتائج معاكسة لهذه القاعدة ".

بعد ذلك تلا وكيل سفارة النمسا ملخصا لرسالة بعث بها اليه مترنيخ . في ١٧ ايار سنة ١٨٤٠ " وهي تتضمن ادلة راهنة على وجوب العودة الى طريقة الحكم القديم في سوريا " .

فاكد النظار الاتراك من جديد بانه لا يوجد اقل شك في ميول الاهالي " وان الاصرار على اعادة الحكم الى الاسرة الشهابية لمن قبيل طلب المستحيل لان الاهلين لم يقبلوا به ".

عند ذلك طرح الوزراء الاتراك السؤال التالي على ممثلي الدول : " اذا ما تحققتم صدق التقارير التي ابرزناها فهل تستمرون مصرين على اعادة زمام الحكم الى الاسرة الشهابية ؟ " . فاجاب ممثلو الدول ان من الواجب التشبث بادئ ذي بدء

من صحة التقارير المذكورة وانه بانتظار نتيجة التدقيق في هذه التقارير لا يمكنهم الاجابة على السؤال الانف الذكر . فاقترح وزير الخارجية التركية حينئذ ايفاد مندوبين الى لبنان يرافقهم مندوبون من قبل السفارات الاوروبية لاجراء استفتاء بشان طريقة الحكم التي يؤثرها سكان لبنان والوقوف على ما راى الاكثرية بهذا الشان . فكان جواب ممثلي الدول "أن هذا العمل غير مطابق لرغائب الدول الموالية الا اذا روعيت فيه كرامة الباب العالي" . وقد طلب ممثلو الدول "الى النظار العثمانيين ان لا يستعظموا اهمية التعديلات التي اشارت الدول بادخالها على هيئة الحكم الجديد في لبنان لان الامير الذى يختار من الاسرة الشهابية لتولي الشؤون سيكون مندوبا من قبل السلطان وخادما لجلالته . واوضحوا ان السرعسكر باشا هو حكم وخصم في ان واحد وان سليم بك لم يتصرف في بيروت بتمام الاستقلال والسلطة المفوضين الى مندوب مثله موكول اليه التوفيق بين تقارير قناصل الدول والسرعسكر المشار اليه المتناقضة".

وقد ذكر ممثلو الدول ان مصطفى باشا لم يجز لسليم بالحضور الجلسة التي عقدها قناصل الدول عنده مع انهم طلبوا اليه ذلك ، وان سليم بك لم يغادر بيروت ولم يطأ ارض جبل لبنان وانه اى سليم رفض قبول العرائض التي رفعت اليه طلبا لاعادة حكم الاسرة الشهابية دون ان يجيز له مصطفى باشا ذلك . فلاحظ النظار العثمانيون "ان سليم بك لم يذهب الى الجبل لان الموارنة جاؤوه وفودا وهو فوق ذلك لم يتم مهمته حتى الان ولذلك لم يعد الى الاستانة في الباخرة الاخيرة ".

وهنا طرح ممثلو الدول الخمس السؤال الاتي على ناظر الخارجية التركية :
"هل تصرون على رفض اعادة الحكم الى الاسرة الشهابية فيما لو توفقت الدول بالاتفاق مع الباب العالي الى ايجاد طريقة من شانها ملافاة الاخطار التي يتوقعها" فاعتذر وزير الخارجية التركية عن الجواب لانه لم يتلق جوابا على السؤال المماثل الذى سبق له ان طرحه . وتشبث الوزراء العثمانيون "بان مجرد اعادة الحكم الى الاسرة الشهابية يكون بدء ثورة لا تنحصر في الجبل بل تمتد الى جميع الاماكن الاهولة بالدروز ".

وهنا سال ممثلو الدول : "عما اذا كانت الدولة ترتاح الى جعل الدروز والموارنة تحت زعامة رئيسين منهما مستقلين عن بعضهما" . فاجابوهم بتعذر تحقيق هذا المقترح لان الدروز والموارنة يقطنون معا في قرى واحدة . فرد السفراء عليهم

بان هذا الاختلاط كائن في ناحيتين او ثلاث بيد ان معظم الدروز والموارنة يعيشون في اقضية منفصلة عن بعضها " . وقد اظهر ممثلو الدول تمسكهم بالفكرة القائلة ان اعادة الاسرة الشهابية الى الحكم وتاييد الباب العالي والدول الاوروبية لها هما الوسيلة الوحيدة لحل المسالة اللبنانية وتامين الاستقرار في لبنان . فاجاب الوزراء الاتراك بان ذلك يقتضي منها نفقات باهظة وقوات عسكرية كبيرة فضلا عن الدماء التي يمكن ان يريقها . فاجاب ممثلو الدول انهم لا يشاطرون الوزراء الاتراك هذا الراى .

وقد طالت المناقشة بين الوزراء الاتراك وممثلي الدول من غير ان تسفر عن نتيجة حاسمة واستمر كل فريق متمسكا بموقفه وارائه . وقبل ان ينفض الاجتماع اكد ممثلو الدول "اهتمام دولهم بخير السلطنة العثمانية وسعادتها " وناشدوا الوزراء الاتراك "تسوية مسالة لبنان بطريقة مرضية قطعا لاسباب الخلاف المكدر " بين الباب العالي "وبين الدول العظمى صديقاته " . الا ان الوزراء الاتراك لم يغيروا اعتقادهم بان " الراحة التامة ضاربة اطنابها في سوريا " ولذلك لا يرون من اللازم اتخاذ تدابير جديدة " . فبين ممثلو الدول "ان الحالة تستدعي التعجيل بمداواتها لاضطراب حبل العلائق بين الباب العالي والدول الاوروبية العظمى " . فاجاب الوزراء العثمانيون بان المسالة الحالية لا تعكر العلائق المذكورة " واستقر الراى اخيرا على ان لا يتخذ اى قرار في هذا الاجتماع ولا في المستقبل فيما يتعلق بالمسالة اللبنانية من غير التشاور مع الدول الخمس الكبرى وانه من الضرورى انتظار نتيجة التحقيق الذى يقوم به سليم بك وورود المعلومات والتقارير الجديدة التي ينتظرها الباب العالي وممثلو الدول (١) .

وقد طالت المخابرات الدبلوماسية بشان المسالة اللبنانية واستمرت حالة القلق تخامر نفوس اللبنانيين . وكانت بريطانيا اول دولة اوروبية بدات تظهر تساهلا ازاء السياسة التركية . فقد جاء في تعليمات السر كانين الى المستر بيزاني تاريخ ٢٦ اب سنة ١٨٤٢ ان بريطانيا توافق على تقارير مندوبي الباب العالي في سوريا وتستحسن قسمة لبنان الى قائمقاميتين درزية ومسيحية وتولية وطني على كل منهما وربطهما بمشير ايالة

---

(١) المحررات ج ١ ص ٨٨ ــ ٩٦

صيدا وترى اقصاء الجنود الالبنان عنه وتجنب استخدام الشدة والعنف ٠ " ان جل رغائب حكومة جلالة الملكة ان تتوطد سلطة السلطان الشرعية ضمانا لاهالي لبنان التمتع براحة مستديمة وادارة حسنة مؤسسة على ركن امتيازاته القديمة ٠٠٠ فلو اغمضت الحكومة عينها من العرائض التي يزداد ورودها يوميا وهي طافحة بالشكوى من الحالة الحاضرة هل في وسعها ان تتعامى عن سوء تاثير اعمال العنف والاستبداد الظاهرة لكل ذي عينين ؟ أارشاء الاعيان او ارهابهم او ابعاد الزعماء وحبسهم والتظاهر بالاقتضاء من غصب الاموال تعد وسائل ضامنة لاكتساب القلوب واستمالتها ؟ ٠٠٠ لما كان شعبا لبنان ومعظمهما منفصول في سكناه عن بعضه يقسمان هذا الجبل الخاضع لسلطة جلالة السلطان الى شطرين اريان يمثل هذه السلطة وزير تشمل سيطرته كل البلاد ٠٠٠٠ وان يعهد بادارة الحكومة المحلية الى شخصين تنتخبهما السلطة العليا يوكل الى كل منهما ادارة شؤون قضائه فيولى درزي على الدروز ومسيحي على المسيحيين ويوجب على كل منهما ان يقيم بين مرؤوسيه ٠ اما الوالي فيقيم بين ابناء مذهبه في اقرب نقطة من الجبل ٠٠٠٠ ولا انكر ان اجراء مثل هذا المشروع يلاقي بعض الصعوبات اذ يوجد قرى ماهولة بالدروز والموارنة معا وهي اهم عقباته ٠٠٠٠٠ وعندي ان نجاحه اكثره منوط بانتقاء الاشخاص ٠٠٠٠ ومن الضروري الا يكون كل من الوزير والامراء ممن غمس يده في المظالم والجنايات التي اجتاحت البلاد بل ان يكون ماضيهم نقيا ٠٠٠٠ واهم من كل ذلك ينبغي على مجلس الوكلاء العثماني ٠٠٠٠ ان يامر عاجلا باقصاء العصابات الالبانية من سوريا وقد اوقعت الرعب في قلوب اهل البلاد المطمئنين ٠٠٠"

وتتابعت المراجعات والاحتجاجات بشان الحالة في لبنان وراح الموقف يزداد خطورة بحيث اضطر الدروز انفسهم الى مقاومة عمر باشا (١) ٠ عند ذلك ... استدعى الباب العالي عمر باشا في ١٧ ايلول سنة ١٨٤٢ واستقر الراى ، بناء على اقتراح مترنيخ مستشار امبراطورية النمسا والمجر ، على تعيين قائمقام مسيحي على النصارى وقائمقام درزي على الدروز ٠ نقبلت تركيا هذا الاقتراح في ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢

---

(١) حسر اللثام ص١١٣ ـ ١١٤

وابلغته الى الدول الاوروبية الكبرى فوافقت هذه عليه باستثناء سفير فرنسا الذى تحفظ فيما يتعلق بحق ارجاع الولاية الى الامراء الشهابيين (١)٠

ففي ٢٧ ايلول سنة ١٨٤٢ اصدر صارم افندى ، وزير الخارجية التركية، امره الى فؤاد افندى المترجم الاول لدى الباب العالي لابلاغ سفير انكلترا ، عميد ممثلي الدول بان الحضرة الشاهانية امرت بتنفيذ القرار القاضي بابعاد الجنود الالبان من بيروت وفصل عمر باشا من ولاية لبنان والموافقة على قسمة لبنان الى قائمقاميتين درزية ومسيحية ، شرط انتقاء القائمقام من موظفي الحكومة العثمانية ، وانتداب نائب لكل من الطائفتين الدرزية والمارونية لدى عامل بيروت واصدار الاوامر لاعادة الاموال المغتصوبة الى الموارنة وقدرها يتجاوز العشرين الف كيس ماعدا التي سبق ارجاعها لاصحابها (٢)٠

وفي ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ وجه صارم افندي مذكرة الى ممثلي النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا والروسيا ابلغهم فيها موافقة الباب العالي على تعيين قائمقامين من الوطنيين احدهما على الدروز والاخر على الموارنة ، شرط الا يكونا من الاسرة الشهابية ، وذلك رغبة في التفاهم والتعاون على ايجاد حل للمسالة اللبنانية التي استمرت المباحثات بشانها طويلا ٠

وفي ١٥ كانون الاول سنة ١٨٤٢ وجه السر ستافورد كانين السفير البريطاني في الاستانة مذكرة الى صارم افندى يعرب له فيها من ارتياحه لموافقة الباب العالي على تعيين قائمقام مسيحي على النصارى وقائمقام درزى على الدروز ويذكره بضرورة تنفيذ جميع القرارات المتخذة كفصل عمر باشا واقصاء الجنود الالبانيين عن سوريا واعادة الاموال المغتصبة الى الموارنــــة وتامين الحرية التامة لهؤلاء في سبيـــــل ممارسة شعائر دينهم وتخفيض الضرائـــب واقرار الدولة لامتيازات لبنان القديمة (٣)٠

وفي ٦ كانون الثاني سنة ١٨٤٣ تلقى البارون دى بوركنيه سفير فرنسا في الاستانة رسالة من المسيو غيزو وزير الخارجية الفرنسية جاء فيها ان فرنسا تقر قسمـــة لبنان

---

(١) لبنان مباحث علمية ص ٢٩٩

(٢) المحررات ج ١ ص ١٠٦ ـ ١٠٨

(٣) " " " " ١١٠ ـ ١١٢

الى قائمقاميتين وتولية وطنيين عليهما ولكنها تعتبر هذا التدبير موقتا ناقصا كما انها تحتج على حرمان الشهابيين من حكم الجبل "خلافا لحقهم الراسخ في اقدم وللرغائب الشعب" ، ولا تقبل ان تتنصل تركيا من "تبعة الاضطرابات المتوقعة في لبنان والقائها منذ الان على عاتق الدول الاوروبية" ٠ (١)

وهكذا نرى ان تركيا قبلت بنظام القائمقاميتين ارضاء للدول الاوروبية وان هذا النظام لم يكن نهائيا ، بل هو يصبح كذلك اذا ما برهن على انه صالح لحفظ النظام وتامين ازدهار البلاد ٠ (٢) وقد راينا انفا ان فرنسا كانت حريصة اشد الحرص على جعله موقتا وغير كامل ٠

ونرى ان اعتماد مبدأ القائمقاميتين لم يقض على جميع الصعوبات التي كانت تحول دون حل المسالة اللبنانية ٠ فاول مسالة كان يجب معالجتها هي مسالة حدود كل من القائمقاميتين ٠ والحقيقة ان هذه المسالة كانت دقيقة جدا ٠ ولم يكن يحق من الناحية القانونية البت بهذه المسالة الا للسلطان وحده ، سيد البلاد الشرعي الاوحد ٠ وقد خفيت بادئ ذي بدء على الدول الاجنبية جميع العقبات التي كانت تنطوي عليها هذه المسالة ٠

والمسالة الثانية التي اعترضت تطبيق النظام الجديد هي مسالة تعيين القائمقامين ٠ فهل يعينهما اصحاب العلاقة اولا ثم يثبتهما السلطان ام ان الباب العالي يعينهما مباشرة او بواسطة ولاته ؟ وهل يحق للدول الكبرى التدخل بطريقة ما في هذا التعيين ؟ وهل يجري اختيار القائمقامين من صفوف الطائفتين المسيحية والمارونية ام لا ؟ وقد طالب الباب العالي بحق تعيينهما بحرية ووفقا لمشيئته من غير مسيحيي لبنان ودروزه ٠

لقد كان الباب العالي حريصا على جعل القائمقامين موظفين عنده يستطيع عزلهما واستبدالهما حينما يشاء ٠ الا ان هذه النية لم تثبت امام مقاومة الدول ، اذ الحت فرنسا والروسيا وانكلترا على اختيار القائمقامين من دروز لبنان ومسيحييه كما طالبت

---

(١) المحررات ج ١ ص ١١٠ ــ ١١٢
(٢) " " " ١١٢ ــ ١١٣
(٣) تيستا ج ٣ صفحة ٦٦ وما بعدها ٠

فرنسا بصورة خاصة ابقاء الاسرة الشهابية على راس القائمقامية المسيحيةعلى الاقل .(١)

ومما اثار سخط الموارنةفصل جبيل وملحقاتها عن لبنان والحاقها بحكومة طرابلس .

ففي ٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٤٣ رفعسيادة المطران نقولامراد الى ممثلي الدول احتجاجا ، باسم اللبنانيين ، على فصل جبيل وملحقاتها عن لبنان والحاقها بحكومة طرابلس كما طلبتوحيد الامارة اللبنانية واعادة الاسرة الشهابية الى الحكم ضمانا لراحة لبنان .

"لقد ورد فرمان سلطاني بفصل جبيل وملحقاتها عن لبنان وهي من اهم اقسامه قصد الحاقها بحكومة طرابلس بحيث ان جميع هذه البلاد الماهولة بالمسيحيين فقط الممتدة الى اعلـــى قمم جبل لبنان بما فيها وادي قاديشا المقدسة مهد المسيحيين الموارنة ... ثم قنوبين مقر بطريركهم الجليل وبلدتي اهدن وبشراي التي يعلوها الارز .... ومجمل القول ان جميع الاماكن الاعز على قلب المسيحيين اللبنانيين والاكثر اجلالا لديهم تمسي بموجب هذا الفرمان تحت سلطة باشا تركي مباشرة ....

فان موقع هذه العريضة يتجاسر على رفع صوته مجددا باسم مواطنيه التعساء منا ديا ممثلي الدول المسيحية العظماء مسترحما توسطهم لدى الباب العالي ليأمر بعدم تنفيذ منطوق الفرمان المؤذن بالحاق الجهة المذكورة انفا بايالة طرابلس ... وهو واثق من انكم تصفحون عنه اذا ما اصر على قوله بان الامن والراحة لا يستتبان في لبنان الا متى عهد بحكومته الى امير من الاسرة الشهابية وبدون هذه التدابير يكون مصير هؤلاء التعساء الى الفناء فيذهبون لا محالة ضحية الاخطار التي تتهددهم (٢) ". كذلك اعطي السير كانين السفير البريطاني في القسطنطينية تعليماته الى المستر بيزاني مترجم السفارة الاول في ٤ شباط سنة ١٨٤٢ ليحتج لدى وزارة الخارجية التركية على فصل جبيل وملحقاتها عن لبنان طالبا اصدار الاوامر اللازمة لاعادتها الى حكومة الجبل لانها كانت في ايدى الامراء الشهابيين (في يد الامير بشير قاسم) الى ان طلب ممثلو الدول اعادة امتيازات لبنان القديمة الى ما كانت عليه (٣) . اما موقف فرنسا فيظهر من الرسالة التي بعث بها البارون دى بوركنيه الى المسيو غيزو في ٧ شباط سنة ١٨٤٣ . فقد جاء فيها "ان دولتكم في

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٠٢ و ١٠٤ و ١٠٨ و ١١٠ و ١١٢

(٢) المحررات ج ١ ص ١١٥ ــ ١١٦

(٣) المحررات ج ١ ص ١١٦ ــ ١١٨

ذيل كتابي السابق اني وجدت العزيمة على طلب عضد رصفائي لابلاغ الباب العالي اننا نعد سلخ قضاء جبيل عن البلاد الخاضعة لادارة الامير حيدر خرقا ظاهرا لما تعهد به في نطاقته المؤرختين ٧ كانون الاول الفائت وسؤاله الرجوع عاجلا عن هذا التدبير ... على ان اجهراني وجدت في ممثلي الدول الاربع اجماعا على رايي وتماثلا لعواطفي فعقدنا جلسة للمفاوضة وبعد ان استقررنا على القول باننا لم نقبل بنطاقة الباب العالي المؤرخة في ٧ كانون الاول المنصرم الا ونحن معتقدون اذ ذاك بصحة عزم الحكومة على تنفيذ مضمونها بصدق ودقة . وبعد ان تحققنا ان تجزئة الجبل وتعيين مامور مسلم لادارة احد اقسامه مناقضان لمبنى النطاقة المذكورة ومعناها صحت عزيمتنا على ارسال تراجمة سفاراتنا الاولين الى الباب العالي يحملون تعليمات خطية الحاحا على وجوب الرجوع حالا عن التجزئة السار ذكرها " . (٢)

وقد كان لهذا الموقف من قبل سفير انكلترا وسائر سفراء الدول اثر طيب لدى الحكومة الفرنسية فبعث المسيو غيزو الى البارون دو بوركنيه برسالة اعرب فيها عن ارتياحه لهذا الموقف ورغب اليه مواصلة السعي في هذا السبيل (٢).

وكان لهذه التدخلات من قبل الدول في سبيل جبيل نتيجة ايجابية، فقد ابلغ الباب العالي في ١ اذار سنة ١٨٤٣ سفراء الدول موافقته على اعادة جبيل وملحقاتها الى لبنان وعدم استيفاء ضريبة خاصة منها (٣).

وعندما حلت مسالة جبيل واجهت الدول والباب العالي مسالتين اولاهما مسالة القرى الماهولة بطوائف مختلفة والثانية مسالة التعويضات على المسيحيين . وقد عرض المسالة الاولى للبارون دي بوركنيه في رسالة وجهها الى المسيو غيزو في ٧ شباط سنة ١٨٤٣ جاء فيها : " لا مراء ان مسالة القرى الماهولة بطوائف مختلفة هي من اعقد المسائل الان واصعبها حلا . ولهذا طالما تاسفت على عدم اقتصار الدول على طلب اعادة الحكم السابق في لبنان الى ما كان عليه . ونحن الان ازاء مشروعين احدهما يشير بفصل بلاد الدروز

---

(١) المحررات ج ١ ص ١١٦ ـ ١١٨

(٢) المحررات ج ١ ص ١١٩

(٣) " " " ١٢٠ ـ ١٢١

عن بلاد الموارنة بخط جغرافي يشطر لبنان شطرين والاخر يقضي بتعيين مديرين درزي وماروني يقيم احدهما في البلاد الخاضعة للامير المسيحي والاخر في بلاد زعيم الدروز ."(١)
وقد جاء في رسالة من البارون دي بوركنيه الى المسيو غيزو ايضا في ١٣ حزيران سنة ١٨٤٣ :
" ان تنفيذ طريقة الحكم الجديدة في النواحي المختلطة السكان يلاقي صعابا توقعناها لكنها تفوق مخاوفنا الاولى . فالمسيحيون يريدون اعتاق دير القمر من كل خضوع للحكومة الدرزية المبسوطة جديدا عليهم والدروز يريدون ان يحكموا هذه البلدة كمقاطعة معروفة بهم لا يمكن منازعتهم ملكيتها (٢)" ويستفاد من رسالة للبارون دي بوركنيه وجهها الى المسيو غيزو في ١٧ ايلول سنة ١٨٤٣ . ان سفراء الدول الخمس قد " اجتمعوا في الاسبوع الفائت للتوفيق بين آرائهم فصلا لمسالتين خطيرتين لا تزالان عارضتين في شؤون لبنان وهما توزيع التعويضات وحكم دير القمر" ، وانهم اتفقوا على ارسال تراجمة سفاراتهم الى وزارة الخارجية التركية لطلب الاسراع بمسالة التعويضات وهي شرط لا بد منه لاعادة الراحة الى الانفار والتوفيق بين المصالح ". ° اما بخصوص دير القمر فمع اعترافنا بالصعوبة الناشئة عن موقعها التكويني (الجغرافي لوجودها محاطة بالبلاد الدرزية) الحائل دون تنظيم هيئة حكومتها وفقا للقاعدة التالية الحكومة على نسبة عدد الطوائف ومذاهبها صحت عزيمتنا على ان نوصي الباب العالي بالاتحاد على الحل الاتي : تعيين وكيل مسيحي لاهالي دير القمر المسيحيين ينصبه الامير الدرزي ، ويعرض كل خلاف يحدث بين مندوبي السلطتين المستقلتين على الباب المولى قيادة الجنود المعسكرة في دير القمر وتستمر فيها طالما يقتضيه حفظ الامن في الجبل . لا لكون دير القمر مقرا للامير الدرزي ... هذا وان جعل قائد الجنود التي ستعسكر موقتا في لبنان حكما بين السلطتين المسيحية والدرزية يولي هذا التدبير صفة موقتة ويترك لنا سبيلا لتحسينه في ان قريب وقد ذهب التراجمة الخمسة تباعا الى رفعت باشا ناظر الخارجية لابلاغه ما اجمع عليه السفراء الخمسة رايا فاجابهم بانه سيحل نصائحنا محلها من الاعتبار (٣) .

---

(١) المحررات ج ١ ص ١١٨
(٢) ١٨٤٣ - ١٨٤٤
(٣) المحررات ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤

وقد خلقت مسالة التعويضات مسالة التعويضات ومسالة الاقضية المختلطة ازمة تطلب حلها مفاوضات ومراجعات شاقة طويلة ستاتي على وصفها فيما يلي :

وانتهز المسيو غيزو هذه الفرصة ليعرب للباب العالي بصورة واضحة صريحة عن راى فرنسا في المسالة اللبنانية انذاك . فقد كتب الى المسيو دى بوركنيه في ٢٤ شباط سنة ١٨٤٣ فقال : "انه ليسرني ان السر ستيرافورت كانينغ اشترك دون صعوبة في امدادك الذى طلبته الى رصفائك احتجاجا على فصل اسعد باشا قضاء جبيل عن الاراضي التابعة لحكم الامير حيدر راشنا" قسمته البلاد بين القائمقامين المنتخبين لحكومة الجبل .... ان صالح الجبل وراحته يقضيان بوضع جميع المسيحيين تحت ادارة امير ماروني ، كما كان تقسيم الجبل الادار يعقبلا . فمن اللازم الضرورى الا يكون للحكومة التركية ادنى سلطة عليهم مباشرة " وقد حاول المسيو غيزو في رسالته ان يدافع عن استقلال لبنان الذاتي وامتيازات الموارنة ذاهبا الى حد الاعتقاد بحق الدول الاوروبية في ان تتدخل في شؤون مسيحيي الامبراطورية العثمانية ولا سيما في قضية كمسالة الاقضية المختلطة وتوزيعها بين القائمقاميتين : "اما مسالة بعض قرى الجبل الاهولة بالموارنة والدروز معا فهي اكثر تعقيدا واشذ الا ان على حلها يتوقف معظم مفعول طريقة الحكم التي وافقت الدولة على امتحانها في نطاقتها المؤرخة في ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ الفائت . وهذا سيدعونا الى ملاحقة هذه المسالة بمزيد النشاط وملاحظة نتائجها بمنتهى التدقيق حتى اذا جاءت غير منطبقة على حقوق المسيحيين ومصالحهم توجب علينا اذ ذاك ان نطلب اعادة القديم الى ما كان عليه ان بخصوص عموم السكان وان بسائر الشؤون " . فهل كان على الباب العالي ان يقبل هذا التدخل في شؤونه الداخلية والانتقاص من سلطته الشاهانية ؟

— يبدو ان المسيو غيزو كان يعتقد ان المسالة اللبنانية لم تكن تخص الباب العالي وحده بل الدول الاوروبية الوسيطة والحامية التي ادخل الباب العالي بفضل تدخلها والحاحها وضمانتها الترتيبات التي تضمنتها مذكرة ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ م . فالمسيو غيزو كان يعتقد ان الباب العالي قد اعترف في مذكرته الانفة الذكر اعترافا ضمنيا بحق الدول الاوروبية في المراقبة والتدخل :" ولما كان الباب العالي ذاته قد اعلن ان طريقة الحكم الموضوعة هي وقتية فانه تعهد ضمنا بابدالها بطريقة

افضل واضمن رسوخا اذا ما دعا الامتحان اليها . وعليه اكرر القول باني لا ارى طريقة افضل من اعادة الحكم القديم الى ما كان عليه ."

وقد انهى وزير الخارجية الفرنسية رسالته الى سفيره بالقسطنطينية بتوجيه انتباهه الى هذه الناحية الهامة من القضية اللبنانية (١) . وهكذا نرى المسالة اللبنانية تطرح من جديد على بساط المناقشة الدولية . وقد استمر الاخذ والرد بشانها بين رجال السياسة الاوروبية والعثمانية والتركية حتى عام ١٨٤٦ " كما سنرى .

القسم الرابـــــــــع

ازمة ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤

لم يوفق نظام القائمقاميتين الجديد في وضع حد للفوضى بل ساعد على اتساعها ، على الرغم من اختيار الباب العالي لرجلين قديرين هما الامير حيدر ابو اللمع الذي عين قائمقاما للموارنة ، بناء على توصية البطريرك الماروني ، والامير احمد ارسلان الذي عين قائمقاما على الدروز . وقد اختار الاول بكفيا مقرا له . اما الامير احمد ارسلان فقد اتخذ من بيت الدين مركزا له . واما دير القمر التي كانت قطنها اكثرية مسيحية وتحيط بها الاراضي الدرزية من كل جانب وحيث كانت الضغائن لا تزال متاججة في الصدور فقد فصلت عن الادارة الدرزية ووضعت تحت ادارة متسلم تركي (٢) . ولم يمض طويل وقت الا وظهرت عيوب النظام الجديد . فقد اوجد نظام القائمقاميتين سلطتين عاجزتين ليس لديهما اية سلطة كافية لتحقيق مشروع او لتنفيذ قانون او لاقرار نظام . بل كانتا التين مسخرتين بين ايدي الباشوات الاتراك . ولم يكن لدى القائمقامين وسائل تنفيذية تذكر ولا قوات تمكنهما من قمـــع الفتن والاضطرابات لذلك وقفا مكتوفي الايدي امام المنازعات العديدة التي قامت بين رجال الاقطاع وبين العائلات وامام الاحتكاكات الدامية المتواصلة التي نشبت

---

(١) المحررات ج ١ ص ١١٩

(٢) جوبلان ص ٢٩٧

بين الدروز والموارنة · وقد عمت جبل لبنان حالة من القلق والاضطراب فتوقفت الاعمال التجارية وسادت اعمال السلب والنهب وتعددت الاعتداءات على الانفس والاعراض والارزاق حتى ان رجال الامن من القوات النظامية وغير النظامية كانوا يقفون موقف المتفرجين على هذه الاعمال الشاذة فتوقفت حياة البلاد الاقتصادية واشرف لبنان على الهاوية · ولم تلبث الحرب الاهلية ان ذر قرنها من جديد في جنوبي لبنان بين الدروز والفلاحين المسيحيين على مرأى ومسمع من السلطات العثمانية (١) ·

وقد توترت الحالة الى درجة ان اسعد باشا المفوض التركي في جبل لبنان ارتأى في تقرير وجهه الى الباب العالي ضرورة اعادة الاسرة الشهابية ولكن رايه لم يؤخذ بعين الاعتبار (٢) · وقد توجه الموارنة الى قنصل فرنسا المسيو بوجاد فلم يكتف هذا الاخير بمراجعة السلطات العثمانية والاحتجاج لديها بل اطلع سفيره في القسطنطينية وحكومته في باريس على الحالة الخطيرة في الجبل وموقف السلطات التركية فما كان من المسيو غيزو الا ان وجه مذكرة الى الباب العالي هاجم فيها نظام ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ اي نظام القائمقاميتين مؤكدا حق الدول في الالحاح على الباب العالي في اعادة النظر في الاوضاع السياسية في لبنان · " لقد كنت اشك في ان تتوفر في النظام المراد ادخاله الشروط اللازمة لبلوغ الهدف الذي كانت تسعى اليه الدول الا وهو وضع حد للفوضى في الجبل واعادة السلام بين الموارنة والدروز وعودة هؤلاء واولئك الى حالة طبيعية عادية قدر الامكان · والحقيقة ان الباب العالي لم يقترح الترتيبات التي تضمنتها مذكرة ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ الا على اساس انها تجربة وانما تدبير انتقالي في سبيل تبني نظام افضل ، فيما اذا تبين عدم فاعلية الانظمة الجديدة · وقد اخذنا علما بهذا التصريح ولا ننتظرنا النتيجة التي كان يجب ان تعقبه لنكون رايا نهائيا " · وقد اشار المسيو غيزو ان التجربة برهنت على فشل النظام الجديد وان الغاية التي استهدفتها الدول لم تتحقق وان ذلك يدعو الى اتخاذ قرارات جديدة ·

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ و ١٣٠ ـ ١٣١ و ١٣٢ ـ ١٣٣

(٢) جوبلان ص ٢٩٩

واشار ايضا الى الشكاوى العديدة التي كانت تصله من تعسف باشا صيدا وتدخلاته المستمرة في شؤون القائمقامين والى الفوضى المريعة التي كانت تسود لبنان وقد ختم المسيو غيزو مذكرته بقوله : " كل ذلك يدل على وجود حالة اكثر ما تكون شذوذا وادعى ما تكون الى الاسف ، ويبيـــــن ضرورة استبدال اوضاع جديدة بالاوضاع التي اعتقد بضرورة تجربتها . ومما لا مجال الى انكاره هو ان اعادة العائلة الشهابية الى الامارة يكون من حسناتها تعزيز السلطة الحاكمة في لبنان (١).

وبالفعل فقد طلب البارون دى بوركنيه في ١٧ ايار الى الباب العالي الغاء ترتيبات ٧ كانون الاول سنة ١٨٤٢ واعادة الاسرة الشهابية الى الحكم في لبنان .(٢) كذلك طلب المسيو غيزو الى سفراء فرنسا في لندن وفينا وبولين وبطرسبورج ان يفاوضوا حكومات الدول المعتمدين لديها لوضع اتفاق معها في هذا الشان فوافقت النمسا على اقتراح فرنسا كل الموافقة وعملت الدولتان معا في لندن لدى اللورد ابردين وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت لاقناعه بضرورة اعادة الاسرة الشهابية الى الامارة في لبنان (٣).

غير ان الحكومة البريطانية لم توافق على مقترحات الحكومة الفرنسية . فقد كان الدروز الذين سبق ان تبنت حمايتهم يعارضون ذلك وكان الباب العالي لا يقبل بان يعيد الى لبنان الامارة والامتيازات التي من شانها انقاص سلطته الشاهانية . لذلك ساندت بريطانيا (٤) وكذلك الروسيا (٥) الباب العالي .

فكانت النتيجة ان التدخل الفرنسي لم يصل الى النتيجة المرجوة . فقد تمسك الباب العالي باستقلاله التام ورفض اى تدخل اوروبي في سياسته الداخلية وتمكن بفضل تاييد بريطانيا من ابعاد خطر اى انذار بشان القضية اللبنانية . ولكي تبرهن الدول على رغبتها

---

(١) من جوبلان ص ٣٠

(٢) المحررات ص ١٣٦ ـ ١٣٧

(٣) المحررات ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(٤) " " " " ١٤٣ ـ ١٤٦ و ١٤٦ ـ ١٥٢

(٥) " " " " ١٥٣ ـ ١٥٤

في احترام سيادة السلطان فقد لجأت الى الحيلة الاتية : قررت الدعوة الى تاليف لجنة في بيروت تضم ممثلين عن الباب العالي والدول واللبنانيين انفسهم لوضع اسس ترتيبات جديدة تعرض فيما بعد على السلطان عبد المجيد لابداء الراي فيها او الموافقة عليها (١)٠

وقد اوفد خليل باشا بمهمة فوق العادة في سوريا لاجراء تحقيق عام ووضع المشاريع الكفيلة باعادة الهدوء والامن الى ربوع لبنان (٢)٠ نعقدت اجتماعات عديدة بينه وبين القناصل الاوروبيين ومشايخ الموارنة والدروز ٠ وقد كانت هناك قضايا ثلاث تتطلب حلا سريعا عادلا اولا مسالة التعويضات التي يطالب بها الموارنة لكل ما لحق بهم من خسائر منذ ثورتهم على محمد علي باشا ، ثانيا مسالة معاقبة الدروز المسؤولين عن المجازر ثالثا التنظيم الجديد للجبل (٣)٠

اما المسالة الاولى فلم يكن بامكان خليل باشا تجنبها وعدم النظر فيها ٠ فلذلك اقتصر جهده على تخفيض قيمتها قدر الامكان وانزال مبلغ مساهمة الخزينة التركية فيها الى ادنى حد ممكن ٠ واما مسالة معاقبة الدروز فقد اوجدت خلافا بين قناصل الدول اذ ان القنصل الانكليزي كان يدافع عن الدروز ويحاول ان يوجد بعض المبررات لاعمالهم بينما كان القنصل الفرنسي يميل الى ~~الخلد~~ انزال اقصى العقوبات بهم ٠ واما المسالة الثالثة وهي مسالة التنظيم الاداري فقد اثارت خلافا دقيقا ٠ لقد ابعدت اول الامر مسالة اعادة الامارة اللبنانية نهائيا ، ولكن كيف السبيل الى توزيع الاقضية المختلطة بين القائمقاميتين؟ وكيف السبيل الى ادارة القرى المختلطة في كل من القائمقاميتين ٠ لقد دارت بين خليل باشا والقناصل ومشايخ الجبل ومحادثات طويلة شاقة في هذا السبيل استمرت عدة اسابيع ٠ وطلب المسيو بوجاد ان يعين الى جانب كل رئيس محلي او شيخ درزي يتبع للقائمقامية الدرزية وكيل مسيحي يختاره السكان المسيحيون ويكون تابعا للقائمقامية المارونية وتعهد اليه حماية ابناء دينه وادارتهم تحت اشـــراف قائمقامه ٠ وبكلمة

---

(١) جوبلان ص ٣٠١

(٢) " " ١٤٠ ـ ١٤١

(٣) المحررات ج ١ ص ١٤١

مختصرة فان الاقتراح الفرنسي كان يرمي الى ان تشمل سلطة القائمقام المسيحي السكان المسيحيين في القائمقامية الدرزية (١) ولكن بريطانيا عارضت هذا الاقتراح الفرنسي ، فطلب الممثلون الاتراك ، نزولا عند رأي الكولونيل روز ، ان يتبع الوكلاء المسيحيون في القرى المختلطة في القائمقامية الدرزية ، القائمقام الدرزي وان لا يكون لهم اي حق في الالتجاء الى القائمقام المسيحي ، اذ ان الفصل بين القائمقاميتين كان يجب ان يكون تاما (٢)٠

غير ان المسيحيين لم يقبلوا بهذا الحل كما ان خليل باشا لم يكن يريد التفاهم بل هدد باستخدام القوة " ان دولتلو عطوفتلو قبودان باشا (٣) وصل ومعه عدة بوارج من الاسطول الهمايوني عليها جنود من جيوش جلالته المنظم وهو يحمل اوامر ساميه وتوعز اليه بالسعي والاتفاق معي لتنفيذ التدابير المتفق عليها في تنظيم شؤون لبنان ٠ وهذه التدابير تشمل مسائل التعويضات والادارة وغيرها وتوطيد الامن والراحة بين جميع سكان الجبل اغنياء وفقراء على السواء ٠ وقد بدانا منذ الان بعون الله ان نتذرع بكل الوسائل الكافلة لاتمام هذه المهمة ٠ لكنه بلغ مسامعنا وجود مساع بين الامتين الدرزية والمسيحية منصرفة الى توقيع عرائض تتضمن طلب اعادة الامير بشير الشهابي الى حكومة لبنان فهذا من المحال ولا يمكن نواله نظرا الى القرارات التي اتخذها جلالة السلطان بالاتفاق مع الدول صديقاته ٠ ولذلك استغربت جدا خفة الاهالي الذين قاموا بهذه الحركة المخالفة لنية جلالته وسائر الدول ٠ ولما كان مقنوطا من نجاحها فلا يترجى منها نفع بل من شانها ان تجر عليها القصاص ٠٠٠٠ انفذ اليكم هذا البيورلدي لتحذيركم من سوء النتائج التي تجركم اليها مساعيكم العقيمة (٤)"٠

الا ان اسعد باشا والي صيدا كان يميل الى اللين (٥) فاستدعي لهذا السبب الى القسطنطينية في اذار عام ١٨٤٥ وخلفه وجيهي باشا ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٥٧

(٢) تيمبستا ج ٣ ص ١٦١ وما بعدها

(٣) هو خليل باشا صهر السلطان وناظر البحرية وصل سوريا في حزيران سنة ١٨٤٤ واستقدم منها بعد مذابح سنة ١٨٤٥

(٤) المحررات ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٢ (راجع ايضا نشرة اسعد باشا الى اهالي جبل لبنان)

(٥) المحررات ج ١ ص ١٦٠

وبعد مناقشات ومفاوضات دامت اسابيع عديدة تم الاتفاق على ان يرجع الوكلاء المسيحيون الى والي صيدا . وفي ٢ ايلول سنة ١٨٤٥ اعلن خليل باشا هذا الاتفاق في اجتماع عام مثل فيه المسيحيين زعماؤهم الروحيون . وقد حددت التعويضات المترجحة للموارنة بـ ١٣٥٠٠ كيس يدفع منها الدروز مباشرة ٣٥٠٠ ويدفع الباقي الباب العالي من خزينة ولاية صيدا . وتقرر عزل المشايخ الدروز الذين اشتركوا بالمذابح وحرمانهم من كل سلطة كما حرمت عائلة ابو نكد من مقاطعة دير القمر لاشتراكها في الهجوم على الامير بشير قاسم .

وقد ترك للسلطات التركية مهمة تعيين الحدود الجغرافية للقائمقاميتين كما ترك لها امر توزيع الاقضية المختلطة وفقا لموقعها الجغرافي . اما فيما يتعلق بالوكلاء فيعين المسيحيون التابعون للقائمقامية الدرزية وكيلا لهم من ابناء دينهم للدفاع عن مصالحهم في فريتهم . وتعهد بادارة دير القمر الى وكيلين مسيحي وماروني يعين كل منهما الامير الذى يتبع اليه (١).

وقد عمم الاتفاق فورا على الدول الاوروبية ، وكان يحتاج الى موافقة الباب العالي ليصبح نهائيا ." انه على اثر ما حدث في جبل لبنان رات الحضرة الشاهانية ... ان تستقر رايها في سنة ١٨٤٢ على منح كل من هاتين الامتين قائمقاما خاصا . ومنذ سنتين ونصف سنة ادار المومأ اليهما زمام الشؤون تحت رعاية جلالتها بصورة فازت برضا الجميع .... ولما كانت بعض الموانع قد اخرت حل مشكلة طريقة تنظيم الادارة وتوزيع التعويضات شاءت جلالتها .... ان تحلها على الوجه الاتي :

اولا يسقط من المبلغ الذى عينته اللجنة تعويضا المسيحيين الخسائر التي التحقت بالدروز ويؤخذ منهم ثلاثة الاف كيس اقساطا . على انه ولو كان على هذه الامة دفع الباقي فحيث ليس لها به قبل وكان المسيحيون الذين نهبت املاكهم وحرقت يستحقون من جهة اخرى شفقة جلالتها فقد امرت ان يستوفى ما بقي من التعويضات في اجله

---

(١) مارتنز جزء ٨ ص ٨٣

والمحررات ج ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ (نقلا من بوجاد ص ١٥٨ ـ ١٥٩

من دخل ولاية صيدا ويوزع على المسيحيين بصفة تبرع من جلالتها على يد اشخاص امناء ينتخبون ويعينون لهذه الغاية . ثانيا ... يبقى الدروز والمسيحيون تحت ادارة قائمقاميهم كما هم الان . اما القرى الدرزية المختلطة بمسيحيين فتوضع تحت ادارة قائمقام واصحاب اقطاع دروز . الا انه حبا باتقاء تسليمهم للجور اولي المسيحيون في كل قرية حق انتخاب وكيل منهم بموافقة القائمقام . فاذا اتى اصحاب المقاطعات مظلمة بحق الرعايا فلوكيلهم ان يخبر القائمقام بذلك فاذا لم يلتفت الى شكواه رفع الامر الى والي الولاية وهذا يتوجب عليه ان ينصفه بكل نزاهة . وبهذه الصورة يتعذر على اصحاب الاقطاعات الدرزية ان يظلموا الرعايا . هذا وان الحكومة تصرف جهدها بسطوة جلالتها على تزييد راحة الاهلين ورفاهية عيشهم وستعم هذه الطريقة الدروز القاطنين في القرى المسيحية المختلطة . اما دير القمر فيديرها وكيلان احدهما درزي والاخر ماروني ." (١)

وكم كانت دهشة البارون دي بوركنيه عظيمة عندما راى ان كامل قيمة التعويضات للمسيحيين لم يحدد في الوثيقة الانفة الذكر . فلفت نظر زملائه الى ذلك فقاموا بمراجعة مشتركة لرفعت باشا وزير الخارجية التركية الجديد ، فاعترف لهم بعدالة المسالة التي يراجعون بشانها وصرح بان ذلك لم يحصل الا سهوا وحدد بعشرة الاف كيس المبلغ الذى كان قد تعهد ان تساهم به الخزينة من واردات باشالق صيدا .

واثارت مسالة توزيع الاقضية المختلطة بين القائمقاميتين صعوبات جديدة اذ وضعت تحت ادارة القائمقام الدرزي اقضية كانت اكثرية سكانها من المسيحيين كقضاء جزين حيث كان يقيم اكثر من ثمانية الاف مسيحي مقابل ٦٥ درزيا واقليم التفاح حيث كان يوجد ٣٧٥٥ مسيحي مقابل خمسة دروز والكرك حيث كان يقيم ٤٥ درزيا وسط ٤٣٠٠ ماروني . وفي مجمل الاقضية المختلطة التي كان معظمها ملحقا بالقائمقامية الدرزية كان ثلاثة اخماس السكان من الموارنة والخمسان من الدروز .

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ نطاقة الباب العالي الى ممثلي الدول الخمس تاريخ ٧ تشرين اول سنة ١٨٤٤ .

فاحتج سفيرفرنسا البارون دى بوركنيه على هذا الاجحاف فاظهر رفعت باشا ميلا الى ارضاء فرنسا بضم بعض الاقضية المختلطة ذات الاكثرية المسيحية الى الامير حيدر ولكنه احتج بان زملاء اعضاء الحكومة كانوا يرون في ذلك خرقا ظاهرا لمبدأ التحديد الجغرافي الذى اتخذ اساسا للتقسيم ٠

وفي شباط عام ١٨٤٥ لم يكن الموارنة قد حصلوا على شيء من التعويضات وكانت الدول الاوروبية تجدد من حين الى اخر مراجعاتها بهذا الشان (١) ٠ كذلك لم تكن مسالة الاقضية المختلطة قد لقيت حلا نهائيا مرضيا ٠ فالفلاحون الموارنـــــة كانوا يرفضون قبول اسياد من الدروز في القرى المشتركة وكانوا يطالبون بالمهاجرة الى المناطق الشمالية من الجبل شرط ان يدفع لهم الباب العالي نصف اثمان املاكهم ويسدد لهم النصف الثاني اقساطا (٢)٠

وقد تعهد عندئذ الباب العالي بان يشمل نظام الوكلاء جميع القرى المختلطة ، فيصبح بامكان الدروز والمسيحيين ان يكون لهم وكلاؤهم للنظر في شؤونهم الخاصة على ان لا يكون الوكلاء من" المقاطعجية " (٣) ٠

وقد تقرر انه في حالة اختلافهم مع اصحاب الاقطاعات فمرجعهم الاخير مشير صيدا (٤)٠ وكان لهذا التطور اثر اى اثر في التطور نحو التحرر الشعبي والتخلص من نير اصحاب الاقطاعات ليس في الاقضية والقرى المختلطة فحسب بل في جميع انحاء لبنان ولا سيما في كسروان حيث قام بعض آل الخازن يشاغبون على القائمقام (٥)٠ وقد اثار هذا القرار نقمة رجال الاقطاع فاحتجوا على نظام الوكلاء وايدهم في ذلك ممثلو الدول الاوروبية (٦) ٠ فاوضح الباب العالي انه لا يريد الغاء الاقطاع بل انه يحافظ على امتيازات رجاله (٧) ٠ " ولم يخالج فكر الباب العالي ولا يريد ابدا الغاء حكم اصحاب

---

(١) ماتنز جزء ٨ ص ١١
(٢) تيستا ج ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٧
(٣) تيستا ج ٣ ص ١٦٨
(٤) تيستا ج ٣ ص ١٦٤ ، المحررات ج ص ١٥٨ ـ ١٥٩ وص ١٦٨ و ١٧٠ و ١٧٢
(٥) تيستا ج ٣ ص ١٥٧
(٦) " " " ١٦٨ ، المحررات ج ١ ص ١٧١

الاقطاعات او مس امتيازاتهم المحلية " ٠

واستنكر اللبنانيون كما استنكر ممثلو الدول ايضا رجوع الوكلاء الى مشير صيدا ، اذ وجدوا في هذا القرار وسيلة للتدخل في شؤون لبنان الداخلية وجعل اصحاب الاقطاعات تحت رحمة مشير صيدا في خلافاتهم مع الوكلاء (١) ٠ فاراد اهل الجبل ولا سيما اصحاب الاقطاعات ازاحة هذا الكابوس ٠ وقد حارب هذا التدخل ، بصورة خاصة، الدروز لان اكثر الاقضية والقرى المختلطة كانت تابعة لقائمقاميتهم ٠ لذلك اتفقت كلمة فرنسا وانكلترا ، هذه المرة ، في تاييد اللبنانيين ، تاييدا حازما ٠

وقد جاء في المذكرة الشفهية التي رفعها مترجمو سفارات الدول الخمس الى وزير الخارجية التركية في ٨ شباط سنة ١٨٤٥ (٢)٠ انه " من المحال ان نقبل بسلطة والي صيدا ٠٠٠ او بطريقة اخرى تمس قاعدة استقلال الجبل اداريا "٠ (٣)

فاوضح الباب العالي في مذكرته الى ممثلي الدول في ٢٤ شباط سنة ١٨٤٥ (٤) " ان دائرة سلطة مشير صيدا على الوكلاء الذين يعيشون في القرى المختلطة لا تتجاوز حد النظر في المشاكل المعقدة التي تطرا بين الامتين ويتعذر تسويتها بينهما والقطع بها ٠ ولما كان الوكلاء لا يلجاون اليه الا عند الضرورة القصوى كما سبق فسلطته محدودة بحيث لا يكون له ان يتدخل في ادارتهم الخاصة الا في الظروف المبينة اعلاه "٠

وقد استمرت المراجعات الى ان قبل الباب العالي بوجهة نظر ممثلي الدول ، فاعلن في مذكرته المؤرخة في ١١ اذار سنة ١٨٤٥ (٥) " ان جلالة السلطان حبا ، باعطاء دليل جديد على حسن نياته وعواطفه ٠٠٠٠ نحو رعايا سلطنته وتحقيقا لرغبته في ضمان رفاهيتهم قد آثر هذا التدبير وفائدته وقوامه ان يكون مرجع اصحاب الاقطاعات

---

(١) تيستاج ٣ ص ١٦٤
(٢) المحررات ج ١ ص ١٦٩ ــ ١٧١
(٣) " " " ١٧١
(٤) " " " ١٧١ ــ ١٧٣
(٥) المحررات ج ١ ص ١٧٤ ــ ١٧٥

والوكلاء اذا اقتضى الحال الى قائمقامي امتيهما توا (١)". وهكذا اصبح بامكان اصحاب الاقطاعات والوكلاء المسيحيون في القائمقامية الدرزية ان يراجعوا ، في حالة قيام نزاع بينهم ، القائمقام المسيحي والعكس بالعكس (٢).

القسم الخامس

حوادث سنة ١٨٤٥ في الحقل الدبلوماسي

وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الدروز ساخطين . ففي شهري نيسان وايار عام ١٨٤٥ استانفوا حوادث سنتي ١٨٤١ و ١٨٤٢ بقيادة سعيد جنبلاط وحمود نكد فراحوا يهاجمون المسيحيين على مسمع ومراى من قوى الامن العثمانية التي كانت لا تحرك ساكنا . وقد صرح المسيو غيزو ، وزير خارجية فرنسا بذلك ، على اثر قراءته لتقارير المسيو بوجساده القنصل الفرنسي في بيروت : " ان تحيز مشير صيدا الجديد والقوات العثمانية العسكرية لمصلحة الدروز اصبح افظع واظهر من ذي قبل (٣) ".

وقد جاء في مذكرة قناصل الدول في بيروت في ٣ ايار سنة ١٨٤٥ الى وجيهي باشا الذي كان قد خلف اسعد باشا على ايالة صيدا في اذار سنة ١٨٤٥ انهم وجدوا من الواجب عليهم " ان يعقدوا اجتماعا بمناسبة الحوادث الخطيرة الجارية في لبنان الان .... وانه اجمع رايهم على ان الوسائل التي تذرع بها حتى اليوم ممثلو الدول في هذه الولاية ليس من شانها تحقيق امال الدول . ولا مراء انه منذ برهة وجيزة ارتكبت عدة جنايات بحيث انه تكاثر عددها وعدم انزال العقابات بمقترفيها هيج الاهواء وجرأ المفسدين واوصل الى الحالة المحزنة التي نشاهدها اليوم . ويأسف الموقعون ادناه خاصة على اهمال اتخاذ الذرائع اللازمة منذ بدء وقوع الجرائم لمعاقبة الجناة واستئصال جرثومة الشرور رغما عن الملاحظات الودية العديدة التي راى كل منا من واجبه ابداءها على انفراد . ويأسفون ايضا على ان جنود السلطان بدلا من ان تستخدم في سرعة قمع الاقتتالات التي حدثت منذ ايام التزمت جانب الحياد مما سهل انتشار العداء وتفاقمه ".

---

(١) المحررات ص ١٧٥

(٢) تيستا ج ٣ ص ١٧٢

(٣) مارتنز ، المجموعة الجديدة العامة للمعاهدات ج ٨ ص ١٢

وفي المذكرة التي اجاب بها محمد وجيهي باشا على مذكرة قناصل الدول والمؤرخة في ٥ ايار سنة ١٨٤٥ (١) اعترف والي صيدا الجديد بوقوع الاضطرابات في جبل لبنان (٢) وابدى اسفه لذلك، واشار الى التدابير الشديدة الكثيرة التي اتخذها (٣) كما انه دافع عن الجنود العثمانيين وبين ما اظهروه من "النشاط والسهر في دير القمر وسائر الاماكن" (٤) واعلن رغبته في اصلاح ذات البين بين الطائفتين مبينا حرصه على الامن وراحة الاهالي وموطدا العزم على اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة (٥).

غير ان هناك بعض الوثائق التي تثبت الى حد ما تحيز قوى الامن التركية للدروز بل تكشف النقاب عن تحريض الموظفين الاتراك للدروز على المسيحيين. من ذلك ما جاء في كتاب الشيخ سعيد جنبلاط الى الشيخ حمود ابي نكد (٦): "لقد علمتم .... ما فعلته الامة المسيحية .... في الشوفولو لم تنجدنا جنود الباب العالي لكانت بددت شملنا. اما الان فقد اجاز" حضرة صاحب الدولة داوود باشا لنا ولسائر الجماعات الدرزية الفتك بهذه الامة وابادتها" وجاء في كتاب منه ايضا الى مشايخ اقليم الخروب واعيان المسلمين (٧): "... فالباب العالي قد جاد وسمح لنا بمهاجمتها (الامة المسيحية) لمحو اثارها وان دولة افندينا داوود باشا المعظم قد فوض الينا محاربتها وساعدنا عليها بجنوده السلطانية. وقد ذكر ناشر المحررات السياسية (٨) ان هذين الكتابين قد اوردهما المسيو بوجاد قنصل فرنسا في بيروت في كتابه عن سوريا ولبنان من ١٨٤٥ حتى ١٨٦٠ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٩، وعلق عليهما بقوله ان الشيخ المذكور كتبهما في بدء فتنة سنة ١٨٤٥ فوقعا بين يديه وسلمهما الى وجيهي باشا مشير ايالة صيدا فاعترف بصحتهما.

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٧٧ ــ ١٨١
(٢) " " " " ١٧٧
(٣) " " " " ١٧٨ ــ ١٧٩
(٤) " " " " ١٨٠
(٥) " " " " ١٨١
(٦) " " " " ١٨١ ــ ١٨٢
(٧) " " " " ١٨٢ ــ ١٨٣
(٨) " " " " ١٨١ ــ ١٨٢

وجاء في كتاب اهالي زحلة الى المسيو بوجاد سنة ١٨٤٥ (١) " لقد هاجمنا الدروز متزيين بزي الالبانيين فزحف عليهم شباننا المسيحيون وهزموهم ... فلما راى الاتراك انتصارنا ارسلوا علينا جهران عورا وقاسم مصطفى اغا مصحوبين بالجنود التي صوبت نحونا نار بنادقها فتراجعنا اذ ذاك الى الوراء وفي الوقت عينه فاجات جماعة اخرى من الدروز المسيحيين المقيمين في راس المتن وكسروهم فلم يعمل الباشا على ايقاف الدروز بل تركهم يحرقون كل المتن .... ويؤخذ من الافادات التي تلقيناها ما يثبت ان الدروز لم ياتوا لمحاربتنا الا مكرهين من اصحاب الاقطاع فانهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي ... ان الحكومة كانت قد نفت سعيد بك جنبلاط والامير محمد ارسلان وحمود وناصيف ابي نكد وخطار عماد ويوسف عبد الملك ولم تعاقب احدا منهم بل سمحت لهم بالعودة الى لبنان لاثارة الدروز علينا ".

" ومن الممكن عقد الصلح بين فلاحي الدروز والمسيحيين انما يتعذر ذلك مع زعمائهم الذين يريدون حفظ امتيازاتهم وسلطتهم على اخواننا ... ".

وعندما هاجم الدروز اديرة الاباء الكبوشيين في عبيه وصاليما وارتكبوا بعض الفظائع في دير عبيه بحضور مصطفى بك قائد الجنود العثمانيين (٢) ثارت ثائرة الحكومة الفرنسية وسائر الحكومات الاوروبية فوجه قناصلها في بيروت في ١٧ ايار مذكرة شديدة اللهجة الى وجيهي باشا جاء فيها : " بينا تشيدون بالسلم قد سمحتم للجنود السلطانية المفروض عليها منع الفريقين من الاقتتال ان تنضم في قضاء جزين الى الدروز ضد المسيحيين وتركتم الدروز يدخلون المتن ويجتازون هذا القضاء ويضرمون فيه النار ويقدمون على حرق القرى المسيحية حتى المشرفة على بيروت وتقع عليها انظار القناصل ".

وقد طلبوا اليه اولا : اخراج الدروز من المتن وابعاد الاخطار عن كسروان .

ثانيا : ارسال القائمقامين واصحاب الاقطاعات الوكلاء الى بيروت .

وقد طالب المسيو فيزو " بتنفيذ الترتيبات المقررة بشان ادارة الاقضية المختلطة ومحو كل اثر لادارة درزية على المسيحيين وازالة الفكرة السائدة ان الباب العالي اراد

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٨٣

(٢) المحررات " " ١٨٤ ــ ١٨٥

ابادة المسيحيين بواسطة الدروز اواضعاف الفريقين باثارة المذابح بينهما وذلك ليتمكنون السيطرة على الجبل بسهولة (١) ".

وقد اظهر الباب العالي حسن نيته فوجه مذكرة الى سفراء الدول في ٢١ ايار سنة ١٨٤٥ (٢) اقرفيها مضمون المذكرة التي بعث بها محمد وجيهي باشا الى قناصل الدول في بيروت في ٥ ايار سنة ١٨٤٥ واكد فيها "ان من واجبات الباب العالي ... ان يضع عاجلا حدا للاضطرابات التي طرات ويعيد الامن الى نصابه ... وانه لا يحجم عن اتخاذ كل وسيلة من شانها تنفيذ ما استقر رايه رايا ... (٣) ".

وقد حاولت السلطات التركية الاصلاح بين الطائفتين المتنازعتين وتمكنت من عقد اتفاقية بينهما في ٢ حزيران سنة ١٨٤٥ (٤) تعهد فيها الفريقان المتقاتلان بتناسي الماضي واحقاده وبدء عهد جديد من الاخاء والود والتعاون والسلام وعدم الاعتداء على بعضهما البعض وتسليم الجناة ، واعترفا للحكومة بحق اقامة الجنود على حراسة طرق الشام وصيدا ودير القمر وطرابلس .

غير ان الدول لم تكتف بذلك كله بل ظلت تلح على الباب العالي بايجاد حل افضل للمسالة اللبنانية . وتمكن شكيب افندى الذى كان قد خلف رفعت باشا في وزارة الخارجية التركية ، من المماطلة في اجابة الدول على هذا الطلب ، مدعيا ان هذا التاخير " تبرره اسباب خارجة عن ارادته " . واخيرا اضطر البارون دى بروكتيه سفير فرنسا الى ايفاد مترجمه الاول للمطالبة بجواب سريع على مذكرة سفراء الدول المشار اليها في مذكرة الباب العالي اليهم في ٢١ ايار سنة ١٨٤٥ (٥) . فادرك شكيب افندى انه لم يعد بامكانه تاخير الجواب "فابلغ مترجم السفارة الفرنسية بان جلالة السلطان فوض اليه الذهاب الى لبنان لاعادة الامن الى ذلك الصوب وتسوية جميع المسائل الحادثة " (٦) . واضاف شكيب افندى قائلا "انه لم يكن في وسعي ان اوضح له .... مقدار استعظامي هذه الحوادث الا باخذى

---

(١) ماتنز المجموعة الجديدة للمعاهدات ج ٨ ص ١٤

(٢) المحررات ج ١ ص ١٨٦ ــ ١٨٧

(٣) " " " " ١٨٧

(٤) " " " " ١٨٨ ــ ١٩٠ .

(٥) المحررات ج ١ ص ١٨٦

(٦) " " " " ٢٠٤

على عاتقي مهمة انمائها في محلها" وقد اوضح شكيب افندى ان التعليمات قد ارسلت الى نامق بك مشير فيلق البلاد العربية ان يعضد ناظر الخارجية في مهمته وان الباب العالي سيلفت انظار الدول صديقاته الى اجبار قناصل الدول المقيمين في بيروت على لزوم دائرة وظائفهم وتحاشيهم التدخل في شؤون رعايا السلطان وعرقلتمساعي الباب العالي الاصلاحية والى وجوب تحديد خصائص اصحاب المقاطعات والوكلاء بحيث يؤمن الاولون على حقوقهم وامتيازاتهم ويحفظ الفوائد التي اصابها المسيحيون في المواثيق الاخيرة ثم الى ضرورة استعمال وسائل الاكراه اذا قاوم احد الفريقين ودعت الحاجة الى ذلك " (١)

ولم يكتف شكيب افندى بهذا الجواب الشفهي للسفارة الفرنسية بل وجه في ٢٨ تموز سنة ١٨٤٥ مذكرة الى ممثلي الدول الخمس الكبرى (٢) ابلغهم فيها ان جلالـــة السلطان قد عهد اليه بتسوية المسالة اللبنانية تسوية نهائية وانه عول على استعمـــال القوة لتنفيذ ما استقر عليه الراى . وقد وعد شكيب افندى بتوزيع قسم من التعويضات على الموارنة عند الشروع بتسوية المسالة ودفع الباقي عند الانتهاء من مهمته . واوضح شكيب افندى ان غاية المهمة " الموكولة اليه هي تنفيذ التدابير المتخذة قبلا وحديثا بشان الادارة المحلية بتمامها مع مراعاة الامتيازات الخاصة التي منحها جلالة السلطان (٣) "

وقد طلب شكيب افندى الى سفراء الدول " ان يتحاشى قناصلهم في بيروت التدخل في المسالة ان في اساسها وان في فروعها (٤) " . وبين اخيرا وزير الخارجية التركية الطريقة التي سيحل بها مشكلة القرى المختلطة فقال :" ان ادارة هذه القرى تتضمن : اولا : المسائل الحقوقية ثانيا : الشؤون السياسية ثالثا : السلطة الاجرائية . فكل دعوة او خلاف يقع بين اشخاص من طائفة واحدة وله علاقة بالوجه الاول ينظر فيه وكيل طائفتهم ويفصله منفردا . اما اذا كان احد المستدعين من طائفة وخصمه من طائفة اخرى فلوكيل احدهما ومتولي اقطاعة الاخر ان ينظرا معا في الخلاف . فاذا لم يتفقا

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٠٥
(٢) " " " " ٢٠٥ _ ٢١٠
(٣) " " " " ٢٠٧
(٤) " " " " ٢٠٣

يلجأ الى القائمقام " .

" اما المسائل العمومية التي لها علاقة بشؤون السياسة كتنفيذ اوامر الحكومة او اوامر والي الولاية واستيفاء دخل البلاد فالوكلاء يكونون وسطاء طائفتهم لدى اصحاب الاقطاعات لتنفيذ الاوامر " .

" اما في ما له علاقة بالسلطة الاجرائية فلما كان تقسيمها يعرقل عملها فلا يمكن اشراك الوكلاء فيها ولذلك فعملا بالقاعد ة الجارية في كل مكان يعهد الى اصحاب الاقطاعات وحدهم مستقلين بحفظ الراحة وقمع الاضطرابات . انما متى سجن احد اصحاب الاقطاعات شخصا من غير طائفته فيتفق مع الوكيل على العقاب الذى استحقه ... واذا تباينت الاراء بخصوص الحكم يلجأ الى القائمقام ويحق للوكلاء ان يسهروا على عدم اساءة معاملة السجين قبل الحكم عليه (١) " .

القســم الســادس
مهمة شكيب افندى وازمــة عام ١٨٤٥

وصل شكيب افندى لبنان في ١٤ ايلول سنة ١٨٤٥ . وفي ١٦ ايلول اجتمع به القنصل الفرنسي لاول مرة فبين له مطالب الحكومة الفرنسية . وكان اهمها في ذلك الوقت انهاء مسالة " التعويضات والترضية المتوجبة عن قتل الاب شارل (٢) ونهب ديرى عبيه وصليما (٣) ".

ولكن على الرغم من مراجعات البارون دى بوركنيه في القسطنطينية والمسيو بوجاد في بيروت بهذا الشان فان شكيب افندى لم يعر مسالة الاديرة الفرنسية كبير اهتمام بل اراد " معالجتها مع القضايا العامة في ان واحد بدلا من حلها على حدة ، كما سبق له ان تعهد بذلك " . (٤)

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٠٩

(٢) قتله الدروز الذين هاجموا ديرعبيه في ٥ ايار سنة ١٨٤٥ بقيادة محمود ابو نكد (المحررات ج ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥)

(٣) المحررات ج ١ ص ٢١٢ ، مارتنز ، ج ٨ ص ١٥٥

(٤) مارتنز ج ٨ ص ١٥٥

واول عمل قام به شكيب افندى في لبنان طلبه الى القناصل " استدعاء المسافرين الاوروبيين والاجانب المقيمين في داخلية البلاد في مهلة احتفظ بحق تحديدها فيما بعد الى ان تتم اعادة الراحة " (١).

وحاول المسيو بوجاد اقناع شكيب افندى بالرجوع عن قراره فلم يوفق ، بل تمسك المفوض السامي التركي برايه ولم يتحمل تبعة حياة الاجانب داخل جبل لبنان بل اكتفى بتحمل تبعة املاكهم فقط. كما طلب تصريحا دقيقا عن كافة هذه الاملاك (٢).

وقد قبل قناصل انكلترا والنمسا وبروسيا والروسيا الانذار ورفضه قنصل فرنسا. وقد وجه البارون دى بوركنيه في ٤ تشرين سنة ١٨٤٥ مذكرة (٤) الى عالي باشا وزير الخارجية التركية بالوكالة احتج فيها على ابعاد شكيب افندى للاجانب الموجودين في جبل لبنان ملقيا تبعة هذا العمل على الباب العالي ومعتبرا ذلك مخالفة صريحة "للمعاهدات والامتيازات الاجنبية " (٥). وقد صرح المسيو دبوركنيه في مذكرته "انه اذا كان اكره بالقوة احد من الرهبان والتجار الفرنسويين المقيمين في الجبل على ترك الاماكن التي كانوا يقطنونها فيكون الباب العالي مسؤولا تجاه حكومة الملك عن خرق حرمة الامتيازات التي تتمتع بها اديرة الرهبان ومحلات التجار الفرنسويين المذكورين (٦) ".

وقد ادعى عالي افندى انه لم يكن مطلعا على قرار شكيب افندى بشان ابعاد الاجانب من جبل لبنان واعترف بوجوب حمايتهم ثم صرح بان الباب العالي طلب الى شكيب افندى حماية الاديرة والمحلات الاجنبية ومحاكمة قتلة الاب شارل وتنفيذ العقاب الذى سيفرض عليهم ، والتحقيق حول اعمال النهب في ديرى عبيه وصليما وتقدير الخسائر لدفع التعويضات الى اصحاب الديرين المذكورين. ووعد عالي افندى في

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢١٠
(٢) مارتنز ج ٨ ص ٢٠ ، المحررات ج ١ ص ٢١٤
(٣) المحررات ج ١ ص ٢١٦ ــ ٢١٨
(٤) المحررات ج ١ ص ٢١٠ ــ ٢١٢ ، مارتنز ج ٨ ص ١٥ وما بعدها
(٥) المحررات جزء ١ ص ٢١١
(٦) " " " ٢١١ ــ ٢١٢
(٧) " " " ٢١٢ ــ ٢١٤

اخر مذكرته ان يسوى بالطرق الحبية مسالة التعويضات التي تحق للفرنسيين الذين ابعدوا بالقوة •

ولكن الحكومة الفرنسية لم تكتف بهذا الجواب • فاعاد البارون د ى بوركنيه الكرة على الباب العالي في ١٦ تشرين الاول سنة ١٨٤٥ (١) طالبا باعادة الفرنسيين الى اماكنهم ودفع التعويضات الى مناكره منهم على تركها واستدعاء الشيخ حمود ابي نكد الى الاستانة ومحاكمته فيها والبحث عن شركائه ودفع التعويضات الى د يرى عبيه وصليما ومعاقبة الضابط الذى كان يقود فصيلة الجند التي شهدت نهب دير عبيه كما طلب مقابلة جلالة السلطان وهدد مغادرة العاصمة التركية اذا لم يجب الى مطالبه •

وقد حرص البارون د ى بوركنيه على التعاون مع زملائه سفراء الدول الكبرى فاطلعهم على اتصالاته بالباب العالي وعلى اهمية المسائل المذكورة في الفقرة السابقة بالنسبة الى الحكومة الفرنسية (٢) •

وادرك الباب العالي خطورة الموقف فقرر الاستمرار في اظهار حسن نواياه واعلن موافقته على جميع المطالب الفرنسية ما عدا التعويض على الرعايا الفرنسيين الذين اضطروا الى مغادرة لبنان ، "لان الدول الاربع الباقية قد قبلت بالتدبير المذكور فلا سبيل الى التعويض على رعايا الدولة الوحيدة التي رفضته (٣) " • ووافق الباب العالي "على اعادة المذكورين مع التعهد بحمايتهم داخل اماكنهم وانكار الحق بالتعويض عليهم " ، وعلى "نقل الشيخ حمود نكد الى الاستانة كرهينة سياسية ، ونفيه الى احدى نواحي السلطنة" و " التعهد بالبحث عن قتلة الاب شارل وباستثنائهم من العفو العام الذى سيعطى نور تسوية مسائل لبنان " والتعهد بدفع التعويضات لديرى عبيه وصليما واستدعاء ضابط الجنود العثمانية في عبيه الى الاستانة ومحاكمته امام مجلس حربي " •(٤)

وهكذا تمكنت فرنسا من احراز النصر التام في موقفها ازاء التصرفات التي قام بها

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢١٤ — ٢١٥
(٢) مارتنز ج ٨ ص ١٦ — ١٨
(٣) المحررات ج ١ ص ٢١٦
(٤) " " " ٢١٦ — ٢١٧

شكيب افندى في لبنان ، بفضل الحزم الذى اظهرته وعدم معاكسة الدول الاوروبية لها في مساعيها • وقد ابلغ البارون دى بوركنيه في ٣ تشرين الاول سنة ١٨٤٥ انتصاره للمسيو غيزو باعتزاز عظيم • وما جاء في كتابه الى وزير الخارجية الفرنسية قوله :" ان الازمة التي شهدتها هي اكبر الازمات الدبلوماسية التي عرفتها حدة واشتدادا (١)".

والحقيقة ان فرنسا خرجت ظافرة من هذه الازمة ، ولعل ظفرها هذا قد عوض عليها كثيرا مما سببه فشلها خلال ازمة عام ١٨٤٠ • فقد اعترفت تركيا والدول الاوروبية اعترافا ضمنيا بمصالحها وحقوقها الخاصة في الشرق وفي لبنان بموجب الامتيازات ، كما قبلت تركيا بان تدفع معظم التعويضات التي طالبت بها فرنسا • وهناك مسائل اخرى اثارت مشاكل بين تركيا وفرنسا منها ، اولا : مسالة جمع الاسلحة ، فقد دعا شكيب افندى كبار زعماء الدروز والموارنة الى دير القمر لتلقي بعض التعليمات الرامية الى اعادة السلام الى ربوع لبنان ، فتوجهوا اليها ، وعندما وصلوها احاط الجند بالمدينة من كل صوب واحتلوا اهم النقاط الستراتيجية • وقبل ان يجتمعهم شكيب افندى امر بايقاف القائمقامين الماروني والدرزي وسجنهما • وعندما وصل الى دير القمر انب مشايخ الطائفتين واتهمهم باثارة الفتن والضغائن والاضطرابات • وقد ابقاهم شكيب افندى في السجن فتمكن بذلك من حرمان الدروز والموارنة من زعمائهم ، ثم باشر بتجريد جميع السكان من السلاح ، فتوجهت القوى العسكرية والتركية الى جميع القرى ففتشتها بيتا بيتا وحديقة حديقة ، ولم تتورع عن دخول الكنائس والاديرة • ثم انصرفت الى ملاحقة الفارين باسلحتهم فتعقبتهم حتى تمكنت من القبض عليهم ، واستخدم الجند في اعمال جمع السلاح صنوف الشدة ، مما حمل ممثلي الدول على تقديم الاحتجاجات بهذا الشان (٢) • وقد اعرب قناصل الدول في بيروت لشكيب افندى عن استنكارهم " لوسائل التنفيذ التي تستخدمها السلطات العثمانية لتنفيذ تدابيره " ولكن ذلك كله لم يجد نفعا •

وقد استمر استخدام القوة والعنف الى ان قامت ازمة جديدة بين الباب العالي من جهة وفرنسا والدول الاربع الكبرى من جهة ثانية • وسبب ذلك ان مترجم القنصلية الفرنسية

---

(١) مارتنز المجموعة الجديدة العامة للمعاهدات ج ٨ ص ٢٢

(٢) مارتنز المجموعة الجديدة العامة للمعاهدات ج ٨ ص ٢٣ ، المحررات ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٤٢

منذ اكثر من ١٥ سنةاوقف نجاة وزج في سجن بلدة "الذوق" دون سبب اوسابق انذار بامر من قائد حاميةبيروت ابراهيم باشا ، وكان هذا التوقيف انتهاكا صريحا للحصانات والامتيازات الاجنبية • فطالب المسيو بوجاد الى وجيهي باشا وداوود باشا اخلاء سبيل مترجم قنصليته فورا ، فرفض طلبه ، فتوجه عندئذ القنصل الفرنسي الى شكيب افندى نفسه ثم اوفد قواص قنصليته ليطالب باسمه بتسليم الموظف السجين • فرفض ابراهيم باشا اخلاء سبيله ، بل هدد قواص القنصلية الفرنسية بالحبس • ولم يلبث ان نقل خليل المدور من سجن "الذوق" الى سجن جونيه • ولم يكن بوسع القنصل الفرنسي ولا قناصل الدول الاوروبية السكوت عن هذا الحادث الخطير • فقد وجدوا فيه مسا صريحـــا مباشرا للحظانة القنصلية ، ووجد فيه المسيو بوجاد بصورة خاصة انتهاكا صريحا للامتيازات • فكرر المسيو بوجاد رغبته لشكيب افندى في الافراج عن المترجم خليل المدور مهددا باستخدام الدارعة الحربية La Belle Poule التي كانت راسية في مياه بيروت لانقاذ السجين بالقوة • فلم يابه المفوض السامي التركي لهذا الانذار مدعيا بان المدور قد تجاوز حقوقه عندما سمح لنفسه ان يناوئ" الاتراك • عند ذلك امر المسيو بوجاد الدارعة الانفة الذكر ان تتوجه الى جونيه ، وعندما وصلت نزل احد ضباطها الى اليابسة مطالبا بالموظف السجين، فرفض ابراهيم باشا تسليمه • عند ذلك امر قائد الدارعة رجاله بالاستعداد لاطلاق النار ، فلما راى ابراهيم باشا ان التهديد كان جديا وان المسالة يمكن ان تتطور الى ما لا تحمد عقباه رضخ للطلب الفرنسي وسلم الموظف السجين • وفي ٢٩ تشرين الاول كانت الدارعة La Belle Poule قد عادت الى بيروت (١) ــ وقد اثار هذا الحادث ضجة عظيمة في اوروبا واحتج شكيب افندى على ما سماه بخرق حرمـــة القانـــون الدولي • ولكن احتجاجـــه اثار احتجاجا جديدا مـــن قبل المسيـــو بوجاد القنصل الفرنسي الذى حظي بتاييد جميع اعضاء الهيئة القنصلية لان جميع الدول كان يهمها ان تحترم السلطات العثمانية حصانات قناصلها وامتيازاتهم •

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٤١ ــ ٢٤٢

ومما حمل الدول عموما وانكلترا وفرنسا خصوصا على مجابهة الحكومة التركية ايضا اعتقال شكيب افندى للقائمقامين الدرزى والماروني • وقد ابلغ الكولونيل روز ، القنصل الانكليزى في بيروت ، سفيره في القسطنطينية السر سترافورد كانين ، في تقرير مفصل عن حادث خليل المدور واعتقال الاميرين الدرزى والماروني والاساليب التي يستخدمها الاتراك في نزع السلاح من اهالي لبنان (١) • فدعا السر سترافورد سفراء الدول الى اجتماع في (بيرا) عند نائب السفير البابوى ، فعرض عليهم تقرير الكولونيل روز وطلب اليهم افادته عما اذا كانت معلوماتهم تتفق ومعلوماته ، فكان جوابهم بالايجاب• عند ذلك اقترح السير سترافورد على سفراء الدول القيام بمراجعة مشتركة للباب العالي لسؤاله عن الحوادث "التي كانت تثير انتقادات بشان تنفيذ التعهدات المقطوعة من قبل الباب العالي للدول في سبيل تنظيم لبنان والمحافظة على امتيازات ابنائه "وقد ايد جميع الحاضرين الاقتراح البريطاني " ثم اتفقوا على نص مذكرة مشتركة باسم حكوماتهم تقدم الى الباب العالي ، وقد لفتت الدول في هذه المذكرة نظر السلطان الى نقاط ثلاث• اولا : دفع التعويض المتوجب للموارنة من قبل الدروز والذى لم يكن قد دفع على الرغم من ضمانة الباب العالي • ثانيا : نزع السلاح ، الذى شمل بصورة خاصة المسيحيين بحيث يمكن ان يتركهم يوما ما يقعون لقمة سائغة في ايدى الدروز • ثالثا : عزل القائمقامين الدرزى والماروني ، الامير احمد ارسلان والامير حيدر ابو اللمع ، بصورة فجائية • وقد لاحظت الدول في مذكرتها للباب العالي ان القائمقامين الدرزى والمسيحي المكلفين ادارة لبنان وفاقا لترتيب اقرته الدول الخمس والباب العالي يجب ان يتمتعا بالاحترام اللازم لجعل الاهالي يحترمون سلطتهما وذلك في سبيل خير الجبل وراحته واطمئنانه ، وجاء في المذكرة ايضا انه "لا يجوز ترك القائمقامين تحت رحمة وال بسيط • وطالبت الدول في مذكرتها هذه بان ينزع حق تعيين القائمقامين ~~وعزلهم~~ من صلاحيات والي صيدا فيتبع القائمقامان بعد اليوم السلطان مباشرة (٢)•

وهذه المذكرة ذات اهمية دولية كبرى اذ ان الدول الاوروبية اعلنت فيها لاول مرة وبصورة جلية حقها في حماية مسيحيي الامبراطورية العثمانية بواسطة التدخل الجماعي •

---

(١) مارتنز ، المجموعة الجديدة العامة للمعاهدات ج ٨ ص ٢٤ ومابعدها

(٢) مارتنز جزء ٨ ص ٢٨

كذلك اعلنت هذه الدول حمايتها الجماعية بصورة صريحة لامتيازات ولاية عثمانية معينة واستقلالها الذاتي . مضيقة بذلك نفوذ السلطان وحققة تعاونا جديدا بين دول اوروبا ، في سياستها الشرقية . فبدلا من ان تترك الروسيا أودولة اوروبية غيرها تتدخل منفردة في شؤون تركيا بحجة الرغبة في حماية المسيحيين ، اصبحت تتدخل تدخلا جماعيا شاملا وبدلا من ان تقتطع من الامبراطورية العثمانية ولاية كانت تدعو الى التدخل الاوروبي للحصول على استقلالها ، اصبحت هذه الدول تطلب من السلطان اجراء الاصلاحات اللازمة في هذه البلاد ومنحها الاستقلال الذاتي وبعض الضمانات السياسية ، متعهدة بمراقبة تنفيذ الاصلاحات وتطبيق الانظمة . ولم يكن بوسع عبد المجيد ان يقاوم الانذار الاوروبي فاكتفى بتوجيه شكوى الى فرنسا حول خرق حرمة الاراضي العثمانية في جونيه ، ولكن الحكومة الفرنسية ايدت تصرف قنصلها في بيروت وتدخل بحارتها في جونيه كما رفضت سائر الحكومات الاوروبية شكوى الباب العالي ، عندئذ سارع عالي باشا الى اظهار حسن نيته من جديد فاطلع "البارون دى بوركنه " على البرقيات التي وجهها الى شكيب افندى ، موعزا اليه ان يطمئن اهالي لبنان بأن نزع السلاح من ايديهم لا يراد به مس امتيازاتهم القديمة ، وان لا يستخدم القوة الا في الظروف القاهرة (١) ، واسر عالي باشا الى السفير الفرنسي ان الباب العالي سيوفد مندوبا جديدا الى جبل لبنان للتحقيق في اعمال القوات النظامية وفرض العقوبات اللازمة على المذنبين (٢) . ولكن الحكومة الفرنسية والبارون دى بوركنيه لم يتأثرا بهذه المحاولات التركية بل بقيا حريصين على التعاون مع سائر الدول الاوروبية ، فاطلع البارون دى بوركنه زملاءه على ما تلقاه من مخابرات لمعرفة اذا كانت هذه المخابرات تدعو الى تعديل في المقررات المتخذة سابقا . فاجمع رأى الجميع على اعتبار المخابرات الجديدة كأن لم تكن . واستمر اجماع آراء الدول واتفاقها على الخطط اللازمة تامين (٣) . عند ذلك رضخ الباب العالي لارادة الدول فاعلن الحاج امين باشا بشكيب افندى وسفره الى بيروت مزودا بالاوامر اللازمة لاجابة رغبات سفراء الدول الاوروبية . كما اعلن تعيين كامل باشا واليا لصيدا خلفا

---

(١) المحررات ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

(٢) مارتنز " المجموعة الجديدة للمعاهدات ج ٨ ص ٢٦

(٣) مارتنز المجموعة الجديدة للمعاهدات ج ٨ ص ٢٦

لوجيهي باشا ٠ واكد الباب العالي لسفرا" الدول ايضا ان القسط الاول من التعويض المتوجب للموارنة قد دفع وفقا لوعود السلطان ، وان القسط الثاني سيدفع قريبا ٠ واضاف الباب العالي ان نزع السلاح سيكون تاما نزيها لان المصلحة تقضي بوضع الدروز والمسيحيين في حالة يعجزون فيها من مخالفة اوامر السلطان ، ونشر الفوضى في لبنان ٠ كذلك الغي القرار القاضي بعزل القائمقام الدرزي احمد ارسلان واعيد القائمقام المذكور الى وظيفته ، واعلن السلطان ايضا ان عزل احد القائمقامين لا يمكن ان يجرى في المستقبل الا بعد موافقة السلطان ، وقد كرست المذكرة العثمانية اخيرا ، في الحقل القضائي ، المساواة بين الدروز والمسلمين والمسيحيين في الجبل ، كما اعلنت قبول شهادة الموارنة كما تقبل شهادة الدروز في جميع الدعاوى والقضايا الجنائية (١)٠ وادرك شكيب افندى ان عليه ان يتراجع فاعلم القناصل الفرنسيين بعزمه على "ان ينفذ تنفيذا تاما جميع الترضيات التي وعد بها الباب العالي البارون دى بروكتيه (٢)٠ وقد تمكن شكيب افندى عند ذلك من تنفيذ النظام الذى استمر في لبنان حتى عام ١٨٦١٠

القسم السابـــــع

نظام شكيب افندى

هناك ثلاث وثائق يمكن ان نستمد منها النظام الذى وضعه شكيب افندى للبنان عام ١٨٤٥ ٠ اما الاولى فهي الاتفاقية التي عقدت في بيروت بين الدروز والموارنة بواسطة بحرى باشا ورئاسته في ٢ حزيران سنة ١٨٤٥ والتي سبق ان اشرنا اليها في مكان اخر (٣) ٠ والوثيقة الثانية هي تعليمات شكيب افندى الى مجلس القائمقاميتين في اخر تشرين الاول سنة ١٨٤٥ (٤)

اما الوثيقة الثالثة فهي نظام مجلس القائمقاميتين وقد عثر عليه ناشرا المحررات السياســـــية في مكتبة دير سيدة بكركي المقر البطريركي الماروني ، مقسما الى

---

(١) مارتنز ، ج ٨ ص ٢٨ ــ ٢٩

(٢) " " " " ٨ ص ٢٧

(٣) المحررات ج ١ ص ١٨٨ ــ ١٩٠

(٤) " " " " ٢١٨ ــ ٢٢٧

مواد (١)٠ وعلى الرغم من ان الوثيقةالثالثة تكاد تكون كالوثيقةالثانية تماما في مضمونها فقد كان اعتمادنا على الوثيقتين الاولى والثانية في الدرجة الاولى لان الوثيقة الثالثة لم ترد في مجموعات الوثائق الديبلوماسية والمعاهدات الدولية التي رجعنا اليها ولاننا غير واثقين من موافقة الدول على النظام الذي تتضمنه هذه الوثيقة ٠

لقد ابقى شكيب افندى لبنان مقسوما الى قائمقاميتين (٢) على الرغم من جميع المحاولات التي قام بها الموارنة دائما وايدها الدروز في بعض الاحيان (٣)٠ وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها فرنسا في سبيل اعادة الامارة اللبنانية كما مر معنا ٠ وقد وفر للمسيحيين بعض الضمانات الجديدة، اذ افسح المجال امامهم للاشتراك في ادارة شؤون القائمقامية الدرزية وكانوا ، بحكم اكثريتهم الساحقة مسيطرين على كل شيء في القائمقامية الشمالية المسيحية ٠ (٤)٠

" كتب فرمان شاهاني يؤذن بتاليف مجلس لدى كل قائمقام ٠٠٠ لمعاونته على اجراء وظائفه نظرا في دعاوى الاهلين الخاضعين للقائمقاميتين الخاصة والعامة وفقا للعادات القديمة المكانية وللاصول المذهبية " ٠٠٠ "ولما كان اهالي لبنان مقسومين الى طوائف عديدة ٠٠٠٠ فينتخب اعضاء المجلس من الاعيان الاكثر جدارة في كل طائفة " ٠

وهكذا تمكن شكيب افندى في انشاء مجلس ادارى في كل قائمقامية من اشراك كافة الطوائف بالادارة ومن ايجاد هيئات ادارية رسمية ٠ فقد تناولت تعليمات شكيب افندى تنظيم القضاء والضرائب تنظيما جديدا ٠ اما القائمقامان المسيحي والدرزى فقد بقيا موظفين يختارهما مشير صيدا من المسيحيين الموارنة ومن الدروز ٠ وكان كل منهما يراس المجلس المؤلف في قائمقاميته ويراقبه ٠ وفي حالة غيابه كان ينوب منه شخص " يختار من بين معتبرى الجبل الاكثر وجاهة ويعهد اليه برئاسة المجلس ومناظرته " مدة غياب القائمقام ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٢٧ ــ ٢٣٧

(٢) " " " " ٢١٩

(٣) " " " " ١٣٤ و ١٣٥

(٤) " " " " ٢١٩

وكان اعضاء المجلس الاداري في كل من القائمقاميتين ينتخبون "من الاعيان الاكثر جدارة في كل طائفة . ولكل طائفة . ولكل طائفة ان تختار عضوا خلا القضاة المنتقين من جميع هذه الطوائف فيحضرون الجلسات مع سائر الاعضاء وقد وكل اليهم خاصة النظر في دعاوى ابناء مذهبهم وفصلها وفقا لعقيدتهم الدينية (١). وعليه يؤلف كل مجلس على الصورة الاتية : من وكيل قائمقام ، وقاض ومستشار مسلمين ، وقاض ومستشار درزيين ، وقاض ومستشار مارونيين ، وقاض ومستشار اورثوذكسيين ، وقاض ومستشار من الروم الكاثوليك ومستشار شيعي فقط لان قاضي الاسلام يقضي في الطائفتين معا .

وهؤلاء القضاة والمستشارين ينتخبون ويعينون بمعرفة مطارنة وعقال كلتا الطائفتين . وبعد نهاية انتخابهم يجب عليهم ان يذهب كل منهم الى رئيسه اى قائمقامه الخاص وهو يعين لهم مكان اجتماعهم ، وهنا يقتضي عليهم ان يعقدوا كل يوم خلال ايام العطالة (الاعياد) مجلسا للتفاوض في كل المسائل التي يعرضها القائمقام على ابحاثهم وفقا للطريقة المشروحة ادناه (٢). اما الاعضاء الذين تألف منهم المجلسان لاول مرة فقد عينهم شكيب افندي بنفسه ، وكان عليهم "ان يقوموا دون انقطاع بوظيفتهم (٣) اى انهم عينوا مدى الحياة . وفي حالة استقالتهم او عزلهم او وفاتهم يجرى تعيين خلفائهم " بواسطة الاساقفة والعقال وبمناظرة القائمقام واعضاء المجلس ورايهم ". ومن المعلوم ان انتخاب اعضاء المجلسين لا يصبح نهائيا الا بعد موافقة مشير صيدا . وكانت هناك شروط اربعة يطلب ان تتوفر في المرشحين .

اولا ان " ينتقى المرشح من اهالي المحلات الداخلية في حكم قائمقام المجلس المراد انتخابه ".

ثانيا "ان لا يكون استخدم عند المعتمدين الاجانب او تظلل في الحماية الاجنبية من جراء مشاركته اجنبيا .

ثالثا "ان لا يكون من سكان القرى الخارجة عن دائرة الادارة الجبلية " .

فالمجلسان في القائمقاميتين كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالقائمقامين وكان مرجعهما الاخير مشير صيدا اى باشا تركي . وقد تمكن شكيب افندي بفضل الشرط الثاني

---

(١)

(٢) المحررات ج ١ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠

(٣) " " " ٢٢١

الذي اراد ان يتوفر في المرشحين لعضوية المجلسين الاداريين من انتفاء كل تاثير اجنبي من اعمال المجلسين وقرارتهما كما تمكن من ابعاد عدد كبير من اللبنانيين الذين سبق لهم الاتصال ببعض الدول الاجنبية لمطالبتها بنشر حمايتها عليهم ، فحال بذلك دون وصولهم الى مجلسي القائمقاميتين .

ولما كان الرعيل الاول من اعضاء المجلسين قد جرى تعيينهم من قبل شكيب افندي مباشرة فلابد ان وزير الخارجية التركي قد اختارهم من الموالين للباب العالي . ولما كان اختيار الاعضاء الجدد يتم بالاتفاق بين القائمقامين واعضاء المجلسين ، فكان من الطبيعي ان يقع الاختيار دائما على الافراد الحائزين على رضى الباب العالي ، اضف الى ذلك ان الاختيار لم يكن يصبح نهائيا الا اذا وافق عليه مشير صيدا . فكان باستطاعة هذا الاخير اذا ان يقرب من يشاء ويبعد من يشاء . لذلك لا يمكن اعتبار المجلسين في القائمقاميتين متممين لشروط التمثيل الشعبي . لقد كانا اتين اداريتين قضائيتين بين ايدي السلطات التركية .

اما الناحية الهامة في تشكيل المجلسين الاداريين التي يجب ان نشير اليها فهي القضاء التام على المبادئ الاقطاعية . فقد اقام شكيب افندي مقام اصحاب الاقطاعات موظفين رسميين لم يكن يشترط في تعيينهم حسب ولا نسب . بل كان اي فلاح يستطيع ان يصبح ، حسب القانون ، عضوا في احد المجلسين اما القضاة فكانوا من المتضلعين في التشريع والقانون . وقد نص نظام شكيب افندي على ان يحضروا جميع جلسات المجلسين وان "يعهد اليهم خاصة بالنظر في دعاوي ابناء مذهبهم وفصلها وفقا لعقيدتهم الدينية(١)".

ومما يدل على ان اعضاء المجلسين كانوا موظفين تماما هو دفع رواتب شهرية لهم لانه " كان عليهم ايقاف كل جهدهم على رؤية المسائل التي تحال اليهم وتخصيص كل وقتهم ... وكانت اقامتهم المستمرة لدى قائمقامهم الخاص تضطرهم الى ترك وسائل كسب معاشهم ... " اما هذه الرواتب الشهرية فكانت كما ياتي : ٦٠٠ قرش لنائب القائمقام ، ٥٠٠ لكل عضو ، ٤٥٠ قرش لكل من امناء سر المجلس ، وقد ذهب شكيب افندي الى ابعد من ذلك اذ حظر على اعضاء المجلس : "ان ياخذوا من اصحاب الدعاوى هدية او غيرها مهما كانت " واوجب عليهم "ان يبذلوا جهدهم سلوكا في جادتي النزاهة والصدق" وانذرهم " ان كل مخالفة

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢١٩

لواجباتهم لا بد لها ان تجر على رؤوسهم العقاب الذى ستحقوه "٠ (١)

يتبين من ذلك ان شكيب افندى انشأ بصورة نهائية ادارة منظمة لتحل محل النظام الاقطاعي الذى كان في طريق الاندثار ٠ وكانت صلاحيات المجلسين تتناول الشؤون المالية والقضائية والادارية ٠ فكان عليهما " الاعتناء بتوزيع ويركو الجبل ٠٠٠ اما تحصيله (الويركو) واستيفاؤه فموكول الى القائمقامين واصحاب الاقطاعات والوكلاء ٠ وكان المجلسان ينظران في مجموع الدعاوى والخلافات التي يجب عليهما فصلها ٠٠٠ وفقا للعادة القديمة المكانية وطبقا للعدالة والانصاف "٠ ولم يكن يحق لقاضي كل طائفة ومستشارها النظر في غير دعاوى ابناء طائفتهما ٠ ولكن كان يجوز لهما حضور الجلسات المخصصة لهذه الدعاوى كمستمعين فقط ٠ وكان لا ينظر باية دعوى الا اذا وافق القائمقام على احالتها الى قاضي طائفة المدعي ومستشارها ٠ وعندما يكون المدعي والمدعى عليه من طائفتين مختلفتين ، كان القائمقام يحيل الدعوى الى قاضي الفريقين ومستشاريهما ٠ وكان اذا اختلفت اراء القاضيين ، حاول القائمقام او وكيله التوفيق بينهما ، فاذا لم ينجح القائمقام عين حكم ثالث يتفق عليه القاضيان ويعينه القائمقام ٠ واذا لم يتفق القاضيان على حكم ، فان القائمقام يستقل بتعيينه "بناء على طلبهما شرط ان يكون من اعضاء المجلس. وكان باستطاعة القائمقام ان يطلب اعادة النظر في كل حكم يراه جائرا ٠

" وكان اذا طرأت مسائل خطيرة "يدعو القائمقام " جميع الاعضاء" للاجتماع والتفاوض فيها وتسويتها بكمال الدقة والاعتناء" (٢)" لان القرار لا يكون عادلا الا اذا اشترك فيه جميع الاعضاء" ٠ وكان للقاضي كل طائفة ومستشارها صوت واحد ، اذ كان عدد الاصوات بنسبة عدد الطوائف الممثلة ، فكان على قاضي ومستشار كل طائفة ان يتفقا مسبقا قبل الاشتراك باى اقتراع ٠

وكان راى القاضي هو الراى الراجح في القضايا الحقوقية ، اما القضايا الادارية فكان يعتبر فيها راى المستشار في الدرجة الاولى ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٢٧

(٢) المحررات ج ١ ص ٢٢٣

ولم يكن باستطاعة القائمقام ان يخالف راى المجلس او ان يستبد برايه في قضية ما بل كان عليه ان يخضع للاكثرية • ولكنه كان هو المسؤول ، عن تنفيذ الاحكام المختومة بخاتم القضاة الذين اصدروها والتي وافق عليها هو ، لان السلطة التنفيذية كانت بيده (١)•

وكان اجماع الاراء ضروريا في شتى قرارات المجلسين • واذا لم يتيسر ذلك حاول القائمقام التوفيق بين الاراء ، فاذا لم يوفق احيلت القضية المختلف عليها الى مشير صيدا ليفصل فيها (٢)• ولا شك ان الاجماع المطلوب لم يكن امرا ميسورا لما كان بين الطوائف من خلافات ومنازعات كان من شانه ان يشل الاعمال •

وفي القضايا التي كان فيها المتداعيان غير تابعين لقائمقامية واحدة كان يرفع الامر الى قائمقام المدعى عليه • وبعد النظر في القضية وفقا للاصول المتبعة تعاد الى قائمقام المدعي فاذا وجد هذا الاخير ان الحكم غير مرض حق له مطالبة قائمقامه باعادة النظر في المسالة فاذا كان الحكم الجديد مماثلا للحكم السابق اصبح مبرما والا فتحال المسالة الى مشير صيدا الذى يبدى رايه بصورة نهائية • (٣)

كذلك كان يرجع الى مشير صيدا في القضايا والقرارات الادارية، ولاسيما الخاصة منها بالويركو ، التي لا يتحقق فيها اجماع اعضاء مجلس من المجلسين فيبت فيها (٤)•

فيبدو لنا مما تقدم ان مشير صيدا كان الحاكم الحقيقي الاعلى للبنان ، لان الاجماع الذى كان شرطا اساسيا لتنفيذ اى قرار اداريا او ى حكم قضائي لم يكن سهلا يسيرا ، بل كان من المنتظر ومن الطبيعي ان يضطر قائمقاما لبنان الى الرجوع الى مشير صيدا في جميع القضايا التي لا يتوفر فيها اجماع اعضاء كل من المجلسين • ومما يلفت النظر ان نظام شكيب افندى قد تمكن من تحقيق المساواة امام القضاء وبين الفلاحين ورجال الاقطاع ، وذلك بوضعه القضاء بين ايدى قضاة مختصين مستقلين كل الاستقلال عن التقاليد الاقطاعية •

وقد حافظ شكيب افندى على نظام الوكلاء في القرى المختلطة حيث كانت السلطة المحلية مجزأة بين صاحب الاقطاع والوكيل المنتخب من قبل الفلاحين •

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٢٣
(٢) " " " ٢٢٤
(٣) " " " " ٢٢٤ ـ ٢٢٥
(٤) " " " " ٢٢٥

ان نظام شكيب افندى كما هو وارد في تعليماته المؤرخة في اخر تشرين الاول سنة ١٩٤٥ يتعرض بصورة خاصة الى القضايا المدنية والدينية . اما فيما يتعلق بالقضايا الجنائية فالاشارة الوحيدة بشانها هي الاتية: " يحقق من الدعاوى الجنائية اولا في المجلس الذى وقعت الجناية ضمن دائرة اختصاصه ويحكم بها وفقا للقاعدة الموضوعة . لكن اذا كانت تنفيذ الحكم هو فوق سلطة القائمقام فعليه ان يرسل جميع الاوراق الى مشير الايالة فيعيد النظر فيها ثم يامر باجراء ما يراه مناسبا " (١). ويظهر ان شكيب افندى لم يلغ مفعول الوثيقة التي عقدت في بيروت بين الدروز والموارنة في ٦ حزيران ١٨٤٥ بواسطة بحري باشا (٢). وقد كانت غاية هذه الاتفاقية التوفيق بين العادات القديمة التي كانت متاصلة في نفوس السكان وبين مبادئ العدل والنظام كما يفهمها ابناء البلاد الراقية. ومما جاء فيها ان الحكومة تتدخل عسكريا لمنع اى اجتماع او القيام باعمال يستهدف فيها الاعتداء على اى كان (٣) . وتتعهد الحكومة اذا ما " احدث بعض افراد من الفريقين قلاقل واضرموا نار الحرب الاهلية ان تتولى التحقيق من اعمالهم وتنزل بهم بكل عدالة اشد العقوبات مهما كان مقامهم " . (٤)

" وتتعهد " الفريقان " ان يتحاشوا الاقدام على السرقة والقتل ان على افراد الحزب المعاكس وان على غيرهم حتى اذا حصل مثل هذا الاعتداء في اى مكان فيقبض على الجناة وتقام عليهم الدعاوى من قبل ورثاء القتيل وينفذ الحكم الصادر على الجانب بتمامه ، واذا انتصر له اهالي قريته تساق الجنود الى حيث يلزم للقبض عليه، ويعاقب الذين حاولوا انقاذه بحسب ذنبهم ، واذا تجرأ احد على نهب اموال الغير واغتصابها ، يكره على اعادتها في الحال ، حتى اذا لقي عونا من ذويه فالحكومة تنزل بهم العقاب ".

وتتعهد " الفريقان بتسهيل اجراء هذه التدبيرات " (٥) واذا ثبت على احد جناية قتل فيجرى القبض عليه لمحاكمته حسب الانظمة القديمة واذا فر اوفدت الجنود

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٢٥
(٢) " " " " ١٨٨ ـ ١٩٠
(٣) " " " " ١٨٨
(٤) " " " " ١٨٩
(٥) " " " " ١٨٩

لمطاردته فيطلب من اهالي قريته ، فاذا لم يسلم قبض على بعض اقاربه وسجنوا الى ان يتم تسليمه واذا لم يكن له اقارب فيسجن بعض اعيان القرية الى ان يسلم الجاني ، واذا تعذر الاهتداء اليه "تستوفى دية القتيل ثلاث اضعاف من مال القاتل ".

" واذا كان هذا الاخير لا يملك شيئا فعلى اهل قريته ان يدفعوا عنه ، اما اذا لم يعرف القاتل ... فترسل الجنود الى القرية التي حدث فيها القتل ، فاذا ما كتم الاهالي اسمه يجبرون على دفع الدية الى اقارب القتيل "ولا يفرج عنهم الا بعد استيفائها ".

وتعهد الفريقان انه " اذا حصل سلب شخص او جرحه فتكون المعاقبة متناسبة مع الجرم فاذا لاذ المجرم بالفرار يحمل اقاربه او اهالي قريته على التفتيش عليه " . كذلك اخذت الحكومة على عاتقها "ان تقيم جنودا على طرق الشام وصيدا ودير القمر وطرابلس وغيرهما تامينا لابناء السبيل واذا تعذر ذلك فيقوم سكان المحلات المذكورة على حراستها (١).

نستنتج من ذلك ايضا ان اصحاب الاقطاعات لم يعودوا كل شيء بل اصبحوا يشاطرون الفلاحين المسؤولية امام القانون والادارة . فلم تعد السلطة تتوجه اليهم وحدهم لانزال العقوبات في القتلة او السارقين بل اصبحت تتوجه الى اهالي القرية برمتها (٢).

ولم يقتصر اضعاف نظام شكيب افندي لنفوذ اصحاب الاقطاعات على الحقلين الاداري والقضائي بل تعداهما الى الحقل المالي . فقد اوجب ان يكون الويركو متناسبا مع الملكية وشاملا للجميع . وهكذا فان المساواة بين الجميع في الويركو كانت بمثابة ضربة جديدة للنظام الاقطاعي في لبنان . وقد اشترط شكيب افندي ان تتخذ جميع القرارات المتعلقة بالويركو بالاجماع وان يوقع عليها جميع اعضاء المجلس وان يصادق عليها القائمقام فاذا حصل خلاف بين الاعضاء ولم يكن بالامكان تلافيه تحال المسالة الى مشير صيدا فيبت بها . وقضى ايضا بان يجتمع مجلس كل قائمقامية مرة كل سنة لتنظيم "دفتر واحد في مجموع ويركو كل مقاطعة وتفصيل مقدار الويركو المتوجب على كل قرية وكل دير بمفرده ويوقع اعضاء

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٨٩ ــ ١٩٠

(٢) المحررات " " ٢٣٦

المجلس جميعهم هذا الدفتر ويوافق عليه القائمقام ويختم . واذ ذاك يتخذ اساسا لوضع لوائح كل قرية بمفردها وتوقع ايضا من الاعضاء والقائمقام وترسل الى ماموري التحصيل واصحاب الاقطاعات الموكول اليهم استيفاء التكاليف (١) " وقد اوجب النظام على الموظفين المولجين بتحصيل الويركو ان يسلكوا سبيل اللطف مع السكان وان يكونوا من طائفة المكلفين الذين يرسلون اليهم (٢).

يتضح مما تقدم ان الميزة الرئيسية لنظام شكيب افندي كانت اضعاف النظام الاقطاعي الى حد كبير . فقد اعلن المساواة ازاء القانون وفي دفع الضرائب ، وفتح باب الوظائف الادارية وعضوية المجلسين امام جميع السكان ، دون تمييز في العائلة او الطبقة . كما حصر الادارة بين يدي القائمقام الذي ليس سوى موظف يعينه الباب العالي . ولكن مما لا شك فيه ان نظام شكيب افندي قوى النفوذ العثماني في لبنان واضعف من الاستقلال الذاتي الاداري . الا ان الدول الاوروبية كانت تريد انهاء المشكلة اللبنانية مهمـــا كلف الامر . فوافقت فرنسا بتحفظ على النظام الجديد معتبرة اياه تدبيرا موقتا ومؤكدة من جديد اعتقادها بان الحل الوحيد للمسالة اللبنانية هو في اعادة الاسرة الشهابية الى الامارة وتامين وحدة البلاد في ظل الحكم الشهابي . اما من الناحية الدولية، فقد تثبت حق الدول الاوروبية في المراقبة الجماعية لشؤون لبنان ، وكان ذلك بمثابة سابقة دولية خطيرة ، اذ تمكنت بعض الطوائف المسيحية في الامبراطورية من الظفر بنظام خاص بفضل التدخل الاوروبي وفي ظل الحماية الاوروبية .

وقد وضع نظام شكيب افندي موضع التنفيذ فورا وكان ذلك بموافقة الدول الاوروبية . وكان السكان بحاجة ماسة الى الراحة والاستقرار والانصراف الى الاعمال البنائية بعد ان انهكتهم القلاقل وخربت دورهم وحقولهم وافسدت عليهم اعمالهم ، فلذلك اضطروا الى قبول التدابير الجديدة تحت وطاة الظروف .

---

(١) المحررات جـ ١ ص ٢٢٦

(٢) " " " ٢٢٦

القسم الثامن
المسالة اللبنانية في البرلمان الفرنسي

كان لحوادث لبنان سنة ١٨٤٥ اثر كبير في فرنسا فاهتمت لها صحافتها وشغل بها سياسيوها ونوابها . وقد اثيرت المسالة اللبنانية وحوادث لبنان اكثر من مرة في المجلس النيابي . وفي ١٥ تموز سنة ١٨٤٥ القى الكونت دى مونتالمبير خطابا في مجلس النواب الفرنسي اتى فيه على فتن سنة ١٨٤٥ وفصل الحوادث المؤلمة التي جرت للمسيحيين على وجه العموم والموارنة على وجه الخصوص ذاكرا اقدام الدروز على قتل رئيس دير عبيه الكبوشي ، ومثنيا على المسيو بوجاد قنصل فرنسا في بيروت ومثبتا تحيز الموظفين العثمانيين الى الدروز واشتراك الجند انفسهم في المجازر . وقد القى الكونت دى مونتالمبير التبعة في قلاقل سنة ١٨٤٥ على الحكومة الانكليزية بوجه عام وعلى الكولونيل روز ، القنصل الانكليزي في بيروت بوجه خاص . كما اخذ على وزير الخارجية الفرنسية اشراكه الدول الاربع الباقية مع فرنسا في الاهتمام بالمسالة اللبنانية مبديا استغرابه لان المسالة في نظره لا تخص الا فرنسا وحدها حامية المسيحيين (١) . ومما جاء في هذا الخطاب بالحرف الواحد ما يلي : " .... فمنذ شهرين لفح شواظ العداء في لبنان واظهرانه بدأ في ٣٠ نيسان فالتحارير الاولى التي وردت علي هي بتاريخ ١٣ ايار وبعد مرور ١٣ يوما على بدء القتال حرقت ٥٠ قرية ماهولة بالمسيحيين ... في ضواحي بيروت على مرأى من معتمد حكومتنا ثم اخبرنا بحدوث هدنة في ٢٣ ايار انما الرسائل الاخيرة التي وقفت عليها تنبيء باستمرار القتال وتواصل الدمار والقتل من الدروز . ومما يزيد في حراجة الحالة ان الدروز فعلوا ما فعلوا بمساعدة الاتراك المسئولين تجاه فرنسا عن القيام بعهودهم للموارنة ... ولم يذق الموارنة المستظلون في الحماية الفرنسية وحدهم مرارة هذه البلايا بل الاوروبيون ذاتهم فانه يوجد في عبيه دير يخص فرنسا ... ففي هذا الدير .... ذبح الدروز رئيسه الاب شارل وفي الوقت ذاته ذبح ايضا كاهنان في تلك الاماكن المظللة بعلم فرنسا وقد اقترفت هذه الجناية بحضور الجنود التركية التي لم تحرك ساكنا مع انه على ما بلغني ارسلت فصيلة منها لحراسة المرسلين الاميركيين البروتستانتيين

---

(١) المحررات ج ١ ص ١٩١ - ١٩٨

الذين يقطنون هذه القرية ٠٠٠ ولا انكر ان الموارنة قد ثاروا لانفسهم فلا امثلهم يحملان تقدم اعناقها للذبح فانهم يدافعون عن حياتهم متى استطاعوا لكنهم لا يقوون على ذلك ٠٠٠ ومن الجلي الواضح ان ماموري الاتراك في لبنان اظهروا حتى الان تشيعا وتغرضا للدروز بل شاركوهم في جناياتهم وهناك اشتراك اكثر فظاعة واعظم خطورة وهو ما ينسبه العموم الى معتمد انكلترا ٠٠٠٠ اني لا اطعن بشخص المعتمد الانكليزي في بيروت ولا بنياته بل اقتصر على القول بان صوت جميع الفرنسويين الذين كانوا موجودين هنالك وسائر الاجانب ـ وهم شهود اكثر نزاهة من الفرنسويين ـ يعلن ان المومى اليه كان المحرض الاكبر على الحركة التي حدثت في لبنان معارضة الدروز في اعادة السلطة المستقلة لرفع سلطتهم عن الموارنة ٠٠٠٠ ولا يمكن تفسير هذه السياسة المعقوتة الا بما تضمره انكلترا لفرنسا من حسد نفوذها المتقادم العهد في جبل لبنان ٠٠٠٠ ان انكلترا حرضت الدروز ٠٠٠٠ وعضدت مطالب اصحاب الاقطاعات الدرزية الذين كانوا يتمتعون بسلطة ذوى الاقطاع ولا يريدون التنازل عنها "٠

وقد اجاب المسيو غيزو وزير الخارجية الفرنسية فاظهر اسفه لاشراك الدول الاربع في مسالة مسيحيي لبنان نظرا لما كان بين تلك الدول من العلاقات الودية على اثر التعاون فيما بينها على طرد القوات المصرية ٠ ولكن المسيو غيزو فسر ذلك باضطرار فرنسا الى الاستعانة بالدول الاربع في سبيل رفع السلطة التركية عن لبنان وقد اعترف الوزير الفرنسي باشتراك الموظفين والجنود الاتراك في القلاقل اشتراكا مباشرا مبينا ان في تركيا حزبين احدهما معتدل يرغب في الاصلاح والاخر متطرف في تعصبه يميل الى القديم ٠ واشار المسيو غيزو الى ان النزاع بين هذين الحزبين قد امتد الى مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية ٠ ثم صرح الوزير الفرنسي ان فرنسا لن تعود عن فكرة ارجاع الامارة الى لبنان الى سابق عهدها كما انها لا تتنازل عن حقها بالتفرد في حماية مسيحيي الشرق ٠ وذكر ان الحكومة الفرنسية الحت ولا تزال تلح على ضرورة الاسراع في معاقبة قاتلي الاب شارل الكبوشي والمسيحيين وانها ارسلت بوارجها لحماية شواطئ سوريا ٠ كما وزعت الاعانات على المنكوبين ٠ اما فيما يتعلق بانكلترا فقد استبعد المسيو غيزو ان تنتهج سياسة الحزب الرجعي في تركيا الذى يهدف الى ابادة الدروز بواسطة الموارنة وابادة هؤلاء بواسطة اولئك (١)

---

(١) المحررات ج ١ ص ١١٩ ـ ٢٠٤

ولم تكن هذه الجلسة في البرلمان الفرنسي الجلسة الوحيدة التي نوقشت فيها المسالة اللبنانية بل تلتها جلسات كثيرة ، في فترات مختلفة ، وكانت تختلف شدة وعنفا باختلاف الانباء الواردة من لبنان . واننا نكتفي بالاشارة الى اهم هذه الجلسات والى اهم الخطب التي القيت فيها . فنبدأ بجلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ التي امتازت بخطاب المسيو دى ملفيل . لقد انتقد هذا الاخير سياسة وزير الخارجية الفرنسية في المسالة اللبنانية انتقادا لاذعا واخذ عليه تكتمه كما حاول ان يكشف القناع عن السياسة الانكليزية في هذه القضية متهما بريطانيا بتقويض دعائم الاستقلال اللبناني والقضاء على الامارة المسيحية وتحمل اكبر قسط من التبعة في شطر لبنان الى قائمقاميتين رغبة في اضعاف النفوذ الفرنسي . واخذ النائب الفرنسي على وزير خارجية بلاده ايضا تقاعسه عن السعي لاعادة الامارة الى جبل لبنان وفاقا لرغبة اعضاء الندوة الفرنسية ثم بين تحامل الحكومة الانكليزية على الموارنة وتحيزها للدروز مندد ا باعمال الكولونيل روز وممتدحا مواقف المسيو بوجاد ذاكرا بصورة خاصة ما اظهره من حزم في مسالة مترجم القنصلية الفرنسية خليل العدور .(١) ومن المفيد بل المهم ان نورد بعض مقتطفات من هذا الخطاب الخطير : " ان شؤون سوريا قد شغلت كثيرا هذا المجلس عند بدء انتدائه (اجتماعه) ولا تزال هذه الندوة تتذكر تلك المفاوضة الخطيرة التي بحث فيها بتعمق في الحالة الحاضرة وفي اخطار المستقبل . وكان لحضرة الوزير اذ ذاك راى اعرب عنه قوامه القبول بقرار الدول الخمس ووثيقة سنة ١٨٤٢ " .... فلم تشاطره الندوة اماله ... موجبة عليه انتهاج خطة وسياسة جديدتين .

ومنذ ذلك الحين نكره هنا دائما على قبول تاجيل البحث بهذه الامور مع اننا الححنا على الحكومة بطلبه وفي كل سنة كانت تطلب الينا ما تطلبه اليوم وهو لزوم الصمت . فكانا انقيادا لمطالبها (٢) ... ولما اعلن امر هذه التدبيرات (قسمة الجبل الى قائمقاميتين) وشرح مضمونها امام هذه الندوة تولد في الحال راى اجمعت عليه الاغلبية ذلك انه لم ير فيها سوى وسيلة جديدة لاستمرار الشقاق وتواصل البلايا على مسيحيي لبنان

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٤٢ . ٢٦٢

(٢) " " " " ٢٤٣

وكانت الحكومة قبلت بها فرفضتها الندوة (١)٠٠٠٠

"وان انكترا واصلت جهدها منذ خمس سنوات لمنع اعادة الحكم الى الامير بشير شهاب واسرته مهما كلفها الامر ٠٠٠ لان اعادة امارة لبنان المسيحية الى ما كانت عليه ينجم عنها بسط النفوذ الفرنسوى وهذا ما تاباه انكلترا (٢)٠٠٠ ويكفي تلاوة الرسائل المنفذة من حضرة وزير الخارجية الى معتمدنا في الاستانة لادراك مقدار تهاون حكومتنا وضعفها في ملاحقة هذه "القضية" (٣)٠ "وقد استنتج المسيو دى ملفيل من بعض الرسائل الدبلوماسية التي ذكرها" ان المرة الاولى التي تجرات بها فرنسا ان تقول لاوروبا انه يجب الافتكار باعادة الشهابيين كانت في ١٧ ايار سنة ١٨٤٤ وذلك دون تسميتهم باسمهم (٤) ٠٠٠٠ ويسهل على ان اعارض ضعف حكومتنا بنشاط معتمدى الانكليز وحزمهم رفضا لاعادة الشهابيين وبما بذلوه من المساعي لابقاء طريقة التسوية الموضوعة سنة ١٨٤٢ ٠ وقد جرت البلايا على سوريا لانه كان لها في اعينهم مزية من شانها تحقيق امانيهم الا وهي طرد فرنسا من الشرق وابادة نفوذها ٠ ان المحررات الانكليزية هي كثيرة الوضوح بهذا الشان حتى ان تحرض المامورين الانكليز للدروز بلغ حدا اثار معه الشكوك ٠ "(٥)

وفي الجلسة التي عقدها مجلس النواب الفرنسي في ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦ القى الشاعر الفرنسي الكبير لامرتين خطابا استعرض فيه المسالة اللبنانية منذ عام ١٨٤٢ فطالب باعادة الحكم الى الاسرة الشهابية واشار الى المعارضة التي تبديها الحكومة البريطانية في هذا الشان بغية الحد من نفوذ فرنسا ثم وجه اللوم الى الحكومة الفرنسية لتقصيرها في تاييد مسيحيي الشرق ٠ واهم ما جاء في خطابه :"لقد ارسلت الحكومة النمسوية نطاقتين (مذكرتين) الى الاستانة مالها ان النمسا - وهي دولة مسيحية لها كفرنسا مصلحة دينية وتجارية في الشرق - تصر على رفض اشراك سعيها في سعي الوزارة

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨
(٢) " " " ٢٤٩ - ٢٥٠
(٣) " " " " ٢٥٠
(٤) " " " " ٢٥٢
(٥) " " " " ٢٥٣

تتمة

الفرنسوية وانما اعلنت معاكستها لها مضدمة الى سائر الدول ٠ ولماذا اصرت النمسا على انتماج سياسة مخالفة لميولها ومصالحها ؟ ذلك بغية ارضاء انكلترا التي اتخذ موظفوها على عاتقهم منذ ست سنوات مهمة ممقوتة قوامها زرع بذور الشقاق بين الموارنة والدروز واضرام نار الاحقاد بينهم والحصول على حق السيادة في رومية واطلاق يدها في ايطاليا لقاء هذه المجاملة في الاستانة "٠

وفي جلسة ٦ كانون الثاني سنة ١٨٤٧ وقف الكونت دي كاستر بارب فقرأ عريضة من مسيحيي لبنان يصفون فيها حالتهم البائسة ويستنجدون بفرنسا لانقاذهم من النفوذ التركي ومساعدتهم على اعادة الحكم الى امير مسيحي ، ثم انتقد سياسة وزير الخارجية وناشد الحكومة ان تواصل حماية مسيحيي لبنان (٢)٠

وقد ادلى المسيو فيزو في مجلس النواب الفرنسي في ١٣ حزيران سنة ١٨٤٧ بالتصريح التالي : " ان الافادات التي حملتها الي الباخرتان اللتان وصلتا اخيرا من الشرق تنبئني بحدوث كوائن غير متوقعة ومشاكل جديدة ٠ وبعد انعام النظر في هذه الحالة ارى عدم مناسبة فتح الجدال في هذا الشان لانه يضر بمصالح فرنسا في لبنان وهما استتباب الامن والراحة وفوز سياستنا (٣) "٠

فانبرى المسيو بربير للرد عليه فقال : " لم افقه معنى صمت حضرة الوزير ازاء الانفعال والحزن اللذين احدثتهما الانباء الواردة من لبنان ٠ وماهي فوائد سكوته ؟ اليس من الافضل ان تحصل الحكومة على عضد الندوة فتحرز قوة جديدة (٤) "٠

وفي جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ ادلى المسيو بول دارو ببيان حدث فيه النواب عن عريضتين رفعهما المسيحيون والدروز الى الندوة الفرنسية مطالبين باعادة الامير بشير او ابنه الامير امين الى حكم لبنان ومن بعدهما الى اسرتهما واقترح احالة العريضتين الى وزير الخارجية (٥) ٠

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٦٩

(٢) " " " " ٢٧٠

(٣) " " " " ٢٧٤

(٤) " " " " ٢٧٤

(٥) " " " " ٢٧٤ ـ ٢٧٥

فتدخل على اثر هذا البيان الكونت دى كاتر بارب فحث النواب على حمل الحكومة على السعي في سبيل اعادة الامارة المسيحية الى لبنان شرط ان تدفع جزية معينة الى الباب العالي وان يعترف بسيادته الاسمية (١).

كذلك تدخل المسيو دى ملفيل فذكر المجلس بانه رفض الموافقة على نظام سنة ١٨٤٢ مخالفا في ذلك راى الحكومة واظهر ما احدثته قسمة لبنان الى قائمقاميتين من الاضرار والمتاعب كما هاجم شكيب افندى وانتقد اعماله سنة ١٨٤٥ ثم وجه اللوم الى الحكومة الفرنسية لتقصيرها ازاء مسيحيي لبنان وانذرها بفقد نفوذها في الشرق .

وعندما راى المسيو غيزو ان اكثر اعضاء مجلس النواب الفرنسي غير راضين عن سياسته التي يسودها الاحجام والتردد الى لجنة عهد اليها بدرس الشكاوى والتحقيق في صحتها ، واوفد لهذه الغاية الى لبنان المسيو دى لالمان والمسيو اوجين بورية العالم المشهور .(٢)

القسم التاسع

حوادث ١٨٦٠ في الميدان الدبلوماسي

١) الاصطدامات الاولى .— في ٢ نيسان سنة ١٨٦٠ وجه المستر مور ، قنصل بريطانيا العام في بيروت ، تقريرا الى السر هنري بلور السفير البريطاني في القسطنطينية، جاء فيه ما يلي : " يسوءني ان اراني مضطرا لاخبركم بان قد كثرت حوادث القتل والاعتداء وقطع السابلة في انحاء صيدا وضواحي المدينة (بيروت) بصورة تقلق البال . فلقد اخبرني المسيو ابلا نائب قنصل انكلترا في المدينة المذكورة (صيدا) بوقوع تسع حوادث قتل منذ بدء سنة ١٨٥٩ حتى اخر اذار المنصرم . ولنكد الطالع لم تتخذ الحكومة التركية اقل وسيلة فعالة لقمع هذه المشاغب ... فان اربابالسلطة في صيدا قد اعتادوا وقوع هذه الفضائع فامسوا لا يعلقون عليها اهمية . وقد لفت غير مرة بطريقة ودية نظر

---

(١) المحررات ج ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧

(٢) " " " ٢٨٨

خورشيد باشا الى هذه الحالة فلم يكن لكلامي صدى فيه وقد شكا الى هوذ اته من صمم حكومة الاستانة وعدم اهتمامها بمراسلاته بهذا الخصوص وقد قال دولته انه كلما اخبر الاستانة بحدوث جناية طالبا اليها ايلاء السلطة الكافية لمعاقبة الجاني تنقضي سنة او سنتان قبل ورود الجواب عليه بحيث تنمس الجناية وتضيع عبرة الارهاب من العقاب فتجرأ الجناة على ارتكاب جنايات جديدة في هذه الفترة (١) ".

يستدل من هذه الرسالة ان القلاقل في لبنان عام ١٨٦٠ بدات في فصل الربيع وان قناصل الدول اهتموا بها منذ البداية وان السلطة التركية المحلية والمركزية لم تظهر الحزم الكافي للسيطرة على الموقف وكبح جماح الاثمين . ولم يلبث الموقف ان ازداد توترا وتعددت حوادث الاعتداء .

فمن هذه الحوادث "قتل اربعة اشخاص من قرية قيتوله مع كاهن بتدين .... وراهب واربعة نفر قرب الكحلونية في الشوف وكاهن قرية معاصر الفخار في بيته وذبح رئيس دير صيق . وقد اجتمع الدروز من كل جهة في المختارة .... وقطعوا الطرق المؤدية اليها " فلم يعد بامكان المسيحيين المنكوبين الوصول الى بيروت لتقديم شكاويهم الى الوالي . فاضطر كثيرون منهم ان يلجاوا الى القرى المسيحية . "اما المسيحيون الذين تضرروا اكثر من سواهم من اعتداء الدروز فهم سكان بلاد العرقوب وغربي البقاع فلقد فروا بعيالهم .... ولاذوا بمدينة زحلة .... فاتبع الدروز اثرهم واوقعوا بهم ...." (٢).

ومن هذه الحوادث مهاجمة الدروز لبعض المسيحيين "بينما هم سائرون من دير القمر الى جزين وقد تحقق انهم قتلوا اربعة منهم بما فيهم كاهن مارد ين وفي بعض الروايات ان عدد القتلى تسعة ... وهذا الاعتداء سيثير انتقام المسيحيين اذا لم يجر الى اشتباك الطائفتين في قتال عام ".

"واني مواصل السعي لتوطيد دعائم السلم . ومن اعظم دواعي الامل بامكان منع نشوب الحرب الاهلية هو اتفاق مصلحة الفريقين على تاجيلها الى ما بعد موسم الحرير والحصاد

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢

(٢) " " " ٩ (من عريضة المسيحيين في الانحاء المختلطة الى خورشيد باشا تاريخ ١٢ ايار سنة ١٨٦٠) .

وهاعلى الابواب . وبهذه الفترة يتسنى للباب العالي ان يتخذ الاحتياطات الكافلة تقرير الامن (١) ."

العاصفة

فعلى الرغم من ان جميع البوادر كانت تنذر بان العاطفة على وشك الهبوب، فقد بقي هناك بعض الامل في تاخرها ، على الرغم من تقاعس السلطات التركية وتكاثر حوادث الاعتداء .

والحقيقة ان خورشيد باشا كان رجلا ماهرا يعرف كيف ينقذ الظواهر . فقد ارسل فصيلة صغيرة من الجند غير النظامي الى "قضا" الدروز لحفظ الامن "كما وعد قناصل الدول بتعزيز حامية دير القمر باربعمائة جندي (٢) . ولم يكتف خورشيد باشا بذلك بل حرص على افهام قناصل الدول الاوروبية انه ينسب "هذه الاضطرابات الى دسائس لجنة مسيحية مقيمة في بيروت ومؤلفة من بعض رعايا الحكومة ... وبعض محميي الدول الاجنبية (٣) . " واراد خورشيد باشا ايضا ان لا يترك المجال واسعا امام القناصل للحملة للتدخل والشكوى . فوافق على دعوة زعماء الطائفتين الى بيروت "بغية اصلاح ذات البين بينهم " . (٤)

وقد افادت "الانباء الواردة في ٢٤ ايار سنة ١٨٦٠ ... ان جماعات كبيرة من المسيحيين والدروز المسلحين مجتمعون في عدة انحاء استعدادا للقتال ومن المعقول انه ابدى نواجذ مقترب مين داره (٥) " . وفي ٢٥ ايار " حدث في جوار بيروت قتال بين فريق من الدروز والمسيحيين فقتل درزي وجرح اثنان توفي احدهما وجرح مسيحيان فاسرعت الحكومة في التوسط بين الفريقين .... " وفي صباح ٢٦ ايار استوئنف القتال " حوالي زحلة اخذا بالثار (٦) ".

"وفي ٢٩ الجاري (ايار سنة ١٨٦٠) بدا القتال بهجوم فريق من مسيحي المتن على قرى صليما وقرنايل وبتخنيه المختلطة السكان و طردوا منها سكانها الدروز .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٧ ـ ٨ (من رسالة للقنصل العام مور الى بلور تاريخ ١٨ ايار ١٨٦٠)
(٢) المحررات ج ٢ ص ٨
(٣) " " " "
(٤) " " " " ٩ (من مور الى بلور في ٢٣ ايار ١٨٦٠)
(٥) " " " " ١١ (مور الى اللورد رسل ٢٤ ايار ١٨٦٠)
(٦) " " " " ١٢ (من مور الى بلور).

اما الدروز فاغاروا على قرية بيت مري وحرقوا دار الامير وفي اليوم التالي اضرموا النار في عدة قرى من المتن وفي سهل بيروت ... وان فريقا من المسيحيين الذين لجاوا ~~طلبة~~ //عادة من عدة مزارع الى قرية الدامور المسيحية .... غادروها مجيئا الى بيروت خوفا من ان يهاجموا فيها ... فالتقاهم جماعة من الدروز والشهحة والباشبوزق فسلبوهم امتعتهم وجرحوا وقتلوا كثيرين منهم .... وان كل المتن قد اكلته نار المسيحيين والدروز " . (١)

وقد اضطربت الحال وعمت الفوضى وتوقفت الاعمال التجارية بشكل جعل ارباب التجارة من الاوروبيين يخشون على ارواحهم واموالهم . فوجهوا كتابا الى قناصل بلدانهم يرجون اليهم فيه السعي " لدى الحكومة ... لاتخاذ الوسائل العاجلة لاعادة الامن الى ربوع لبنان ووقاية المصالح الاوروبية باقوى الوسائل اذا ما اقتضت الحال (٢)". وقد وقع هذا الكتاب اربعة وثلاثون تاجرا من اصحاب اكبر المؤسسات التجارية في بيروت .

٢) تدخل قناصل الدول : وكان من الطبيعي ان لا يبقى قناصل الدول ساكتين عن كل ما يجري . فاجتمعوا في اخر شهر ايار لدى قنصل بريطانيا العظمى واتفقوا على ان يقابلوا جميعا خورشيد باشا وان يعرضوا عليه المساعدة على معالجة الموقف . وحرص قنصل بريطانيا على ان تكون الملاحظات ودية . وقد استقبلهم خورشيد باشا بلطف بالغ ووعدهم بالعمل على ايقاف القتال . الا انه اوضح لهم انه يلقي التبعة على المطران طوبيا ولجنة بيروت المسيحية في اثارة الفتن وطلب اليهم ان يناشدوهما الاقلاع عن التدخل واثارة الشغب على ان يتكفل هو بالدروز . فوافق قناصل الدول الاوروبية على هذا الطلب وتركوا خورشيد باشا بعد ان اعرب لهم عن امتنانه من المساعي التي يبذلونها في سبيل معاونته . (٣).

على ان ذلك لم يجد نفعا فقد ازدادت الفتن اشتعالا واخذت الحرب الاهلية تمتد من مكان الى اخر حتى شملت القسم الاكبر من لبنان . وسنستعرض فيما يلي اهم

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٣ ــ ١٤ (من مور الى السير بلور ٣١ ايار ١٨٦٠)
(٢) " " " " ١٠ ــ ١١
(٣) " " " " ١٦ ــ ١٧

حوادث سنة ١٨٦٠ كما تستنتج من الوثائق الدبلوماسية ٠

٣) مذبحة حاصبيا ٠ـ على اثر اقتتال المسيحيين والدروز واحراق القرى المسيحية في المتن بعيد حادثة بيت مرى طلب سكان حاصبيا الى الحكومة التركية تعيين حاكم تركي لبلدتهم خوفا من اعتداء الدروز ، فاجابتهم الحكومة التركية فورا الى طلبهم (١)٠ ولكن القوة العسكرية التي انيط بها المحافظة على الامن في حاصبيا وراشيا لم تكن قادرة على القيام بمهمة تتجاوز هذا النطاق ٠ ولم يكن من المتوقع دروز حوران وقد استدعى فوق ذلك معظم الحامية الى دمشق (٢)٠ وقد تخلف المسؤولون الاتراك عند وقوع الكارثة عن القيام باى واجب من واجباتهم (٣) ٠ اما هذه المجزرة فخلاصتها انه "بعد ان هاجم الدروز عدة قرى في الجوار ولجأ اهلوها الى المدينة حاصر الدروز حاصبيا يوم الاحد الواقع في ٣ الجارى (حزيران) فاستعان المسيحيون بعثمان بك قائد الجنود ٠٠٠٠" فاجاب بانه حاول اقناع الدروز بان لا يمسوا المسيحيين بسوء فلم يفلح ولكنه سيعيد الكرة عليهم وقد اجابه الدروز بانهم مصممون على مهاجمة حاصبيا ٠

ولم يلبث المسيحيون وهم يدافعون عن انفسهم ان شعروا بقلة عددهم وعجزهم عن درء الخطر المحدق بهم فلجاوا الى السراى ٠ وقد اقنعهم عثمان بك والسيدة نايفة جنبلاط بتسليم اسلحتهم ولكن معظمها وافضلها وقع في ايدى الدروز ٠ ومكث المسيحيون في السراى امنين حتى ١١ حزيران ولكنهم كانوا يقاسون الجوع والعطش الى حد كبير ٠ وبعد ان بلغ المسيحيون القرار القاضي بنقلهم الى دمشق وابتهجوا للنبأ كل الابتهاج فتحت ابواب السراى على مصراعيها فدخلها الدروز وامعنوا في اللاجئين المسيحيين قتلا وسلبا ونهبا ٠ ولما انتهوا من الطابق الاول صعدوا الى الطابق الثاني ثم الثالث حيث كان الامراء الشهابيون " فانتزعوا سلاحهم وقطعوا راس الامير سعد الدين ورموا

---

(١) المحررات ج ١ ص ٣٦٧

(٢) " " " " ٨٣

(٣) " " " " ٨٤

بحثته الى الحديقة وقتلوا كثيرين من الامراء . ولما انتهت المجزرة اخذت السيدة نايفة جنبلاط الاولاد والنساء والامراء الذين نجوا والجنود الى دارها (١).

وقد ذكر المستر جراهام في رسالة له الى اللورد دوفرين تاريخ ١٨ تموز ان السيد تنا نايفة جنبلاط " اشارت على المسيحيين قبل بدء المذبحة بالا يذهبوا الى السراي لمعرفتها على ما ارجح بمصيرهم وعرضت عليهم ملجا في بيتها . انما لسوء الحظ لم يثق الجمهور بكلامها ومع ذلك لاذ بها ٤٠٠ من هؤلاء .... وهذه المراة قادت بذاتها هؤلاء المسيحيين التعساء حتى المختارة ومنها ارسلوا الى صيدا فنقلتهم احدى بوارجنا الى بيروت " (٢) .

٤) مذبحة راشيا :- ورد في كتاب للقنصل البريطاني مور الى السير بلور تاريخ ٩ حزيران ١٨٦٠ "ان الدروز اعتدوا على راشيا .. فهجموا عليها خدعة واضرموا فيها النار بعد ان نهبوها وارتكبوا فيها الفظائع كحرقهم البيوت بسكانها وان الجنود الاتراك المرابطين هناك لم يكتفوا باهمالهم حمايتها بل انهم قفلوا ابواب الثكنة ودار الحكومة بوجه المسيحيين الطالبين الالتجاء اليها ". (٣) اما سبب مذبحة راشيا فهي معاقبة السلطات التركية لبعض الدروز الذين اعتدوا على بعض المسيحيين وقتلوا منهم اثنين . وقد مثل في راشيا عين الماساة التي جرت في حاصبيا (٤).

وقد تكلم المستر جراهام عن مسيحيي راشيا في ٨ اب سنة ١٨٦٠ اثر زيارته للبلدة فقال "انهم بحالة يرثى لها وان ليس لديهم للاقتيات سوى ما يجود عليهم به الدروز وهو دون الطفيف . اما عددهم ف ١١٠٠ نسمة فيهم ٣٦ رجلا لان سائر الذكور قتلوا ولجأ قليل منهم الى دمشق وبيروت (٥) ". وفي معرض الكلام عن حاصبيا قال " ان عدد المسيحيين الباقين فيها لا يتجاوز ١٤٣٠ نسمة وقد كان منذ ٣ اشهر لا اقل من ٣٢٠٠ وبعضهم موجود في بيروت ودمشق ... اما المسيحيون هنا (حاصبيا) فهم في حالة شقاء كاخوانهم في راشيا (٦) .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٤٥ و ٤٦ و ٨٤ و ٨٦ و ١١٥ ـ ١٢١ و ١٥٢ ـ ١٥٤
(٢) " " " " ١٥٣ ـ ١٥٤
(٣) " " " " ٣٦ و ٤٤ ـ ٤٥
(٤) " " " " ٢٣ ـ ٩٥
(٥) " " " " ٢٧١
(٦) " " " " ٢٧٢

٥) مذبحة دير القمر :- بدأ الهجوم الاول على دير القمر في ٣ حزيران ٠ فاستمر اطلاق الرصاص عليها من الصباح حتى المساء فقتل كثير من المسيحيين وحوالي ثمانين درزيا لان المسيحيين ابلوا في دفاعهم ٠ وفي اليوم الثاني استأنف الدروز هجومهم ٠ ولم يلبثوا ان عقدوا صلحا مع سكان دير القمر ولكن ذلك لم يمنعهم من نهب البلدة ثلاثة ايام متوالية ٠ (١)

وفي عشرين حزيران عزم الدروز على معاودة هجومهم على دير القمر ٠ وكان لدى متسلم البلدة ٤٠٠ جندي في دار الحكومة و ٣٠٠ غيرهم في بيت الدين ٠ وعندما سمع المسيحيون باقتراب الدروز من دير القمر تاهبوا للذود عن انفسهم فوعدهم المتسلم بحمايتهم ، شرط ان يسلموا اسلحتهم ، ففعلوا ٠ وقد رغبوا اليه ان يامر بعض جنوده بمرافقتهم الى بيروت فابى وطلب اليهم ان يلجاوا وعائلاتهم " واستعقهم الى السراى ، فاطاعوه فورا ٠ ولكن المتسلم فتح ابواب السراى في اليوم التالي امام الدروز فكانت مجزرة اشد هولا من مجزرة حاصبيا ٠ وبعد ان قتل الدروز ما يزيد على ثمانمائة من ابناء دير القمر الذكور اضرموا النار فيها (٢)٠

وقد تخلل المعارك والمذابح التي شهدتها دير القمر ازمات غذائية حادة كان يتوسل ابناء الديراتنا"ها الى الموظفين الاتراك وممثلي الدول في سبيل انقاذهم منها ٠ فقد فرض الحصار الدرزي على دير القمر اياما كثيرة ونفذت المؤن الموجودة في البلدة (٣)٠

" ولما تم خراب دير القمر ذهب الدروز الى بيت الدين وذبحوا جميع المسيحيين اللاذين بالثكنة وفي عدادهم ١٠٩ اشخاص من قريتي بيت الدين والمعاصر ثم حرقوا هذه القرى على مرأى من القائمقام وجنوده ٠٠٠ بعد ذلك عاد الدروز الى دير القمر" فهاجموا دير " امطوش سيدة التلة "فقتلوا ونهبوا ٠٠٠ ويوم الخميس في ٢٠ حزيران وصل مشير الايالة من صيدا الى بيت الدين ومن الغد الجمعة جاء دير القمر ٠٠٠٠٠

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٥٥

(٢) " " " ٧٣ ـ ٧٦ و ١٢٦ ـ ١٢٥ و ١٥٧ ـ ١٥٩

(٣) " " " ١٤٠ و ١٥ و ٢٦ و ٢٨ و ١٣٠

وكان قد اختبأ ٣٥٠ شخصا في دار خليل الجاويش كاتب القائمقام الدرزي فحاول الدروز دخولها ... وتراكض امير درزي من اسرة ارسلان ومعه امير من بيت الدين فانقذوا خليل الجاويش واخوته ولكن الدروز لجاوا الى هذا البيت .... اما زعماء الدروز الذين كانوا في دير القمر وقت المذابح فهم سعيد بك جنبلاط ومشايخ بني عماد وابي نكد وحمادة مكبار زعماء الدروز قاطني البقدة (١).

ومن الجدير بالذكر ان دير القمر كغيرها من المدن والقرى التي وقعت فيها مذابح شغلت قناصل الدول وقتا طويلا . فقد ذكر نويل تامبل نائب قنصل بريطانيا في بيروت في رسالة الى السير هنري بلور في ٣ حزيران سنة ١٨٦٠ " ان المسيحيين اوشكوا ان يموتوا جوعا من نفاذ المؤن ... وان رجال الحامية التركية "والمحصل " في دير القمر امتنعوا في القصر ورفضوا ان يتدخلوا " وان قناصل الدول قابلوا خورشيد باشا والحوا عليه بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لاغاثة اهالي دير القمر . ومما ذكره السيد نويل تامبل في رسالته هذه " ان المؤن التي ذكر المستر مور في رسالته المؤرخة في ٣٠ المنقضي (٢) (ايار) انها ارسلت من دار الحكومة لم تبرح مكانها بحجة عدم وجود مكارين يرضون بنقلها (٣) ".

وقد اقترح المستر مور قنصل انكلترا العام في بيروت على خورشيد باشا ، عندما بلغته انباء دير القمر المؤلمة ان يذهب بنفسه الى دير القمر ويتسخدم ما لديه من نفوذ لانقاذ المسيحيين من الاخطار المحيطة بهم . فلم يوافق سائر قناصل الدول على هذا الاقتراح فتقرر اخر الامر ان يوفد القائد طاهر باشا الى دير القمر للقيام بهذه المهمة .

وقد انتهز خورشيد باشا هذه الفرصة كعادته ، فلفت انظار القناصل الى لجنة بيروت المسيحية وضرورة حلها فوافقوه على ذلك.

وذكر خورشيد باشا انه بلغه ان يوسف بك كرم قادم على راس نفر من رجاله لنجدة المسيحيين " وان لديه مدافع سيقابله عاجلا بمثلها (٤) ".

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٣٣ ــ ١٣٤

(٢) يرجح ان هذا التاريخ خطأ لان الرسالة المشار اليها تحمل في المحررات تاريخ ٢ حزيران ١٨٦٠ (ج ٢ ص ٢٤)

(٣) المحررات ج ٢ ص ٢٦

(٤) " " " ٢٧

وقد طلب المسترمور في ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ الى الامير محمد ارسلان ، وكان قد بلغه حصار الدروز لدير القمر ، ان يبذل كل ما في وسعه لمنع الهجوم على المسيحيين (١)٠

وقد اعرب عن هذه الرغبة ايضا لسعيد بك جنبلاط (٢) ، وبشير بك نكد ٠

٦) القتال في المتن ٠ــ كتب القنصل العام مور في ٣١ ايار سنة ١٨٦٠ الى السير هنري بلور فقال : "نشب قتال عام ما بين المسيحيين والدروز في المتن فدحر الاولون وتشتتوا في كل ناحية واذ ذاك ارسل الدروز من اضرم النار في القرى المسيحية التي لم تحرق بعد ٠ اما الخسائر فغير معروفة ٠ ان نار القتال سكنت اليوم والقلائل تحصل على الامل بهمودها اذا لم يعمد المسيحيون الى الاخذ بالثار "٠

٧) مذابح صيدا وضواحيها ٠ــ يستفاد من رسالة لنائب قنصل بريطانيا في صيدا تاريخ ١ حزيران سنة ١٨٦٠ "ان قاسم يوسف ورجاله نهبوا صباح هذا اليوم ديري المخلص للرهبان والراهبات واخذوا مواشي مزارع عين الدلب والميه وميه وقرية ومجدليون وقتلوا كثيرا من مسيحييها " ٠ فطاردهم يوسف العبيض على راس نفر من المسيحيين ولكنه لم يقو على الصمود طويلا فاخذ المسيحيون يتجهون نحو صيدا للالتجا ولكن الجنود الاتراك كانوا يحولون دون دخولهم المدينة فتوترت الحالة على اثر ذلك بين الطائفتين على الرغم من المساعي السلمية التي بذلها شيوخ الفريقين (٣) ٠

وقد روى مرسلان اميركيان في صيدا في رسالة بعثا بها الى القنصلية الاميركية في بيروت في ٣ حزيران سنة ١٨٦٠ ان الدروز قتلوا ثلاثماية لاجئ من جزين وضواحيها على مرأى من سكان صيدا بينهم عشرون كاهنا وراهبة او راهبتين ٠ ولما لم يسمح الشيعة

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٦٢ ــ ٦٣
(٢) " " " " ٦٤ ــ ٦٥
(٣) " " " " ٢٤ ــ ٢٥

لهولاء اللاجئين بدخول صور فقد اختبأ كثيرون منهم في الكهوف وبين الاشجار .
وقد تدخل قناصل الدول في صيدا لدى السلطات التركية وطلبوا اليها السماح للاجئين
المسيحيين بدخول صيدا فلم تفعل (١) .

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم الثالث من حزيران وصلت الى مياه صيدا
البارجة الانكليزية "فيريغلي" فاتصل ضابطها بمدير صيدا ومفتيها وبكباشي الجنود
النظامية فاوضح لهم ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لايقاف القلاقل والفتن .

وقد زار الضابط الانكليزي الخان الفرنسي حيث لجأ عدد كبير من
المسيحيين ، كما قابل الزعيم الدرزي فطلب اليه العمل على تهدئة الخواطر فوعده هذا
باجابة طلبه وساعد وجود البارجة الانكليزية على انقاذ صيدا واعادة الثقة الى نفوس
المسيحيين فيها (٢) . على ان الاضطرابات عادت الى الظهور بعد اقلاع البارجة
من المرفأ . فقد جاء في رسالة للسير بلور سفير بريطانيا في الاستانة الى وزير
الخارجية الانكليزية في ٨ حزيران سنة ١٨٦٠ ان " الجنود التركية انضمت الى مسلمي
صيدا مناصرة لهم على المسيحيين وارتكبت عدة فظائع (٣) " .

ولما عادت القلاقل الى صيدا وصور رأى قناصل الدول ان تعود البارجة
" فيريغلي " الى صيدا ثم الى صور " نظرا لما يرجى من وجودها من التاثير الادبي " .
وقد عاد الهدوء الى البلدتين كما طلب قنصل انكلترا العام الى السلطات التركية ان
تهتم بايواء مئات اللاجئين المسيحيين من جزين واطعامهم (٤) .

وفي ٦ حزيران وجد في صيدا مائتا لاجيء مسيحي في منزل السيد يعقوب
ابلا نائب قنصل انكلترا وفي منازل اخوته . وذكر القنصل المذكور انه عثر في ذلك
اليوم على ١٥ جثة في احد بساتينه بينها جثتا كاهنين ، وان شريكه قتل في معمل
الحرير الموجود في بستانه . وكما ذكره القنصل المذكور ايضا انه كان في ٣ حزيران

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠
(٢) " " " ٣٠ ـ ٣٣
(٣) " " " ٣٤
(٤) " " " ٣٧

حوالي ٥٠٠ شخص على مسافة ساعة جنوبي صيدا ينتظرون الفرصة الموآتية لدخول صيدا فلم يسمح لهم بذلك وان قاسم يوسف ورجاله كانوا يطاردون كل مسيحي يلقونه في سهل صيدا كما ان موظفي الحكومة التركية وضباطها لم يكونوا يهتمون بالرعايا المسيحيين . وقد تمكن ربان الباخرة "فيريخلي" من الاجتماع بقاسم يوسف والحصول على تعهد منه بان يكف عن اعماله العدائية وكانت قوافل اللاجئين من جزين تفد بلا انقطاع الى صيدا . ومن الاسباب التي دعت الى قلاقل صيدا انه اذيع ذات يوم بين المسلمين ان المسيحيين سياتون يوم الجمعة الواقع في ١ حزيران الى الجامع اثناء الصلاة ويقتلون جميع من فيه . فاخذ المسلمون يتاهبون للدفاع عن انفسهم واتفق ان اشتبك المسيحيون والدروز يوم الجمعة وهزم المسيحيون . فلما حاول هوءلاء الالتجاء الى صيدا وقف في وجههم المسلمون يساعدهم في ذلك الجنود العثمانيون . وقد قتل عدد كبير من المسيحيين الذين ارادوا الالتجاء الى صيدا وقدر هذا العدد باكثر من ثلاثمائة . وفي ٥ حزيران ابلغ رئيس دير المخلص نائب قنصل الانكليز بان الدروز نهبوا ديره وحرقوه . وفي اليوم نفسه استولى الخوف على مدينة صيدا فاقفل المسيحيون حوانيتهم واعتصموا في بيوتهم وكان سبب ذلك ان بعض الجنود غير النظاميين اطلقوا نيران بنادقهم اثناء ذهابهم من صـــور الى بيروت . وفي ٧ حزيران لاقى المسيحيون اللاجئون من جزين الى صيدا والذين لم يتمكنوا من دخول المدينة صنوف الاعتداء والسلب فاضطروا الى الاختباء في الغابات والكهوف . اما الذين تمكنوا من دخول صيدا فكان يعوزهم الطعام والمال والماوى واستمر الدروز في الضواحي على مواصلة اعتداءتهم كما ان كثيرا منهم جاوءوا صيدا لمتابعة اعمالهم العدوانية .

ولو اردنا ان نعدد جميع اعمال القتل والسلب التي جرت في صيدا وضواحيها والقرى المجاورة لها والتي يذكر نائب قنصل انكلترا في صيدا معظمها وتتحدث عنها المحررات الدبلوماسية لتطلب ذلك منا صفحات طويلة (١) . فنكتفي بهذا القدر لانه سبق لنا ان تحدثنا عن مذابح صيدا في فصل اخر .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٤٧ ـ ٥٦

٨) مذبحة جزين .— ذكر المستر مور في رسالة لعالي السيد بلور تاريخ ٩ حزيران ١٨٦٠ ان مطران جزين زاره مساء الثامن من الشهر المذكور بعد نجاته من المصيبة التي حلت بها بلدته فاخبره ان الدروز هاجموا قضاء جزين في اول حزيران " فحرقوا قراه وشتتوا شمل اهله فلاذوا بالاحراج والكهوف مختبئين ".

وقد تاثر المستر مور من رواية المطران فوجه كتابا الى سعيد بك جنبلاط طالبا اليه فيه " ان يجمع هذا الشعب التعس وان يمكنه من الالتجاء الى مكان امين " (١).

٩) مذبحة زحلة .— وجه اساقفة زحلة في ٩ حزيران سنة ١٨٦٠ رسالة الى قناصل اوروبا العامين ابلغوهم فيها ان " جمهورا كبيرا من دروز حوران وحاصبيا وراشيا وغيرها من المدن يستعدون لمهاجمة زحلة وان يجتمعوا في جوار البلدة بعد يومين او ثلاثة ". وناشد الاساقفة قناصل الدول ان يتدخلوا بصورة عاجلة لانقاذ البلدة المسيحية من خطر الهجوم الدرزي المرتقب (٢).

فاتصل القناصل بخورشيد باشا في ١١ حزيران والحوا عليه بضرورة الاهتمام بزحلة واتخاذ التدابير اللازمة لتجنب اية كارثة ممكنة (٣).

وقد اجاب خورشيد باشا على مذكرة قناصل اوروبة العامين في ١٢ حزيران فاعترف بتاهب الدروز لمهاجمة زحلة واعلن انه كتب الى مشير جيش عربستان ووالي دمشق لاتخاذ التدابير اللازمة لردع دروز حوران والبقاع المنضمين الى دروز لبنان كما وجه الانذارات الشديدة اللهجة الى الدروز لمنعهم من القيام باي عمل عدواني (٤).

وفي ١٥ حزيران اجتمع قناصل الدول الاوروبية بخورشيد باشا من جديد فاخبرهم انه رسل خمسمائة جندي نظامي لنجدة زحلة وانه كرر تهديداته الموجهة الى زعماء الدروز. ولكن الدروز كانوا في ١٥ حزيران ، رغم ذلك كله ، يضيقون الخناق على زحلة ، بعد ان اشتبكوا مع المسيحيين في ١٣ حزيران في معركة خارج البلدة استمرت ساعات ولم تسفر عن نتيجة حاسمة (٥).

---

(١) المحررات جزء ٢ ص ٣٧ و ٣٩

(٢) " " " " ٤٠

(٣) " " " " ٤١

(٤) " " " " ٤٢ — ٤٣

(٥) " " " " ٤٣ — ٤٤

ولما اشتد الحصار على زحلة واوشك ان ينتهي الى ما لا تحمد عقباه وجه المستر مور في ١٦ حزيران الى الشيخ اسماعيل الاطرش ، قائد دروز حوران المقاتلين في لبنان ، كتابا لطيفا يطلب اليه فيه الامتناع عن مهاجمة زحلة والاعتداء على المسيحيين الذين يلقونهم في طريقهم . وقد نوه المستر مور بالصداقة التي تربط بريطانيا بالدروز واشار الى الخدمات الكثيرة التي ادتها اليهم وعلق على اجابة طلبه اعظم الاهمية (١) .

فاجابه الشيخ اسماعيل الاطرش في ١٩ حزيران مبديا استعداده لاطاعة اوامر حكومته واوامر المستر مور واشار الى ان قدوم دروز حوران سببه الدعوة التي وجهها زعماء الموارنة الى جميع المسيحيين وتجمع هؤلاء لمقاتلة الدروز وادعى ان المسيحيين هم الذين بدأوا بالتحرش بالمسيحيين ثم انهى الشيخ اسماعيل جوابه بقوله ان مشايخ الدروز ، عندما بلغتهم رسالته ، " عاد كل منهم اطاعة لاوامره (٢) " .

غير ان الدروز كانوا قد هاجموا زحلة في ١٨ حزيران فدافع عنها المسيحيون دفاعا مجيدا .

وقد تمكن الدروز من دخول زحلة ، لكنهم لم يلبثوا ان اخرجوا منها ولم يوقف فاعلو مطاردة المسيحيين لهم الا مشاهدة الجنود الاتراك . الا ان مؤازرة الجنود الاتراك للدروز ساعدت هؤلاء على دخول المدينة من جديد . " فغادرها اهلها مصطحبين النساء والاولاد واذ ذاك حرقها الدروز (٣) . " وقد ثبت ان الذين اشتركوا في مهاجمة زحلة مع دروز لبنان دروز حوران وقبائلها وعدد من اكراد دمشق وسكان حمص وشيعة بعلبك والجنود الاتراك (٤) .

١٠) قلاقل بيروت :- ذكر المستر مور منذ ٢٦ ايار سنة ١٨٦٠ ان الدروز والمسيحيين يقتتلون على مقربة من مدينة بيروت على الرغم من توسط الحكومة بين الفريقين وان " القلق والهياج بلغان اشدهما في كل مكان ونار البغضاء متاججة بين المسلمين والمسيحيين " ، وان البارجة البريطانية "ميرينغلي" وصلت الى بيروت وان وصولها جاء في الوقت المناسب " (٥) .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٦٢

(٢) " " " ٦٣

(٣) " " " " ٦٥ ـ ٦٩

(٤) " " " " ١٥٥ ـ ١٥٧

. . . .

وجاء في رسالة للمستر مورايخا تاريخ ٢١ حزيران سنة ١٨٦٠ انه على اثر سقوط زحلة حصل اضطراب عظيم في بيروت واخذ جميع المسيحيين فيها ينوون مغادرتها بحرا لانهم فقدوا كل ثقة في الحكومة "التركية" (١) . وفي ٢٣ حزيران ابلغ المستر مور السير هنري بلور ان قلقا شديدا استولى على مدينة بيروت على اثر مقتل احد المسلمين ، وان بعضهم يقول ان القاتل مسيحي وبعضهم يقول انه مسلم . واضاف المستر مور ان المسلمين قد دخلوا السراي صاخبين طالبين الانتقام فهرب جميع المسيحيين لاجئين الى بيوت القناصل الاوروبيين فالقي القبض على القاتل وحوكم ونفذ فيه حكم الاعدام حالا (٢) ." وان الفوضى مخيمة فوق المدينة وزمامها بيد الغوغاء " (٣) . ومن الصعب ان نصف الذعر الذي استولى على مسيحيي بيروت الذين كانوا يعتقدون ان الحكومة التركية وجنودها ومسلمي المدينة والدروز سيفعلون بهم ما فعلوا بسكان ديـــــر القمر (٤) . ومما زاد في هذا الذعر الاخبار المقلقة الواردة من صيدا وهياج مسلمي بيروت وتجول الدروز في قلب المدينة وهم مدججون بالسلاح . وقد اخذ كثير من المسيحيين على اثر ذلك وبينهم عدد من كبار التجار يسافرون الى مالطة والاسكندرية كما توقفت الاعمال التجارية ونقلت اموال المصرف العثماني وبدات السفن تعود بالبضائع التي تحملها متوجهة الى مرافئ اخرى (٥).

(١) ردود الفعل لدى قناصل الدول الاوروبية .- الحقيقة ان قناصل الدول الاوروبية كانوا يراقبون حوادث لبنان مراقبة دقيقة وكانوا لا يتركون شاردة ولا واردة منها الا ويحيطون حكوماتهم علما بها . ولم يكونوا يكتفون بذلك بل كانوا يستخدمون كل ما لديهم من نفوذ لدى السلطات التركية والسكان في سبيل حسم المنازعات الطارئة ووضع حد للفتن الداخلية . وكثيرا ما كانت تاتي السفن الحربية الاوروبية الى المرافئ اللبنانية لنقل اللاجئين وما يحتاجون اليه من مؤن ولاحداث بعض التاثير المعنوي على المكان (٦).

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٦٨
(٢) " " " " ٧٠ ـ ٧١
(٣) " " " " ٧٦
(٤) " " " " ٧٧ ـ ٧٨
(٥) " " " " ٧٨
(٦) " " " " ٤٣

ولا شك ان عوامل المصلحة الخاصة والسياسة التوسعية كانت هي التي تدفع بهم الى التدخل اكثر الاحيان ولكننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه التدخلات كان مصدرها ايضا العاطفة الانسانية ٠

١٢) مندوب القناصل الى الدروز ٠ـ وعندما نفد صبر القناصل ووجدوا ان لا طائل من مراجعة السلطات التركية رأوا انه من المناسب ان يتصلوا بأصحاب العلاقة مباشرة ٠ فاتفقوا جميعا على انتداب السيد سيريل جراهام (١) لحمل كتاب القناصل الى رؤساء الدروز وابلاغهم رغبة القناصل في ان يروا الهدوء والسلام يعودان الى ربوع لبنان ٠ وقد اشار القناصل في كتابهم الى ما كان يجري من سلب ونهب وذبح وتخريب مهددين الدروز بتحمل جميع العواقب الوخيمة التي يمكن ان تنتج عن استمرارهم في الاعمال العدوانية ضد المسيحيين طالبين اليهم التعجيل في عقد الصلح واستقدام فرقهم الموجودة في "جهات الشام وصيدا وزحلة ودير القمر وكسروان وغيرها " ٠ (٢)

وقد اجاب زعماء الدروز على كتاب القناصل في ٣ تموز سنة ١٨٦٠ فادعوا ان المسيحيين هم البادئون بالاعتداء وان سبب ذلك " الوكلاء " والرئيس الروحي المحلي " وان الدروز " في المتن مخلدون الى السكينة لكنهم قلقون من اجتماعات المسيحيين " ، واكدوا بانهم اي زعماء الدروز لم يتركوا وسيلة الا واستخدموها لمنع ابناء طائفتهم من الابتداء بالشر ثم انهوا جوابهم بترحيبهم بعقد الصلح مع المسيحيين شرط أن يضمن حقوق الجميع٠

١٣) اهتمام دول اوروبة ٠ـ ولم يكن بوسع الدول الاوروبية الكبرى ان تقف متفرجة على ما يجري في لبنان ٠ فقد بلغت انباء لبنان الفجعة مسامع سفرائها في استامبول منذ السابع من حزيران سنة ١٨٦٠ بواسطة برقية وصلتهم من ازمير ٠ فاجتمعوا واستقر رايهم على ارسال تعليمات الى قناصل دولهم في بيروت للقيام بكل ما في وسعهم من اجل اعادة الامن والهدوء الى نصابهما ٠ كذلك اتصل سفير بريطانيا باميرال البحر الانكليزي في جزيرة مالطة طالبا اليه ارسال بارجة كبيرة الى مياه بيروت " نظرا للحوادث الخطيرة الجارية فيها " (٣) وقد اوصى

---

(١) فتى انكليزي كان مشهورا برحلاته في الشرق وصداقته لكثير من الزعماء وكان يجيد العربية ويعرف عادات الشرقيين (المحررات ج ٢ ص ٨٩)٠

(٢) المحررات ج ٢ ص ٨٩ ـ ٩٠

(٣) " " " ١٠٥ ـ ١٠٧

السفير الانكليزى قنصل بلاده العام في بيروت ان يبذل جهده في سبيل توحيد مساعي القناصل الرامية الى انهاء " القتال الناشب ... وازالة الخلاف الذى نشأت عنه هذه الحرب (٢) " . وعندما ابلغ سفير بريطانيا وزير الخارجية التركية الانباء التي وصلته ادعى انه لم يرد عليه اى نبأ جديد من بيروت منذ ثلاثة اسابيع وان الحكومة غير مطلعة على الحوادث الجارية وانها عازمة على ارسال " بارجة وطابورين في الحال الى شواطئ" سوريا وان تتخذ الوسائل اللازمة لاعادة الامن الى نصابه " . (٢)

وفي ١٩ حزيران سنة ١٨٦٠ وجه القناصل في بيروت مذكرة مشتركة الى خورشيد باشا ملحين عليه بضرورة حقن الدماء وعرضوا عليه الذهاب معه الى اماكن الحوادث للتوسط معا بين الفريقين فاجاب بان لديه ما يكفي من الجنود للسيطرة على ناصية الموقف وان سلطته لا تمتد الى دروز حوران ، واقترح ان يدعو الفريقين الى عقد صلح بينهما شرط " ان يصرح الفريقان بتناسيهم الماضي ويعدلا عن المطالبة بالتعويض على الخسائر التي اصابتهما " وقد اعلن خورشيد باشا للقناصل ان هذا الاتفاق لا يقيد الباب العالي . فجرى نقاش بين القناصل وخورشيد حول هذا الشرط الاخير واستقر الرأى اخيرا على دعوة زعماء الطائفتين الى المصالحة(٣) . وفي ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ ارسل القناصل مذكرة ثانية الى خورشيد باشا بهذا المعنى بينوا له فيها خطورة الحالة في لبنان وضرورة الاسراع في اتخاذ التدابير اللازمة (٤) .

١٤) عقد الصلح بين الفريقين .— وتمكن خورشيد باشا في ٦ تموز سنة ١٨٦٠ من تحقيق الوعد الذى قطعه لقناصل الدول فيما يتعلق بمصالحة الدروز والنصارى . فقد وقع اتفاق الصلح في التاريخ المذكور ، بناء على دعوة مشيرصيدا ، والقائمقام المسيحي والوكلاء واصحاب الاقطاعات واعضاء المجلس الادارى والاعيان من النصارى والقائمقام الدرزى والوكلاء واصحاب الاقطاعات واعضاء المجلس الادارى والاعيان من الدروز . اما غاية الاتفاق فهي " استئصال اسباب الشقاق ... وضمان الراحة العامة في المستقبل .. وفقا لاوامر دولة المشير " . وقد اعترف الموقعون " بان الحكومة وزعماء البلاد وعقلاءها المحبين خيرها وامنها لم يفترقوا

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٣٤

(٢) " " " ٣٥

(٣) " " " ٦٧

(٤) " " " ٦٧ — ٦٨

من مواصلة السعي لاتقاء وقوع الاضطرابات " • وقد جرى هذا الصلح وفاقا للاتفاقية الموقعة بين الفريقين المتنازعين سنة ١٨٤٥ والتي كان قوامها "تناسي الماضي" • كذلك وافق الفريقان المتعاقدان على التنازل عن كل التعويضات المتعلقة بما سبق حدوثه من قلاقل وان نظام القائمقاميتين او نظام شكيب افندي يبقى نافذا • وقد انيط تنفيذ هذا النظام بالقائمقامين واصحاب الاقطاعات كما طلب اليهم " ان يبذلوا جهدهم لتوحيد كلمة الطائفتين ••• واعادة كل شخص الى بيته •••• ليعيش براحة ويستلم امواله واملاكه •••" وقد الح الاتفاق الجديد على ضرورة تحقيق العدل التام" وانصاف كل شخص بمنتهى النزاهة "• وقد كتب الاتفاق على اربع نسخ وقعها كل من الطائفتين فاحتفظ كل من الطرفين المتعاقدين بنسخة وسلمت نسختان الى مشير صيدا • (١)

ومن الجدير بالملاحظة ان هذا الاتفاق قد تم في معزل عن قناصل الدول الاوروبية ودون ان يكون لهم به اية علاقة • وقد جرى بناء على دعوة مشير صيدا وتحت اشرافه المباشر • وقد ارسل خورشيد باشا مذكرة الى القناصل في ١٣ تموز سنة ١٨٦٠ جاء فيها ما يلي: "اما الان فان دعائم الراحة قد توطدت اكثر من ذي قبل لوجود قوة كافية تزيد ٤ اضعاف عما كانت عليه ••• وذلك بفضل مساعي الحكومة المحلية المستمرة وسهرها ليل نهار • وعليه فقوة الحكومة وهيبتها كافيتان ••••• لحفظ راحة المدينة ••• بعد ان الحكومة ترغب اليكم ان تامروا رعاياكم وموظفيكم والمستظلين بحمايتكم ان يطبقوا اقوالهم واعمالهم على مقتضيات الحال في هذه الاونة الحرجة متجنبين ايتان (اتيان) ما يخل بالراحة "• (٢) وقد تضمنت المذكرة ابلاغ القناصل الاتفاق الذي تم توقيعه بين الدروز والمسيحيين في ٦ تموز والحقيقة انه كان بالمكان هذا الاتفاق وما كان ينتظر ان يرافقه من عودة للسلم والهدوء الى لبنان ابعاد الدول الاوروبية عن التدخل في شؤون لبنان ولو الى حين • ولكن حوادث دمشق عجلت بقلب الموقف راسا على عقب وحمل الدول الاوروبية على التدخل بصورة مباشرة وبقوة السلاح •

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٠٩ — ١١١ وتيمبتا ج ٦ ص ٨٤

(٢) المحررات ج ٢ ص ١٤٧ — ١٤٨

١٥) مذابح دمشق ٠ـ من الصعب تحديد الاسباب المباشرة لحوادث دمشق٠ ولكن يرجح ان العوامل التي شجعت عليها تهاون السلطات التركية في قمع لحوادث التي سبقتها واشاعة دخول الجيش الروسي الى البغدان " مولدافيا " واخيرا مجازر لبنان ٠ وقد كانت النيات يهاجم الحي المسيحي في دمشق قبل عيد الاضحى الواقع في ٢٩ حزيران سنة ١٨٦٠٠ والحقيقة ان حوادث الاعتداء على المسيحيين كثرت في ذلك الوقت الى حد كبير ٠ وقد استقدم احمد باشا زعماء الدروز الى دمشق ٠ ولكن المسيو لانوس نائب قنصل فرنسا في دمشق والامير عبد القادر الجزائري بذلا كل ما في وسعهما في سبيل ابعاد الخطر المحدق بالمسيحيين ٠ ثم تقرر ان يكون عيد الاضحى موعدا للهجوم فاستقدم الامير عبد القادر جميع رجاله العاملين في حراثة السهول المجاورة فسلحهم وامرهم بالطواف في الاحياء والسهر على راحة المسيحيين ٠ فمر عيد الاضحى دون ان يحدث حادث مكدر ٠

وفي ٩ تموز صرف الامير عبد القادر رجاله وذهب الى الصالحية للاصطياف (٢)٠ وفي ذلك اليوم اخذ بعض الرعاع من المسلمين يتحرشون بالمسيحيين فكانوا يطوفون في الشوارع ويتحدون النصارى باقوالهم وافعالهم دون ان يبدي والي دمشق اية رغبة في اعادة الامن والسلام الى نصابهما (٣) ٠ وقد لفت قناصل الدول وزعماء الاسر نظر احمد باشا الى هذه التحديات فاجاب بان العدل سياخذ مجراه مهما كلف الامر ٠ ولكن العقوبات التي انزلها بالمذنبين كانت ذات نتائج سلبية لانها زادت في تحرج الموقف ٠ فقد ارسل الرعاع الذين اهانوا المسيحيين مكبلين بالحديد وامرهم بتكنيس شوارع الحي المسيحي فاغاظ هذا المشهد المسلمين فاجتمعوا وهجموا على المسيحيين الامنين في الشوارع وكان ذلك عند الظهر ، وبعد ساعة بلغ التوتر اشده واجتمع المسلمون بكامل سلاحهم وعند الساعة الثانية هاجموا القنصلية الروسية وكان القنصل في زيارة المسيو لانوس ، فذبحوا ترجمان القنصلية الروسية خليل شحاده وسائر الموظفين ثم اخذوا يسلبون وينهبون ويحرقون ٠ ولم يمض طويل وقت حتى اشتعلت النار في حي باب توما فهرع سكانه الى قنصليتي فرنسا

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨
(٢) " " " " ١٧٩ ـ ١٨٠
(٣) " " " " ١٣٩ ـ ١٤١

فقتل كثيرمنهم في الطريق • عند ذلك وصل الامير عبد القادر من الصالحية يصحبه نفر من رجاله فرافق الى القنصلية الفرنسية جميع المسيحيين الذين التقى بهم في الطريق ثم قاد هؤلاء مع قناصل فرنسا والروسيا واليونان وراهبات المحبة والاباء العازاريين الى قصره • وظل يطوف المدينة طوال الليل باحثا مع رجاله الجزائريين عن المسيحيين مرافقا اياهم الى داره او الى القلعة • وقد بلغ عدد الذين انقذهم واوصلهم الى القلعة ١١٠٠٠ نسمة وعدد الذين ادخلهم الى بيته ثلاثة الاف • اما جنود حامية دمشق وكانوا يبلغون الالفين فلم يحركوا ساكنا • وعندما ارخى الليل سدوله عادوا الى القلعة • اما المسيحيون الذين لم يتمكنوا من الاجتماع بالامير عبد القادر ، وكان بينهم كثيرمن لاجئي حاصبيا وراشيا والقرى المجاورة لدمشق ، فقد قصدوا دير صيدنايا الباعد نحو ساعتين من دمشق ولكنهم فوجئوا وهم في الطريق بهجوم عنيف فقتل معظمهم وقد تمكن بعض المسيحيين وبينهم عدد من الكهنة من الالتجاء الى دور بعض المسلمين فاكرموا وفادتهم • وقد اشتركت حامية دمشق بالذبح والسلب • ومن الجدير بالذكر الموقف المشرف الذى وقفه قائد الجند الضابط سليم بك في حي الميدان حيث انتصر للمسيحيين في العاشر من حزيران (١)• ويوم الاربعاء في ١١ تموز حزيران التهمت النيران الحي المسيحي باجمعه • ووقعت اعمال عنف كثيرة •

وفي ذلك اليوم بلغ عدد اللاجئين الى القلعة ١١ الف نسمة • ولما نفد الزاد عند الامير عبد القادر اتفق وقناصل الدول على ان يحتفظ في قصره بمن يستطيع تامين قوتهم وان يرسل الباقين الى القلعة • وقد عمل المسيو لانوس ووكيل القنصلية اليونانية على شراء الخبز والماكولات الى لاجئي القلعة وساعدهم في توزيعها عليهم الاباء العازاريون وراهبات المحبة •

ولم تنته مجزرة دمشق الا يوم الاثنين في ١٦ تموز عندما وصل محمد باشا والي دمشق الجديد يصحبه ثلاثة الاف رجل من الجند النظامي • وقد امر فور وصوله بنزع السلاح من جميع سكان دمشق ولكن المسيحيين لم يطمئنوا على ارواحهم الا ابتداء من ١٩ تموز (٢)•

---

(١) المحررات ج ٢ص ١٨٠ ــ ١٨٢

(٢) المحررات " " ١٨٢ ــ ١٨٤ (عريضة مسيحيي دمشق الى قناصل الدول في ٢٠ تموز ١٨٦٠) راجع ايضا المحررات ج ٢ص ١٣٧ ــ ١٤١ و ١٤٢ ــ ١٤٦

الفصـــل الثالث
تدخل اوروبا سنة ١٨٦٠

القسم الاول
مقدمـــات التدخل

١) اهتمام الدول الاوروبية :ـ عندما وقعت حوادث سنة ١٨٦٠ ، بعد ان سبقتها حوادث سنة ١٨٤٥ ، ومن قبل حوادث سنة ١٨٤١ ، اهتمت حكومات فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا وبروسيا اهتماما عظيما بالامر واخذت تتشاور فيما بينها للقيام بالخطوات اللازمة لدى الباب العالي ، وايقاف الفتن بصورة فعالة ٠ وقد تولت فرنسا تحريض الدول الاوروبية الكبرى على الاحتجاج ٠ ففي الخامس من تموز سنة ١٨٦٠ اجتمع في باريس السيد توفنيل ، وزير الخارجية الفرنسية انذاك باللورد كاولي السفير البريطاني في العاصمة الفرنسية وابلغه وجهة نظر حكومته ، موضحا له ان التقارير الوارد من قناصل فرنسا في بيروت وغيرها من المدن اللبنانية تفيد ان الدروز يشنون هجمات مسلحة متوالية على الموارنة وان هؤلاء مهددون بخطر الفناء ٠ وقد تضمنت التقارير المذكورة انباء تفيد ان المذابح تطورت الى حد جعل الاوروبيين مهددين في ارواحهم وممتلكاتهم ٠ وقد اقترح السيد توفنيل ، في سبيل حماية هؤلاء الاوروبيين ، ارسال قوات بحرية الى سواحل " سوريا وايفاد لجنة خماسية الى لبنان لاجراء تحقيق واسع وتنفيذ الوعود المقطوعة بشان حماية المسيحيين في الشرق (١)٠

كذلك ارسل المسيو توفنيل الى سفراء دولته في لندن وفيينا وبطرسبورج وبرلين في ٦ تموز سنة ١٨٦٠ كتابا اشار فيه الى حوادث لبنان واهتمام الدول الاوروبية بحماية المسيحيين وبين ان تدخل الدول الاوروبية في شؤون لبنان ليس بالامر المستحدث ولا يعد تدخلا يمكن ان يمس هيبة الحكومة التركية او استقلالها بل هو نتيجة اتفاق سابق رضي به

---

(١) المحررات ج ٢ ص
(رسالة اللورد كاولي الى اللورد راسل في ٥ تموز سنة ١٨٦٠)

الباب العالي ولا بد من ان يكون راغبا في بقائه . لقد طلب المسيو توفنيل الى سفراء دولته ان يقترحوا على حكومات البلدان المعتمدين لديها تاليف لجنة من مندوبي الدول والباب العالي وارسالها الى لبنان للتحقيق في اسباب حوادث سنة ١٨٦٠ وتحديد المسؤوليات سواء فيما يتعلق بزعماء الطائفتين او موظفي الادارة المحلية ، وتعيين التعويضات المتوجبة لذوى الضحايا ثم درس الانظمة التي يجب تقريرها تفاديا لتكرر هذه الحوادث ، وعرضها على حكومات الدول الاوروبية والباب العالي للموافقة عليها . وكان المسيو توفنيل يرمي الى ابرام اتفاق جديد مع الباب العالي نظرا للاهمية التي توليها فرنسا للمسالة اللبنانية بسبب العلاقات التقليدية التي تربط البلدين . وقد اكد وزير الخارجية الفرنسية في اخر رسالته تجرد حكومته وترفعها فوق النعرات الدينية (١). وفي ٦ تموز كتب المسيو توفنيل ايضا الى المركيز دى لافاليت سفير فرنسا في الاستانة فاعرب له عن الاثر السيء الذى احدثته حوادث لبنان لدى الحكومة الفرنسية وبين ان التقاليد القديمة تقضي على فرنسا بان ترفع صوتها مطالبة باتخاذ جميع التدابير اللازمة لوقف القلاقل المؤلمة .

وينحي المسيو توفنيل في كتابه باللائمة على الموظفين الاتراك ويتهم الحكومة التركية بالعجز عن توفير النظام والامن ثم يطلب الى سفيره ان يحث الحكومة التركية على معاقبة المجرمين . وينهي كتابه بالاشارة الى ضرورة اعادة النظر في نظام لبنان (٢).

فاجاب المركيز دى لافاليت ان الحكومة التركية تبرر عجزها عن توفير الامن بالصعوبات المالية التي كانت تتخبط فيها وتقول انه عندما توفرت لديها الاموال اخيرا ارسلت القوات اللازمة لحفظ النظام والمحافظة على ارواح رعاياها . وابلغ السفير الفرنسي وزير خارجية بلاده نبأ ابحار فؤاد باشا الى بيروت يوم الخميس الواقع في ١٢ تموز على متن بارجة تركية تصحبها سفينتان تحملان الجند والذخائر (٣).

ولما كانت فرنسا تعلق على هذه القضية اعظم الاهمية وكان الباب العالي بدأ يدرك خطورة الموقف ، فقد وجه السلطان عبد المجيد الى الامبراطور نابوليون الثالث في ١٦ تموز سنة ١٨٦٠ رسالة خاصة اعرب له فيها عن اسفه لحوادث " سوريا " واكد له عزمه

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٧
(٢) " " " " ١٦٧ ـ ١٦٨
(٣) " " " " ١٧١ ـ ١٧٢

على اعادة الامن والسلام وانزال اشد العقوبات في الجناة • وابلغه انه عهد بهذه المهمة الى وزير خارجيته فؤاد باشا (١)• وكان قد صدر الفرمان القاضي باناطة هذه المهمة بفؤاد باشا في اول تموز من السنة المذكورة • وقد منح الفرمان فؤاد باشا اوسع الصلاحيات واوضح له مهمته الرامية الى تهدئة الخواطر واعادة الامن الى نصابه كما اسبغ عليه اعظم الصفات والالقاب (٢)•

٢) التدخل المسلح •ـ لم تكتف فرنسا بالمخابرات الديبلوماسية والدعوة الى التدخل الجماعي من قبل الدول الاوروبية بل بعثت بعمارة بحرية الى بيروت بقيادة الاميرال جهين Jéhenne مدعية انها تريد حماية الرعايا الفرنسيين والموارنة • غير ان انكلترا لم ترض بان تكون فرنسا الممثلة الوحيدة لاوروبا في هذه المهمة • فطلبت الى وكيل الاميرال مارتان ان يلحق بالعمارة البحرية الفرنسية على راس عدد كبير من القوات البحرية للذود عن المصالح البريطانية في الشرق (٣)•

٣) طابع التدخل •ـ وما ان وصلت انباء مذابح دمشق اوروبا في ١٦ تموز سنة ١٨٦٠ حتى بادر السيد توفنيل الى مقابلة الامبراطور نابوليون الثالث فقررا معا مبدأ التدخل المسلح • وكانت القوات البحرية الفرنسية في طريقها الى بيروت للعمل على توفير الامن بعد ان عجزت القوات العسكرية العثمانية من ذلك • وفي مساء ذلك اليوم اطلع المسيو توفنيل اللورد كاولي على قرار الحكومة الفرنسية كما ابلغه للسيد برسيني سفير فرنسا في لندن (٤) • وقد طلب وزير الخارجية الفرنسية الى سفير بلاده في لندن في ١٧ تموز ان يلفت نظر الحكومة الانكليزية الى ضرورة اتفاق الدول في هذه المسالة الدقيقة الخطيرة كي يسهل مهمة الباب العالي وان يبين لها ان وضع الاساطيل البحرية تحت تصرف القناصل لا يكفي بل من الضروري وجود فيلق من الجنود تكون متوفرة لديهم جميع الوسائل والمعدات اللازمة لان ذلك من شانه ان يؤثر ماديا ومعنويا • واكد الوزير الفرنسي ان هذا التدبير لا ينفذ الا بالاتفاق مع الباب

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٦٨
(٢) " " " " ١٧٣ ـ ١٧٥
(٣) جوبلان ص ٤٠٤
(٤) المحررات ج ٢ ص ١٦٩ ـ ٧٠

العالي وبعد ان توافق عليه الدول الاوروبية الخمس الكبرى كما بينا ، موافقة بريطانيا المسبقة ضرورية لان موافقة سائر الدول تتبعها بصورة الية . وقد اجاب الكونت دى برسيني سفير فرنسا في لندن في ١٨ تموز ان وزير خارجية بريطانيا اضطرب لدى سماعه الاقتراح الفرنسي المتعلق بارسال جنود الى سوريا وان الحكومة الانكليزية قبلت رغم ذلك الاقتراح الفرنسي بصورة مبدائية معلنة انها لا تستطيع ارسال جنود بريطانيين الى سوريا لانه ليس لديها قوات برية كافية . غير ان بريطانيا وعدت بتعزيز قواها البحرية على الشواطيء السورية شرط ان يعهد بحماية البلدان الداخلية الى جنود فرنسيين يمكن ان يضاف اليهم جنود نمسويون . كذلك رفضت بريطانيا اشتراك الجنود الـــــروس والبروسيين واشترطت ان لا ينزل الجنود الفرنسيون ارض لبنان الا بعد التوقيع على اتفاق يعقد بهذا الشان بين الدول صاحبة العلاقة (١) . فنستنتج من ذلك ان الحكومة البريطانية لم توافق على التدخل المسلح حسب الاقتراح ~~الفرن~~/ الفرنسي الا اذا ارتدى التدخل طابعا دوليا واضحا وشرط ان تقتصر مهمة القوات الفرنسية على حماية مسيحيي الداخل ولا سيما مسيحيي جبل لبنان وان يكون بالامكان تعزيز القوات الفرنسية بقوات نمسوية اذا اقتضت الحاجة .

ولم يكن الانكليز ليؤمنوا بتجرد نابليون الثالث ، فراحوا يتساءلون عن حدود الاطماع التي تراود نفسه وعن الثمن الذى سيطلبه مقابل تدخله في سوريا وعن المصير الذى كان ينتظر هذه البلاد (٢) . وقد حرصت حكومة صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ، كما راينا اعلاه ، على ان يرتدى التدخل طابعا دوليا/ واضحا لاتفاق دولي يجرى التفاوض بشانه بينما تكون القوات الفرنسية في طريقها الى البلاد المرسلة اليها . وقد رغب اللورد رسل وزير الخارجية الانكليزية الى المسيو توفنيل وزير الخارجية الفرنسية ، وضع مسودة الاتفاق الانف الذكر ، دفعا لشكوك الحكومة الفرنسية وملاطفة لها (٣) .

غير ان الحكومة البريطانية كانت لا تزال محافظة على سياستها التقليدية في المسالة الشرقية . فكانت تعرف ان الموارنة في لبنان يتمتعون بحماية فرنسا ، التي كانت تنافسها في الحقلين الاقتصادى والسياسي في بلدان الشرق . وكانت الغاية

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٢) جوبلان ص ٤٠٥ نقلا عن الصحف البريطانية

(٣) المحررات ج ٢ ص ١٧١

الرئيسية للسياسة الانكليزية ازاء الامبراطورية العثمانية الحؤول دون تقسيم هذه الامبراطورية او وقوع اي جزء من اجزائها بين يدي اية دولة من دول اوروبة . كانت بريطانيا تعمل دائما على اطالة عمر الرجل المريض والمحافظة على حدود امبراطوريته ، ولذلك كانت تحرص على اخفاء عجز الحكومة التركية عن اقرار السلام والنظام وعلى التقليل من اهمية الحوادث ، والقاء تبعتها على عاتق الطائفتين المتنازعتين على السواء . وهكذا فانها عندما علمت في ٢٠ تموز ارتأت تاجيل البعثة العسكرية الفرنسية او العدول عنها لا سيما وانه اصبح لدى الباب العالي في سورية قوة كبيرة من الجند كافية لضمان الامن والسكينة اثناء انصراف اللجنة الاوروبية الى اعمالها . فلم توافق الحكومة الفرنسية على هذا الراي بل اصرت على ضرورة ايفاد الحملة العسكرية (١) . وتمسكت بريطانيا برايها اذا ما تاكدت الانباء القائلة بان الامن قد استتب في البلاد .

واشترطت بريطانيا ، في حالة الاضطرار الشديد الى ارسال البعثة العسكرية الفرنسية الى سوريا ، ان يحدد ميعاد جلاء الجيوش الاجنبية عن هذه البلاد في الاتفاقية الدولية التي عهد الى فرنسا وضع مسودتها وان تجعل مدة الاحتلال مثلا ستة اشهر وان لا يفرض على السلطات تامين نفقات الحملة العسكرية . وعلى كل حال فقد حرصت انكلترا على الملاحظة بانها لم توافق على ارسال الجيوش الاجنبية الى داخل سوريا الا مرغمة " اذ ربما اثار ارسالها تعصب المسلمين فيؤخر اعادة السلم الى البلاد بدلا من التعجيل به ، فتحدث عراقيل دولية خطيرة . وعليه يرغب بان لا يقدم على الاحتلال الا متى ثبت وجوبه ويبادر حالا الى وضع حد له عندما لا يبقى اليه حاجة (٢) . ولما كانت المخاوف تساور نفس الحكومة الانكليزية وتجعلها تميل الى العدول عن ارسال جنود الى سوريا فقد اوضحت لها الحكومة الفرنسية ان معظم المسيحيين في لبنان قد لاذوا بكسروان وانه يخشى ان يكون عقد الصلح بينهم وبين الدروز قد جرى لغير مصلحتهم بتاثير الخوف وان مذابح دمشق قد حدثت بعد تاريخ الصلح المشار اليه وانه يخشى ان تمتد هذه المذابح الى سائر المدن والمناطق السورية . وبينت الحكومة الفرنسية كيف انها لم تخص نفسها باي دور استثنائي في هذه القضية بل حرصت على اشراك سائر الدول الكبرى

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٧١

(٢) " " " " ١٨٦ ـ ١٨٧

وعلى عقد اتفاق دولي سابق مع الباب العالي بهذا الشأن . وقد الحت فرنسا على انكلترا في ضرورة العدول الى حسن استعدادها السابق وان تشترك واياها في العمل في سوريا على قدم المساواة ، على الرغم من ان هناك اسبابا كافية تحمل فرنسا على التفرد بالتدخل كنهب دار القنصل الفرنسي في دمشق وقتل المرسلين الفرنسيين واهانة العلم الفرنسي (١). الا ان بريطانيا سارعت الى تبديد ما دعته باوهام الحكومة الفرنسية فاكدت لها رغبتها في " مجاراتها الى ما تريد عندما تثبت ضرورة التدخل بالقوة في سوريا وانه ليس بكثير اذا طلبت لقاء ذلك التروي قبل الاقدام على هذا التدخل (٢).

واخيرا وافقت انكلترا بصورة جازمة على ارسال الجنود الاوروبيين الى سوريا ضمن الشروط الثلاثة الاتية :

اولا ان لا تستخدم هذه الجنود الا اذا عجزت السلطات التركية عن توفير الطمانينة واذا طلب فؤاد باشا استخدامها .

ثانيا ان تعقد اتفاقية بين الدول الكبرى والباب العالي بهذا الشان في اقرب وقت ممكن .

ثالثا ان لا يستمر احتلال سوريا اكثر من ستة اشهر .

لقد كانت بريطانيا حريصة على ان لا يكون التدخل وفاقا للحماية القديمة لمسيحيي الشرق الكاثوليك ، التي كانت لفرنسا وحدها بل وفاقا لاتفاق دولي واضح الاهداف والشروط وذلك لتشديد المراقبة على الاعمال الفرنسية في سوريا (٣).

ولا غرو في ذلك فان فرنسا اذا ما تدخلت استنادا الى حقوقها الشخصية فانها تستقل في جميع اعمالها وتستاثر بمعالجة شؤون " سوريا " .

وقد اضطرت فرنسا الى قبول الشروط الانكليزية بسبب المخاوف التي كانت تبديها بريطانيا (٤) . اما الروسيا فقد اظهرت استعدادها للتوقيع على الاتفاقية الرامية الى اعادة السلام الى سورية " . ولكنها ارتات ان تشمل هذه الاتفاقية مادة تتعهد

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٨٩ ــ ١٩٠
(٢) " " " " ١٩٢ ــ ١٩٤
(٣) " " " " ١٩٥ ــ ١٩٦ ، تيستا ج ٦ ص ٨٨
(٤) " " " " ١٩٦ ــ ١٩٨

تتعــهد فيها الدول الاوروبية بتحسين حالة المسيحيين في سائر انحاء الامبراطورية العثمانية وبالتدخل بصورة جماعية اذا ما وقعت اضطرابات في جهات ثانية من الامبراطورية ، كتدخلها في سوريا ، شرط ان يكون ذلك كله بالاتفاق مع الباب العالي (١)٠

لكن الحكومة البريطانية عارضت الاقتراح الروسي (٢) معارضة شديدة كما عارضته تركيا (٣) بينما ابدت بروسيا والنمسا استعدادهما لقبول الاقتراح الروسي (٤)٠

وبعد ذلك كله وجهت فرنسا الدعوة الى ممثلي الدول الخمس الكبرى في باريس الى عقد مؤتمر بالاشتراك مع ممثل الباب العالي ٠

وقد حاولت تركيا ان تحول دون ارسال الحملة العسكرية الى سوريا على الرغم من موافقتها على ايفاد لجنة التحقيق الاوروبية والعمل على اصلاح نظام سنة ١٨٤٥ ٠ وفاقا لاتفاقية دولية تعقد بين ممثل جلالة السلطان وممثلي الدول الاوروبية الخمس الكبرى في باريس ٠ وقد بين وزير الخارجية التركية لسفيري فرنسا وانكلترا في الاستانة ان جيش السلطان الموجود انذاك في "سوريا" كاف لتحقيق المهمة التي ستلقى على عاتق الحملة العسكرية الاوروبية ٠ وابلغ سفير تركيا في باريس انه اذا كان لا بد من ايفاد حملة عسكرية فيجب ان تتم حركات جنودها بالاتفاق مع مندوبي الباب العالي وان يعين عددها وفقا لضرورات الحالة وان يحدد وقت جلائها (٥)٠

وبعد ذلك كله وجهت فرنسا الدعوة الى ممثلي الدول الخمس الكبــــرى فـــي باريس لعقد مؤتمر بالاشتراك مع ممثـــــل الباب العالي في ٣ اب سنة ١٨٦٠ ٠

---

(١) المحررات ج ٢ص ١٨٥ ـ ١٨٦ و ٢٢٩ ـ ٢٣٠٦
(٢) " " " " ١٩٨
(٣) " " " " ٢٣٠
(٤) " " " " ٢٣١
(٥) " " " " ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩

القسم الثاني

بروتوكول ٣ اب واتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠

وفي ٣ اب سنة ١٨٦٠ اجتمع ممثلو الدول الخمس الكبرى في باريس بممثل تركيا للاتفاق على خطة مشتركة بشأن قضايا "سوريا" . وقد مثل جلالة السلطان احمد وفيق افندى السفير التركي لدى امبراطور فرنسا ، وجلالة امبراطور روسيا الكونت دى كيسيليف سفير الروسيا ، وملك بروسيا الامير دى روس ، وكيل السفارة البروسية ، وجلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا اللورد كاولي ، السفير البريطاني ، وجلالة امبراطور النمسا السيد مترنيخ ، السفير النمسوى (١).

وقد اراد المجتمعون التقيد بمعاهدة باريس سنة ١٨٥٦ فاعلنوا انهم لا يبغون سوى معاونة الباب العالي على تهدئة الخواطر واعادة الامن والنظام الى ارجاء البلاد على ان يجرى ذلك دون اى تجاوز لسيادة الباب العالي التامة (٢).

١) نص بروتوكول ٣ اب سنة ١٨٦٠ - المادة الاولى : يرسل الى سوريا جيش من الجنود الاوروبيين يمكن زيادة عدد رجاله الى اثني عشر الفا ، وذلك ليعمل على توطيد الراحة فيها .

المادة الثانية : ان جلالة امبراطور الفرنسيين رضي ان يجهز في الحال نصف الجيش ، واذا اقتضى الامر ايصاله الى العدد المحدد في المادة السابقة . فعلى الدول ان تتفق دون تاخير مع الباب العالي عن طريق المفاوضة الدولية العادية على تعيين الدولة التي يتوجب عليها تقديم الجنود اللازمين .

المادة الثالثة : على قائد هذه البعثة (الحملة) العام ان يخابر فور وصوله المندوب

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١
(٢) " " " ٢٤٢ - ٢٤٣

فوق العادة من قبل الباب العالي للاتفاق على اتخاذ جميع الوسائط التي تستدعيها الاحوال لاحتلال المواقع التي يجب النزول فيها لبلوغ الغاية المقصودة ٠

المادة الرابعة : ان اصحاب الجلالة امبراطور النمسا وامبراطور الفرنسيين وملكة بريطانيا العظمى وسمو الاميرالوصي في بروسيا وجلالة امبراطور الممالك الروسية يعدون بمواصلة ارسال القوات البحرية الكافية الى شواطئ سوريا وابقائها فيها للمساعدة على توفير النجاح للمساعي المشتركة الهادفة الى توطيد الراحة في تلك البلاد ٠

المادة الخامسة : ان الدول المتعاقدة جعلت مدة احتلال الجنود الاوروبيين لسوريا ستة اشهر لاعتقادها انها كافية لاعادة الامن المنشود ٠

المادة السادسة : يتعهد الباب العالي ان يبذل ما في وسعه لتسهيل تموين هذه الحملة العسكرية ٠

٢) كيف اصبح البروتوكول اتفاقية ٠ــ استقر الرأي على ان تؤلف المواد الست الآنفة الذكر اتفاقية يوقع عليها ممثلو الدول فور وصول وثائق التفويض اللازمة من قبل دولهم بهذا الشان على ان يجرى تنفيذها في القريب العاجل ٠ وفي ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ وضعت هذه المواد بشكل اتفاقية ، وكانت وثائق التفويض اللازمة قد وصلت ممثلي الدول فمهروها بتواقيعهم بعد ان اضافوا اليها مادة سابعة تضمنت تحديد المدة التي تتم فيها الموافقة على هذه الاتفاقية وهي خمسة اسابيع على الاكثر ٠ وقد حرص ممثلو الدول في قرار خاص جعلوه كملحق لاتفاقية ٥ ايلول على التصريح بتجردهم من كل غرض او مطمع فبينوا ان دولهم لا ترمي مطلقا الى الاستيلاء على ارض او اكتساب نفوذ خاص او بعض امتيازات تتعلق بتجارة رعاياها مما لا يمكن منحه لرعايا سائر الدول ٠ وذكر ممثلو الدول الباب العالي بتعهدات جلالة السلطان التي تضمنتها المادة التاسعة من معاهدة ٣٠ اذار سنة ١٨٥٦ موضحين الاهمية الكبرى التي تعلقها دولهم على تحقيق الباب العالي لوعوده ، وذلك باتخاذ الاساليب الادارية الحازمة والاحتياطات التي تكفل اصلاح حالة المسيحيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية على اختلاف مللهم ٠ وقد اعلن سفير تركيا اطلاعه على تصريح ممثلي الدول ووعد بابلاغه الى الباب العالي مؤكدا

ان الحكومة التركية لم تكف عن الاهتمام بتحقيق الامنية الانفة الذكر (١).

وهكذا فان بريطانيا بذلت كل مافي وسعها لتبقي على كامل سيادة السلطان ولترسم اضيق حدود ممكنة للمساعدة الاوروبية مخضعة هذه السيادة لموافقة السلطان ولاشرافه المباشر . وحرصت الحكومة البريطانية ايضا على اعطاء هذه الحملة صفة اوروبية حتى لا تستطيع القوات المرسلة ان تقوم بأي عمل من غير موافقة الدول الموقعة على الاتفاقية كما تمكنت من احراز موافقة اجماعية على السماح للدول الاوروبية ذات العلاقة بارسال عدد غير محدود من السفن الحربية دون تعيين مدة رسوها في المياه الاقليمية السورية . ولما كان في حوزة بريطانيا اكبر اسطول بحري فقد كانت اكثر الدول الخمس اقتدارا على الاستفادة من هذه المادة . لقد كانت الغاية الرئيسية من اتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ تقديم المساعدة لجلالة السلطان لاعادة الامن والنظام الى ربوع "سوريا" دون ان تنطوي هذه المساعدة على اية رغبة في فتح او احتلال . وكانت اتفاقية ٥ ايلول من هذه الناحية على درجة من الوضوح لا تحتمل اي التباس .

وبعد اربعة ايام من توقيع بروتوكول ٣ اب سنة ١٨٦٠ استعرض الامبراطور نابليون الثالث جنود الحملة الفرنسية الى سوريا في معسكر شالون في مدينة تولون وكان عددهم حوالي ستة الاف . اما قائد هذه الحملة فكان الجنرال دي بوفور الذي سبق له ان عمل تحت امرة ابراهيم باشا فتعرف بهذه المناسبة الى سوريا . وقد وجه اليهم الامبراطور امرا يوميا اوضح لهم فيه مهمتهم ، بمنتهى الحكمة واللباقة .. ومما قاله "انكم مسافرون الى سوريا . ففرنسا تحيي بسرور حملة غايتها الوحيدة نصر حقوق العدالة والانسانية . لستم بذاهبين لمحاربة احدى الدول بل لمساعدة السلطان على اخضاع رعايا اعماهم تعصب الاجيال الغابرة " . (٢) فنرى ان خطاب الامبراطور الفرنسي ينطوي على اعتراف ضمني باستقلال السلطان وسيادته على البلاد التي يتوجه اليها جنود

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٩

(٢) " " " " ٢٥١ ـ ٢٥٣

فرنسا ، وجاء في الكلمة الوداعية التي وجهها الى الجنرال دى بوفور في ٧ آب : "اني اكون تعيسا اذا لم تتمكنوا من العودة بعد ثلاثة اشهر (١)". فلم يكن في نية فرنسا اذا سوى المساهمة الى جانب الدول الاوروبية في توطيد سيادة السلطان والمحافظة على حدود امبراطوريته وضمان الامن والاطمئنان في البلدان التي اجتاحتها الفوضى والفتن ردحا من الزمن . وهكذا يرتدى التدخل الاوروبي في الامبراطورية العثمانية لاول مرة طابعا جماعيا اذ اشتركت فيه الدول الاوروبية الخمس الكبرى متضامنة وطابعا تعاونيا اذ وافق عليه الباب العالي ووقع على اتفاقية بهذا الشان .

القسم الثالث
مهمة فؤاد باشا

ارادت الحكومة التركية اتخاذ جميع التدابير الممكنة لقمع الفتن في "سوريا" ولازالة كل سبب من اسباب التدخل الاوروبي فكتب السلطان عبد المجيد كما راينا رسالة بيده الى الامبراطور نابوليون نابوليون الثالث وثانية الى الملكة فكتوريا يستنكر فيهما الحوادث المؤلمة ويأسف لوقوعها اشد الاسف ويعد بانزال اقسى العقوبات بمسببيها (٢) .

وقد اوفد الى "سوريا" ، للقيام بهذه المهمة ، وزير خارجيته فؤاد باشا وكان من انصار سياسة الاصلاح والتنظيم في الامبراطورية العثمانية كما مر معنا كما كان على نصيب وافر من العلم والذكاء واللباقة الدبلوماسية وكان فوق ذلك كله يتمتع باحترام ممثلي الدول الاوروبية لدى الباب العالي (٣). وقد زود السلطان مندوبه السامي المطلق الصلاحية بالصلاحيات والتعليمات اللازمة في سبيل تحقيق الغاية التي انتدب من اجلها وخاطبه باسلوب يذكر بالامر الشريف الهمايوني الصادر في ١٨ شباط سنة ١٨٥٦ ، من حيث التشديد على اقامة العدل والمساواة بين جميع رعايا السلطان دونما تفريق في الدين او المذهب . وصدرت التعليمات الموجهة الى فؤاد باشا في اوائل تموز سنة ١٨٦٠ ثم عممت على جميع ممثلي الدول كما جرى احتفال في بيروت بتلاوة الفرمان الذى

---

(١) جوبلان ص ١١٤ نقلا عن دى لاجورس

(٢) المحررات ج ٢ ص ١٦٨

(٣) " " " ١٧٢ ـ ١٧٤

تضمنها في ١٩ تموز ثم وزع بيان فؤاد باشا الذى سياتي الكلام عنه على سكان "سوريا" وعمم الفرمان والبيان على جميع قناصل الدول في بيروت (١).

وبذلك برهن السلطان على استعداده التام لتنفيذ مضمون الامر الشريف الهمايوني الصادر في ٨ شباط سنة ١٨٥٦ بدون حاجة الى تدخل اوروبة . وقد اراد السلطان ان يبالغ في اظهار اهتمامه بالمهمة التي عهد بها الى فؤاد باشا " فنزع من طربوشه الطغراء السلطانية وهي شعار السلطة العسكرية وسلمه اياها قائلا له انه يعتمد عليه للثار لشرف جيشه ". (٢) وكان يحيطبه وزراؤه وبعض ممثلي الدول الاوروبية .

كذلك صرح فؤاد باشا عند سفره للمسيو اوتريه قنصل فرنسا في دمشق بقوله: " قل لسفير فرنسا اني ساغسل العار الذى لحق بشرف الجيوش ولو كان في ذلك مماتي وان الجنود تقوم بواجبها ". (٣)

وقد توجه فؤاد باشا الى بيروت على متن بارجة حربية ترافقها سفينتان تحملان الجند والذخائر . وقد اسندت اليه قيادة جميع القوات المرابطة في سوريا (٤).

وكان فؤاد باشا عازما عزما اكيدا على انهاء المنازعات الطائفية وازالة كل سبب يمكن ان تتذرع به اوروبة للتدخل ولئنه لم يكن اقل حرصا على وحدة الامبراطورية العثمانية وترابط اجزائها ونفوذ سلطانها . فليس غريبا ان يسعى الى تعزيز النفوذ التركي في " سوريا " في اخضاع جميع الطوائف الى سلطة الباب العالي وموظفيه بحجة الرغبة في تحقيق المساواة بين المسلمين والمسيحيين . ولكي يحول فؤاد باشا دون اى تدخل اوروبي اظهر حماسا فائقا لمهمته فوجه الى سكان سوريا في ١٩ تموز سنة ١٨٦٠ بيانا اعلن فيه استياء السلطان من جراء الحوادث التي وقعت وهدد الذين يعاودون ارتكاب الجرائم الماضية كما اوضح انه اوفد للتحقيق فيما جرى ولفرض اشد العقوبات على المذنبين واعادة اللاجئين الى ديارهم ودورهم وتقديم جميع المساعدات الممكنة اليهم (٥).

وكان اول قرار مهم اتخذه فؤاد باشا عزل خورشيد باشا والي ايالة صيدا وتعيين امير البحر مصطفى باشا قائد الاسطول الشاهاني في البحر المتوسط مكانه بالوكالة .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ١٧٥ _ ١٧٦

(٢) " " " ١٧٢ ، تيستا ج ٦ ص ٨٩

(٣) " " " " " " " " " " "

(٤) " " " " " " " " " " "

(٥) " " " " ١٧٥ _ ١٧٦

وقد ابلغ المندوب التركي قناصل الدول في بيروت هذا القرار في ٢٦ تموز ١٨٦٠ .

ولما كانت انباء دمشق السيئة لم تنقطع فقد توجه اليها فؤاد باشا في ٢٧ تموز يصحبه طابوران من الجنود وستة مدافع بعد ان عزم على استخدام اقصى الشدة في معاقبة المجرمين والمخالفين للقوانين (١) . وصباح اليوم التالي من وصوله امر فؤاد باشا الجنود باحتلال جميع احياء المدينة والف لجاناعسكرية في كل منها لالقاء القبض على الجانيين . فتمكنت هذه اللجان من ايقاف ٨٠٠ شخص تقريبا في مدة اربعة او خمسة ايام فاحيلت اوراقهم الى المحكمة الاستثنائية المؤلفة من موظفين استقدموا من الاستانة . وقد حول فؤاد باشا المدرسة العسكرية الى مستشفى لنساء المسيحيين وخصص المستشفى العسكري للمرضى والجرحى من المسيحيين الذكور كما انشأ لجنة لتوزيع المآكل والاموال والالبسة على المنكوبين . وقد اصدرت المحكمة الاستثنائية احكاما قضت بالاعدام رميا بالرصاص على ١١١ مسلما وشنق ٥٦ و نفي ١٤٥ وبالاشغال الشاقة على ١٨٦ وبحكم الاعدام الغيابي على ١٨٣ . وكان بين الذين اعدموا ١٨ شخصا من كبار الاسر الدمشقية . وفي ١٥ اب انذر فؤاد باشا سكان دمشق بوجوب اعادة الرجال والنساء والاطفال الباقين عندهم الى الحكومة المحلية ولو اعتنقوا الاسلام ، واذن لجميع المسيحيين الذين اسلموا ان يعودوا الى دينهم . كذلك اخلى ثلاثة احياء اسلامية وخصصها لسكنى المسيحيين واقام لهم فيها معبدا . كما انه امر بتجنيد الفين من الدمشقيين في الجيش السلطاني وكان كل يوم يلقي القبض على عدة اشخاص للتجنيد ويزج في السجن كل من يوجه اليهم المسيحيون بعض الاتهامات . وفي ١٧ ايلول اصدر المجلس العسكري برئاسة فؤاد باشا حكم الاعدام على كل من احمد اغا مشير دمشق السابق ، وعلي بك قائد حامية الحي المسيحي في دمشق ، وعثمان بك قائد حامية حاصبيا ومحمد علي اغا قائد حامية راشيا ونفذ فيهم الحكم رميا بالرصاص في ٨ ايلول سنة ١٨٦٠ . كذلك حكم بالاعدام على عبد السلام بك قائد حامية دير القمر وعلى قائد الجنود في بيت الدين وعلي حافظ اغا القائد الطلتي في دير القمر (٢) .

ولا شك ان فؤاد باشا اراد ان يدلل عمليا وبسرعة على حسن نوايا الباب العالي .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٣٢ – ٢٣٣

(٢) " " " " ٢٣٢ – ٢٣٦

وقد ابلغ المندوب التركي قناصل الدول في بيروت هذا القرار في ٢٦ تموز ١٨٦٠ .

ولما كانت انباء دمشق السيئة لم تنقطع فقد توجه اليها فؤاد باشا في ٢٧ تموز يصحبه طابوران من الجنود وستة مدافع بعد ان عزم على استخدام اقصى الشدة في معاقبة المجرمين والمخالفين للقوانين (١) . وصباح اليوم التالي من وصوله امر فؤاد باشا الجنود باحتلال جميع احياء المدينة والف لجانا عسكرية في كل منها لالقاء القبض على الجانيين . فتمكنت هذه اللجان من ايقاف ٨٠٠ شخص تقريبا في مدة اربعة او خمسة ايام فاحيلت اوراقهم الى المحكمة الاستثنائية المؤلفة من موظفين استقدموا من الاستانة . وقد حول فؤاد باشا المدرسة العسكرية الى مستشفى لنساء المسيحيين وخصص المستشفى العسكري للمرضى والجرحى من المسيحيين الذكور كما انشأ لجنة لتوزيع المآكل والاموال والالبسة على المنكوبين . وقد اصدرت المحكمة الاستثنائية احكاما قضت بالاعدام رميا بالرصاص على ١١١ ضابط وشنق ٥٦ و نفي ١٤٥ وبالاشغال الشاقة على ١٨٦ وبحكم الاعدام الغيابي على ١٨٣ . وكان بين الذين اعدموا ١٨ شخصا من كبار الاسر الدمشقية . وفي ١٥ اب انذر فؤاد باشا سكان دمشق بوجوب اعادة الرجال والنساء والاطفال الباقين عندهم الى الحكومة المحلية ولو اعتنقوا الاسلام ، واذن لجميع المسيحيين الذين اسلموا ان يعودوا الى دينهم . كذلك اخلى ثلاثة احياء اسلامية وخصصها لسكنى المسيحيين واقام لهم فيها معبدا . كما انه امر بتجنيد الفين من الدمشقيين في الجيش السلطاني وكان كل يوم يلقي القبض على عدة اشخاص للتجنيد ويزج في السجن كل من يوجه اليهم المسيحيون بعض الاتهامات . وفي ١٧ ايلول اصدر المجلس العسكري برئاسة فؤاد باشا حكم الاعدام على كل من احمد اغا مشير دمشق السابق ، وعلي بك قائد حامية الحي المسيحي في دمشق ، وعثمان بك قائد حامية حاصبيا ومحمد علي اغا قائد حامية راشيا ونفذ فيهم الحكم رميا بالرصاص في ٨ ايلول سنة ١٨٦٠ . كذلك حكم بالاعدام على عبد السلام بك قائد حامية دير القمر وعلى قائد الجنود في بيت الدين وعلي حافظ اغا القائد الطاغي في دير القمر (٢) .

ولا شك ان فؤاد باشا اراد ان يدلل عمليا وبسرعة على حسن نوايا الباب العالي .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٢٢ – ٢٢٣

(٢) " " " ٣٢٢ – ٣٢٦

فاتخذ جميع التدابير السابقة وفرض جميع العقوبات التي ذكرناها ٠ ولم يكتف بالتشدد مع الرعايا المسلمين بل تناولت هذه الشدة المتناهية روءوس كبار الموظفين والضباط العسكريين ٠ ولا شك ان هذه الاعمال الزجرية الموجهة الى المسلمين كانت جديدة في نظرهم ، لانهم لم يتعودوا من قبل على مثل هذه الحسابات العسيرة من جراء تصرفاتهم ازاء المسيحيين(١)٠ ولم يقتصر اندفاع فوءاد باشا في تحقيق مهمته على معاقبة المجرمين بل اراد ان يظهر استعداد السلطان لمكافاة اى مسلم يدفع الاذى عن مسيحي ويحميه فقدم الى الامير عبد القادر الوسام المجيدى من الدرجة الاولى الذى منحه اياه السلطان اشعارا باستحسان سلوكه اثناء مذبحة دمشق٠

واذا كان فوءاد باشا قد اهتم اولا بدمشق فليس ذلك لان الحوادث كانت مستمرة فيها بل لان الحكومة التركية كانت حريصة على ان لا تترك مجالا امام الجنود الاوروبيين للتوغل في اراضي الداخل (٢)٠

وفي ٨ ايلول سنة ١٨٦٠ غادر فوءاد باشا دمشق٠ وحتى هذا التاريخ لم يكن قد اتخذ اى تدبير زجرى في لبنان ٠ فكان الجناة لا يزالون يسرحون ويمرحون وكان المسوءولون من الموظفين لا يزالون متربعين في دستوظائفهم ٠ اضف الى ذلك ان فوءاد باشا اراد ان يعهد الى خورشيد باشا بوظيفة جديدة هي مراقبة الشواطيء ٠ فاثار هذا ثائرة نائب الاميرال الانكليزى مارتين (٣) ٠ فامر فوءاد باشا عند ذلك بايقاف خورشيد باشا رهن التحقيق والمحاكمة كما اوقف بعض معاونيه ٠ (٤) وتدعين احمد قيصرلي باشا خلفا له في ايالة صيدا وكان مشهورا باستقامته ومهارته (٥)٠

وتالفت محكمة استثنائية في بيروت لمحاكمة خورشيد وكانت افضل من المحكمة المماثلة التي سبق تاليفها في دمشق ()(٦) ٠ وفي عشرين ايلول وجه فوءاد باشا انذارا الى الدروز جاء فيه ما يلي :"لما كان جلالة السلطان ٠٠٠ قد امر باجراء محاكمة جميع

---

(١) Correspondence Relating to the disturbances in Syria p.204

(٢) المحرراتج ٢ص ٢٣١ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٣٠٢

(٣) " " " " ٢٥١

(٤) " " " " ٢٥١

(٥) " " " " ٢٩١

(٦) " " " " ٢٤٩

الذين سببوا حوادث لبنان المحزنة ... وجهنا انذارا الى جميع امراء الدروز والمسيحيين ومشايخهم دعوناهم به الى المثول امام لجنة التحقيق الموكول اليها البحث في منشأ الحرب الاهلية والاسباب التي جرت اليها واعلنت جميع الذين لا يحضرون في الوقت المعين انهم يعدون كجناة ... ان كثيرين من زعماء الدروز لم يلبوا نداءنا ... ولما كان الزعماء المذكورون بتخلفهم عن الحضور قد اعترفوا ضمنا بذنبهم فالمندوب السلطاني ... قد اتخذ بحقهم القرارات الاتية :

اولا : الغيت رتب الزعماء المذكورين والقابهم .

ثانيا : فصلوا من وظيفة اصحاب الاقطاع وسائر الوظائف التي كانوا يشغلونها .

ثالثا : حجزت جميع اموالهم الثابتة والمنقولة وستبقى محجوزة الى حين صدور الامر السلطاني بشانها .

رابعا : ان المجلس المؤلف فوق العادة في بيروت سيقضي بصورة غيابية على كل منهم ... ولكن المجلس يترك لهؤلاء المحكوم عليهم الحق بان ياتوا مختارين لتبرئة انفسهم امامه .

خامسا : يستطيع الذين لم يتهموا بشيء ان ينصرفوا الى اعمالهم وسيكافأ الذين حموا المسيحيين .

سادسا : تقسم القائمقامية الدرزية الى اربع دوائر يقيم في كل منها عدد من الجنود لاعادة المسيحيين الى منازلهم وادارة الشؤون العامة (١).

وقد اعطى فؤاد باشا اوامره لخمسة الاف جندي باحتلال جبل لبنان بقيادة اسماعيل باشا وبجعل صيدا مركزا لهذه الحركات العسكرية . وتقرر ان يقوم قسم من جيش دمشق بحركات مماثلة فيعسكر في جوار حاصبيا وراشيا غربي سفح جبل حرمون بينما ترابط بعض القبائل العربية على حدود حوران لمنع الدروز الفارين من الالتجاء الى جبال اللجاة (٢). ومن الجدير بالذكر ان الدروز عندما بلغتهم انباء الحملة العسكرية الاوروبية وعرفوا بالاحكام الشديدة التي صدرت في دمشق اخذوا يستعدون للالتجاء الى حوران(٣). وقد قتل مساء الرابع والعشرين من ايلول مئتا درزي بينما كانوا يحاولون اختراق صفوف الجيش التركي والفرار الى حوران (٣).

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٣٥٥ — ٣٥٦
(٢) " " " ٣٥٦ — ٣٥٧
(٣) " " " ٣٠٢
(٤) " " " ٣٥٩

اما النداء الذى وجهه فؤاد باشا فقد لباه ١٢ زعيما درزيا جاؤوا بيروت وهم الامير محمد ارسلان قائمقام الدروز والامير ملحم رسلان وسليم بك جنبلاط والشيخ اسعد عماد وقاسم بنابي نكد والشيخ حسين تلحوق ويوسف عبد الملك وناصور عبد الملك وقاسم حسن الدين وعثمان بك ابي علوان والشيخ جمال الدين حمدان وسعيد بك جنبلاط وفرض فؤاد باشا المراقبة الشديدة على جميع هؤلاء (١)٠

الفصل الرابع
الحملة الفرنسية واللجنة الاوروبية

١) وصول الحملة الفرنسية الى بيروت ٠ — وفي اواخر شهر اب سنة ١٨٦٠ وصلت الحملة الفرنسية الى مياه بيروت بقيادة الجنرال دى بوفور ٠ واقامت معسكرا لها في غابة الصنوبر على مسافة ميلين من المدينة ٠ وكانت تلوح على وجه المسلمين امارات الانقباض لدى مرور الجنود ٠ اما المسيحيون فقد ابتهجوا لوصولهم واخذ اللاجئون يساعدونهم في حمل بنادقهم وامتعتهم الى المعسكر العام ويقدمون لهم الماء والتبغ والشراب الى غير ذلك من الامور التي تدل على ان المسيحيين كانوا يعتمدون في تامين ارواحهم واموالهم على وصول اولئك الجنود وكانوا ينتظرونهم بفارغ صبر ٠ وقد سرت في وصول الحملة الفرنسية موجة من الاطمئنان بين المسيحيين من قيمين ولاجئين وكذلك بين الاوروبيين ٠ وذكر المستر موران آسفا كثيرا لعدم قدوم جنود انكليز لان وجود هؤلاء كان من شانه ان يزيل قلق المسلمين ويدخل الاطمئنان الى نفوسهم (٢)٠

ولما كان الجنرال دى بوفور من واجبه ان يتعاون مع فؤاد باشا وان يتفق واياه على جميع اعماله فقد تم الاتفاق بينهما في ١٤ ايلول على ان تتوجه القوات الفرنسية الى دير القمر ثم تنتشر من دير القمر عبر الجبل فتطارد المجرمين وتعيد المسيحيين الى دورهم ، وتساعد على عودة النظام والقانون الى نصابهما ، بينما تجتاز القوات العثمانية لبنان من جهة الجنوب فتحتل جزين وجميع الطرق المؤدية الى جبل حرمون (الشيخ) وحوران فترمي هكذا بين ايدى القوات الفرنسية بجميع الدروز الذين كانوا يحاولون الالتجاء الى حوران ٠ وفي

---

(١) المحررات ٢ ص ٣٥٥

(٢) « « ٢٩٢ — ٢٩٣

١٨ ايلول احتل الجنرال دى بوفور ديرالقمر واخذ الدروز الهاربون من وجه القوات الفرنسية يتسابقون الى الجنوب· ولكن القوات التركية لم تتمكن من احتلال مغاوز الجبل والطرق المؤدية الى حوران الا بعد ان تمكن عدد كبيرمن الدروز من التسلل الى حوران (١)· وعندما لفتت اللجنة الاوروبية نظر فؤاد باشا الى هذا التقصيراحتج بكثرة المغاوز والمغاور والطرقات التي يصعب مراقبتها في جبل لبنان (٢)· وقد ذكر اللورد دوفرين في رسالة له الى المستر بلور في ٥ تشرين الاول سنة ١٨٦٠ ان جميع الدروز الفارين قد تمكنوا من الالتجاء الى حوران لان احتياطات القوات التركية لم تكن كافية وانه ليس من المستبعد ان يكون ارباب السلطة التركية قد رغبوا في تسهيل سبل فرارهم (٣)·

وبينما كانت القوات الفرنسية في طريقها الى ديرالقمر يرافقها بعض المسيحيين سمح هؤلاء لانفسهم ببعض اعتداءات على الدروز اثارت سخط اللورد دوفرين واستنكاره الشديدين كما اغضبت العضو الفرنسي في لجنة التحقيق الاوروبية والجنرال دى بوفور نفسه (٤) ·

والواقع ان عمليات القوات الفرنسية قد اقتصرت على مساعدتها لمسيحيي زحلة وديرالقمر في اعادة بناء بيوتهم ·

٢ اللجنة الدولية وتحديد مهمتها ·_ وفي الخامس من تشرين الاول سنة ١٨٦٠ تألفت لجنة سوريا الدولية فكان المسيو دى وكبكر مندوبا عن النمسا والمسيو بيكلار من فرنسا واللورد دوفرين من انكلترا والمسيو دى رهفوس عن بروسيا والموسيو نونيكوف من روسيا وفؤاد باشا عن الباب العالي · الا ان فؤاد باشا لم يحضر الجلسة الاولى التي عقدت في دار المندوب الفرنسي بل انتدب عنه ابرو افندى احد اعوانه ·

وقد حدد اعضاء اللجنة مهمتهم ، وفقا للتعاليم التي زودوا بها من قبل حكوماتهم ، كما يلي :

اولا : التحقيق في اسباب الفتن وتعيين مسؤولية الزعماء والموظفين والعمل على معاقبة الجناة·

---

(١) تيستا ج ٦ ص ١١٢ ، المحررات ج ٢ ص ٣٤٠ _ ٣٤١

(٢) Correspondences relating to the disturbancesin Syria p.347

(٣) المحررات ج ٢ ص ٣٧٥ _ ٣٧٦

(٤) " " " " ٣٦٦ _ ٣٦٧ ، حسر اللثام ص ٢٥٣

ثانيا : تقدير الخسائر التي اصابت المسيحيين والاتفاق على الوسائل التي من شانها التخفيف من شقاء المنكوبين والتعويض عليهم ٠

ثالثا : الحؤول دون تجدد هذه الحوادث وتوطيد اركان الامن في سوريا واقتراح التعديلات الواجب ادخالها على نظام جبل لبنان (١)٠

وقد انتخبت اللجنة فؤاد باشا رئيسا واجمع الراى على ان يتعاقب على نيابة الرئاسة عندما يتغيب المندوب العثماني كل من المندوبين حسب اعمارهم وذلك مدة شهر من الزمن (٢)٠

وهكذا نرى ان اللجنة منحت نفسها سلطات شملت النواحي القضائية والسياسية والادارية ٠

٣) <u>سياسة فؤاد باشا ٠ـ</u> كان على فؤاد باشا ان يسعى الى تضييق مجال التدخل الاوروبي الى اقصى حد ممكن والحؤول دون امتداد صلاحيات اللجنة الى الحقلين الادارى والقضائي ، لان في ذلك تجاوزا لحقوق السلطان واستقلاله ٠ وكان فؤاد باشا على درجة من المهارة الدبلوماسية والدهاء السياسي جعلت صاحب حسر اللثام يقول منه :" انه كان يلعب باعضاء اللجنة الاوروبية كما يلعب الهر بالفار " ٠ (٣) وقد اعتمد فؤاد باشا في هذا السبيل، كما سنرى ، على تاييد المندوب البريطاني من جهة وعلى المماطلة والمناقشات البيزنطية من جهة ثانية ٠ فلم يحضر الاجتماعات الاولى التى عقدتها اللجنة وكان مندوبه ابروافندى كلما اقترح عليه تدبير ايجابي اعترض عليه بحجة انه يتضمن مسا لسيادة السلطان او تضييقا لحرية فؤاد باشا ٠ وكلما قرر الاعضاء حسم مسالة ملحة بشكل لا يتفق ومصلحة الباب العالي اعتذر عن الموافقة بحجة انه لم يتلق تعليمات واضحة من حكومته بهذا الشان ٠ وكان كلما اتى احد الاعضاء الاوروبيين بمعلومات او براهين تتعلق بالمذابح ومواقف الموظفين الاتراك لا تناسب المصلحة العثمانية كان يتجاهلها ابرو افندى فيحول دون التداول في هذا الموضوع ٠ واذا اضفنا الى ذلك انه لم يكن بالامكان اتخاذ اى تدبير او قرار الا بموافقة مندوب الباب العالي ادركنـــا الى اى حــــد كان هذا الاخير يؤخر اعمال اللجنة ويحول دون الانتفاع من وجودهـــا ٠ ومنذ الجلسة الاولى احتفظ المندوب الفرنسي بصلاحية

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٧٦

(٢) " " " " ٢٧٧

(٣) حسر اللثام ص ٢٥٥

ثانيا : تقدير الخسائر التي اصابت المسيحيين والاتفاق على الوسائل التي من شانها التخفيف من شقاء المنكوبين والتعويض عليهم ·

ثالثا : الحؤول دون تجدد هذه الحوادث وتوطيد اركان الامن في سوريا واقتراح التعديلات الواجب ادخالها على نظام جبل لبنان (١)·

وقد انتخبت اللجنة فؤاد باشا رئيسا واجمع الراى على ان يتعاقب على نيابة الرئاسة عندما يتغيب المندوب العثماني كل من المندوبين حسب اعمارهم وذلك مدة شهر من الزمن (٢)·

وهكذا نرى ان اللجنة منحت نفسها السلطات شملت النواحي القضائية والسياسية والادارية ·

٣) سياسة فؤاد باشا ·ـ كان على فؤاد باشا ان يسعى الى تضييق مجال التدخل الاوروبي الى اقصى حد ممكن والحؤول دون امتداد صلاحيات اللجنة الى الحقلين الادارى والقضائي ، لان في ذلك تجاوزا لحقوق السلطان واستقلاله · وكان فؤاد باشا على درجة من المهارة الدبلوماسية والدهاء السياسي جعلت صاحب حسر اللثام يقول عنه : " انه كان يلعب باعضاء اللجنة الاوروبية كما يلعب الهر بالفار " · (٣) وقد اعتمد فؤاد باشا في هذا السبيل، كما سنرى، على تاييد المندوب البريطاني من جهة وعلى المماطلة والمناقشات البيزنطية من جهة ثانية · فلم يحضر الاجتماعات الاولى التى عقدتها اللجنة وكان مندوبه ابرو افندى كلما اقترح عليه تدبير ايجابي اعترض عليه بحجة انه يتضمن مسا لسيادة السلطان او تضييقا لحرية فؤاد باشا · وكلما قرر الاعضاء حسم مسالة مهمة بشكل لا يتفق ومصلحة الباب العالي اعتذر عن الموافقة بحجة انه لم يتلق تعليمات واضحة من حكومته بهذا الشان · وكان كلما اتى احد الاعضاء الاوروبيين بمعلومات او براهين تتعلق بالمذابح ومواقف الموظفين الاتراك لا تناسب المصلحة العثمانية كان يتجاهلها ابرو افندى فيحول دون التداول في هذا الموضوع · واذا اضفنا الى ذلك انه لم يكن بالامكان اتخاذ اى تدبير او قرار الا بموافقة مندوب الباب العالي ادركنا الى اى حد كان هذا الاخير يؤخر اعمال اللجنة ويحول دون الانتفاع من وجودها · ومنذ الجلسة الاولى احتفظ المندوب الفرنسي بصلاحية

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٧٦

(٢) " " " " ٢٧٧

(٣) حسر اللثام ص ٢٥٥

النظر في قضايا المعاهد الدينية ولا سيما معاهد اليسوعيين والعازاريين والفرنسيسكان التي دمرت وقتل بعض رهبانها اثناء الاضطرابات . ولكن ابرو افندى صرح نورا بانه لم يتلق بعد الاوامر اللازمة من فؤاد باشا بهذا الشان وانه لا يستطيع اعتبار هذا الاجتماع سوى جلسة تمهيدية . كذلك سال السبيو بيكلا عما اذا كان الاميرالاى حسني بك احد اعضاء المحكمة التي عهد اليها بمحاكمة خورشيد باشا هو الضابط الذى كان على راس حامية بعلبك . فاجاب ابرو افندى بان ذلك صحيح ولكنه يجهل سوابق حسني بك . فاظهر المندوب الفرنسي استغرابه لهذا الامر لان الدلائل على سوء سلوك حسني بك في بعلبك كثيرة فاجاب ابرو افندى انه سيبحث في سلوك حسني بك .

واستوضح السبيو بيكلار ابرو افندى عن ترك الاميرالاى نورى بك حرا على الرغم من اشتراكه في كارثة زحلة .

واستوضح المندوب الروسي عن السماح لشاكر باشا بالذهاب الى الاستانة مع انه مسؤول عن بعض الحوادث في دمشق وكان من الضرورى محاكمته . فاعلن ابرو افندى انه لا يعلم شيئا عن الشكاوى الموجهة الى شاكر باشا . وبين المندوبان الروسي والفرنسي ان محاكمة خورشيد باشا قد اوشكت على الانتهاء دون ان تستمع المحكمة المختصة الى الشهود الذين يستطيعون كشف النقاب عن كثير من اسرار هذه الدعوى . فادعى ابروافندى انه ليس لديه اوامر بهذا الشان (١).

والان هل كان يحق للجنة ان تتدخل في التحقيقات القضائية وان تطالب بايقاف الجناة وتتابع اعمال الاستنطاق وتشترك بالمحاكمات بصورة فعلية ... قال المندوبان الرووسي والفرنسي ان ذلك كله يدخل في صلاحيات اللجنة الدولية . ولكن ابرو افندى اعترض على ذلك لان "على اللجنة ان تتحاشى كل ما من شانه ان يمس سلطة السلطان المطلقة ويضعف نفوذه " واضاف المندوب العثماني الى ذلك قوله " ان الحكومة باذلة قصارى جهدها وقد استعملت الشدة في دمشق وفؤاد باشا يسعى الان في لبنان الى قصاص الجناة واسعاف المسيحيين " . (٢)

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٣٧٦ — ٣٨١

(٢) " " " ٣٨٢ — ٣٨٣

وبعد اخذ ورد طويلين اوضح فوءاد باشا لاعضاء اللجنة خلال الجلسة الاولى التي حضرها شخصيا ، وكانت الجلسة السادسة من جلسات اللجنة ، " ان المحاكم غير العادية التي الفها لا تبرم احكاما بل تكتفي بوضع بيان اليه يتضمن ابداء ارائها ولا تكتسب قوة التنفيذ الا اذا وافق عليها لان القوانين العثمانية تحظر تنفيذ حكم الاعدام دون اجازة الحضرة السلطانية ولذلك فهو يولي اراء القضاة صفة الحكم النهائي عملا بالسلطة المطلقة المفوضة اليه ". واضاف فوءاد باشا انه اعتزم اطلاع اللجنة على هذه البيانات من الان وصاعدا ولها ان تبدي لعرايها فيها ". وقد وافق جميع المندوبين على هذه التسوية (١).

واراد فوءاد باشا ايضا في هذه الجلسة السادسة التي انعقدت في ٢٦ ايلول ان يدلل على نواياه الطيبة ورغبته في اجابة طلبات اللجنة الدولية فامر بكف يد حسني بك وفتح تحقيق بشانه على الرغم من انه لم يوجه اليه اية تهمة صريحة (٢). اما فيما يتعلق بشاكر فقد اوضح فوءاد باشا انه حوكم امام مجلس عسكري لا امام محكمة دمشق وان المجلس قد اثبت انه لم يقتصر على القيام بواجبه بل ساعد على انقاذ عدد كبير من المسيحيين (٣).

وفي جلسة ٢٦ ايلول ايضا بين فوءاد باشا لاعضاء اللجنة "انه يجمع في شخصه صفتين مزدوجتين احداهما صفة موظف اعطي صلاحيات استثنائية وتنفيذية مستمدة من السلطة المطلقة التي منحه اياها جلالة مولاه ، والصفة الثانية صفة عضو في اللجنة التي يتشرف برئاستها ". وتعهد فوءاد باشا بتحقيق مهمته الرامية الى اعادة النظام والسكينة كما تعهد بملاحقة الجناة ومعاقبتهم وتعيين التعويضات الواجبة للمنكوبين واتخاذ التدابير اللازمة للحوءول دون تكرار الحوادث الموءلمة . واكد فوءاد باشا انه مدفوع بعامل الانتصار للانسانية المشترك بين الدول الممثلة في اللجنة وانه يعلل نفسه بان اعضاء اللجنة لا يرتابون بنزاهة قصده وانه لذلك يطلب موءازرتهم وهو مستعد كلما لفتوا نظره الى خلل ان يبادر الى اصلاحه . وقد رغب ان تكون النصائح التي يطلبها خالصة خالية من روح الانتقاد لان الانتقاد يولد الخصومة (٤).

فنرى ان فوءاد باشا كان يريد حصر السلطة التنفيذية بشخصه ، بصفته وزيرا مطلق الصلاحية منتدبا من قبل السلطان لا من قبل اللجنة الاوروبية . ولم يكن يريد ان يعترف للجنة بصفة غير صفتها الاستشارية التي وافق عليها السلطان .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٧

(٢) " " " " ٢ـ٣

(٣) " " " " ٤

(٤) " " " " ١ و ٢

وقد انتبه الى ذلك مندوب النمسا عندما اجاب فؤاد باشا بان اللجنة لا تهتم الا بصفة واحدة من الصفتين المجتمعتين في شخص المندوب العثماني الا وهي الصفة التي اكسبتهم فائدة وجوده في اللجنة كزميل ورئيس .

واذا كان جواب المندوب النمسوى على هذه الدرجة من الصراحة فلان الموافقة على كلام فؤاد باشا كانت تعني التنازل من جميع المقررات التي كانت قد اتخذتها اللجنة الدولية حتى ذلك الوقت . وقد استنفدت الاجتماعات الخمس الاولى التي لم يحضرها فؤاد باشا صبر المندوبين الاوروبيين وتطلبت منهم جهودا مضنية ، بحيث اصبح من العسير عليهم ان يستانفوا بحث جميع المسائل ويناقشوها من جديد .

اما المسالتان اللتان ابتدأ بحثهما مع فؤاد باشا فهما مسالة معاقبة الجناة ومسالة التعويضات الواجب دفعها للضحايا وذويهم . وقد اعلن فؤاد باشا فيما يتعلق بالمسالة الاولى انه مستعد للنظر بعين الاعتبار الى جميع المعلومات الثابتة التي يمكن ان يقدمها اليه زملاؤه او سواهم "لانه ارسل الى سوريا لينتقم من السفاحين وسيتم مهمته دون اهمال شيء منها (١)". واما مسالة التعويضات فقد تعهد فؤاد باشا في نهاية الجلسة المنعقدة في ٣٠ تشرين الاول ان يقدم في الجلسة التي تليها بيانا بواردات الايالة لمعرفة مدى اقتدارها على المساهمة في تسديد التعويضات ، كما تعهد مندوبو الدول بان يسالوا حكوماتهم عن مقدار المساعدات التي ستقدمها في هذا السبيل (٢).

ومن الجدير بالذكر ان المندوب العثماني الذى كان كثيرا ما يضطر الى اتخاذ موقف الدفاع في وجه المطاليب الكثيرة المختلفة التي يتقدم بها اليه مندوبو الدول والانتقادات التي يوجهونها اليه ، لقي عند المندوب البريطاني تاييدا كاد ان يكون مستمرا تاما وكذلك عند المندوب النمسوى . لقد كان هذان المندوبان حريصين على سيادة السلطان والمحافظة على حدوده واستقلاله . لذلك نرى المندوب النمسوى يصرح " بان الطريقة الوحيدة الناجعة لاقرار السلم هي في تقوية ساعد الحكومة العثمانية في كل انحاء السلطنة بما فيها جبل لبنان (٣) ". فكاني بالمندوب النمسوى يتطلع الى البلقان ويشعر بخطر التدخل الروسي فيسعى بصورة غير مباشرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للحؤول دون هذا التدخل .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٩
(٢) " " " ١٣
(٣) " " " ٣٢

٤) محاكمة الجناة :- حاول اللورد دوفرين ان يبرر اعمال الدروز وان يحمل الموارنة وجميع المسيحيين بوجه عام قسطا كبيرا من المسؤولية فقال : "ان من ينعم النظر في روايات ذوى الشان عن الاقتتالات التي جرت في لبنان منذ ٢٥ سنة يتحقق ان تعاليم الديانة المسيحية لم تلطف عادات المسيحيين في لبنان كثيرا ..." واضاف اللورد دوفرين قائلا "انه يؤكد ان اقدام الدروز على ابادة المسيحيين نتج عن يقينهم ان صحاياهم قصدوا ابادتهم في بدء الحرب" وخلص اللورد دوفرين الى القول "انه بناء على ما تقدم ، لا يرى من العدل ان يقاس ذنب جماعة من الفلاحين الجهلاء انقادوا انقياد الاعمى الى زعمائهم بمقياس التمدن الاوروبي"(١).

فاللورد دوفرين كان يدعو اذا الى النظر بعين الشفقة والرحمة الى ما اقترفه الدروز من اعمال مقدما بعض الاسباب التخفيفية . وقد اوضح فؤاد باشا ، تاييدا لكلام اللورد دوفرين ، انه يجب البحث فيما اذا كان هناك حرب اهلية او اعتداء . فان كانت الاولى يقتضي البحث فيمن هو البادئ بالشر اذ لا يمكن تبرئة الدروز من الفظائع التي ارتكبوها . فاذا كانوا هم الذين تحرشوا بالمسيحيين شدد في قصاصهم والا خفف عقابهم "(٢).

وقد وفق فؤاد باشا الى اثارة مناقشات حامية طويلة حول قضايا شكلية وتدابير تفصيلية فرعية (٣). وتذرع بكل الوسائل الممكنة للتغيب عن الجلسات فكان يدعي المرض او الاشغال الهامة وينتدب عنه ابرو افندى . وكان هذا الاخير ، كلما اراد الحؤول دون قرار ادعى بانه ليس لديه تعليمات او اوامر بهذا الخصوص(٤).

ولم يكن الامن قد عاد الى ربوع لبنان لان فؤاد باشا ، بعد ان استحق ثناء الجميع على اثر التدابير الحازمة التي اتخذها في دمشق ، لم تلبث همته ان فترت فلم يكن قد اقدم على معاقبة درزى واحد حتى العاشرمن تشرين الثاني سنة ١٨٦٠ . وقد طال التحقيق القضائي في بيروت كثيرا (٥) . وكانت حجة فؤاد باشا انه يريد ان يدخل الثقة

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٩ ـ ٣٠
(٢) " " " " ٣١ ـ ٣٢
(٣) " " " " ٤٠ ـ ٥٣
(٤) " " " " ١٦٠ و ٢٣٥
(٥) " " " " ٣٢

الى نفوص الدروز حتى يتجمعوا في قراهم ويقبض على جميع المذنبين منهم مرة واحدة توانه اتفق على ذلك مع الجنرال دي بوفور (١) . وقد وقعت حوادث شاهدا فردية كثيرة بين الدروز والمسيحيين وكان لا يزال في حوزة معظم السكان كميات وافرة من الاسلحة (٢).

وطالب الانكليز بمقابلة المعتدين من المسيحيين ، على اثر قدوم الحملة العسكرية الفرنسية، مطالبة ملحة (٣) كما اجمع مندوبو الدول على مواصلة المطالبة بانزال العقوبات الشديدة على جميع المسؤولين في حوادث سنة ١٨٦٠ (٤) .

وبعد ان تردد فؤاد باشا طويلا اراد ان يعيد في لبنان تمثيل الدور الذى سبق له تمثيله في دمشق فامر في شهر كانون الاول بالقاء القبض على ما يقرب من ثمانمائة درزي (٥) .

وقد قضت محكمة بيروت بالاعدام على سعيد بك جنبلاط والشيخ حسين تلحوق وبشير مرعي نكد ، والامير محمد قاسم رسلان ، وسليم جنبلاط وعلي محي الدين شبلي وعلى علي سعيد وعلى جمال الدين حمدان وعلى اسعد عماد والشيخ علي اسعد تلحوق . كذلك حكم بالاعدام على ٣٣ درزيا فروا الى حوران وكانوا قد اشتركوا في جنايات حاصبيا وراشيا ودير القمر (٦) . واجريت ايضا محاكمة خورشيد باشا وطاهر باشا والكولونيل نورى بك وواصف افندى، سكرتير خورشيد باشا ، والمراقب احمد افندى وغيرهم من الموظفين والضباط الاتراك فقضي على خورشيد باشا ~~بالاعدام وعلى~~ وطاهر باشا ونورى بك بالسجن المؤبد في القلعة وعلى وصفي [اصف افندي] واحمد افندى ~~بالسجن~~ [بالسجن] الموقت في القلعة .

ولم يكتف فؤاد باشا بل بذل حرص على استشارة اللجنة بطريقة محاكمة الدروز . هل يجب ان يسلك الطريقة العرفية السريعة التي تاتي بنتائج عاجلة ولكنها لا تفسح المجال لتفحص الادلة والموازنة بين الذنب والعقاب ، ام الطريقة النظامية المطابقة للقوانين والتي

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٠ ــ ٣١
(٢) " " " " ١٨٤ ــ ١٨٥
(٣) " " " " ١٠٦
(٤) " " " " ٩٣ و ٢٥٦
(٥) " " " " ٢٦٦ ــ ٢٠٥
(٦) " " " " ١٧٥ ــ ١٨٢

تتطلب وقتا طويلا ؟ (١) وعندما وافق جميع المندوبين على انتهاج الطريقة الاولى نظرا لخطورة الموقف سال فؤاد باشا اذا كان عليه ارسال جميع الدروز الذين يقبض عليهم في الجبل الى بيروت او تاليف محكمة متنقلة تجوب جميع نواحي لبنان تدريجيا فتحاكم الجناة في الاماكن التي اقترفوا فيها الفظائع وتنفذ فيهم احكامها ؟ فاقترح المندوب الفرنسي ان تجرى المحاكمة وتنفذ الاحكام في مكان اقتراف الجناية ليكون مفعول الاحكام عاجلا وظاهرا للعيان . فلم يعارض احد من مندوبي الدول هذا الراى (٢) . ثم سال فؤاد باشا عن نوع العقوبات التي يجب انزالها بالجناة . فبين المندوب الروسي انه لا يطلب من حكومة السلطان ان تنتقم من الدروز بل ان تتقي تجدد الفظائع السابقة باعدام كبار الجناة ارهابا لسائر افراد الطائفة الدرزية . وذكر اللورد دوفرين ان الدروز لم يعتدوا على النساء . اما المندوب الفرنسي فقد اقترح تقسيم الجناة الى ثلاث طبقات : ١) المحرضون ٢) قادة الهجمات على المسيحيين ٣) المتهمون باقتراف جنايات وفظائع . توافقه فؤاد باشا على هذا الراى . ولكن مندوبي الدول طالبوا ان يكتفى بمعاقبة كبار الجناة لانه اذا عوقب جميع المذنبين فلا ينجو درزى واحد من العقاب . غير ان مندوب فرنسا احتفظ بحقه في الاطلاع على الوسائل التي يجب استخدامها في المستقبل لافهام الدروز ان العدل واقف لهم بالمرصاد .

ووافقت اللجنة كذلك على اقتراح لفؤاد باشا يقضي بالايعاز الى الاعيان في كل مكان ليؤدوا شهاداتهم امام رؤساء دينهم معززة بالقسم فيتخذها اساسا لاتهام المجرمين وان لم تكن شهادات عيانية (٣) ولا شك ان هذا القرار الاخير كان خطأ عظيما . فان اساقفة الطوائف المسيحية الذين عهدوا اليهم بتقديم بيان باسماء الدروز الواجب اعدامهم لم يستطيعوا ان يكظموا غيظهم " ويلطفوا بحكمتهم وترويهم ثورة الاحقاد المتغلبة على عواطف ابناء رعيتهم ويقللوا عدد المطلوب اعدامهم وفقا لما تقتضيه العدالة المسيحية .... بل طلبوا اعدام / ٤٦٠٠ / درزى في حين ان عدد ذكور هذه الطائفة لا يتجاوز الثمانية الاف . اجل انهم انقصوا هذا العدد الى / ١٢٠٠ / على اثر اعتراض

---

(١) المحررات ج ٣ ص ١٦٩ ـ ١٧٥
(٢) " " " " ١٦٩ ـ ١٧٥
(٣) " " " " ٤١ و ٤٣

المندوب العثماني ومع ذلك لا يزال عظيما " ... (١) وقد حمل هذا الموقف من قبل الاساقفة اللورد دوفرين على اتهامهم "بالرغبة في استئصال الامة الدرزية" وعلى تقديم الاقتراح الاتي :

اولا الا يدعى درزي للمثول امام المحكمة العسكرية الا اذا كان متهما بانه قتل عن عمد رجلا اعزلا و امراة او ولدا .

ثانيا الا يحكم على درزي بالاعدام الا بعد تحليف شاهدين عيانيين .

ثالثا ان يسقط من عدد الدروز المرادد اعدامهم عدد الذين قتلهم المسيحيون منذ وصول اللجنة الى سوريا .

رابعا ان يكون عدد الدروز الذين يقضى عليهم بالاعدام اقل من الذين اعدموا في دمشق (٢) .

وقد تدخل المندوب الروسي على اثر ذلك فاوضح انه من الضروري ان لا ينفذ حكم الاعدام الا في كبار الجناة وبعد تمحيص التهم بدقة زائدة لان المقصود من الاعدام العبرة في الدرجة الاولى . واقترح المندوب :

اولا نزع السلاح بصورة مستمرة من جميع سكان الجبل .

ثانيا اخضاع بلاد حوران نهائيا لانها معقل مثيري القلاقل .

ثالثا معاقبة ضباط حاميات حاصبيا وراشيا ودير القمر . فوافق المندوب الروسي ، في ضرورة حقن الدماء ، فؤاد باشا والمندوب النمسوي والمندوب الفرنسي . الا ان المندوب الفرنسي دافع عن اللوائح التي وضعها الاساقفة قائلا ان ضخامة العدد الذي اعطوه يدل على كثرة عدد المذنبين من الطائفة الدرزية . واحتج المندوب الفرنسي على اتهام الاساقفة "بانهم لم يصدروا عن روح مسيحية فيما فعلوه " ثم اكد انه لا يشك في ان اللائحة الثانية التي تضمنت ١٢٠٠ اسما تشمل " مدبري الفتنة وزعماء العصابات والسفاحين الذين يستحقون عقاب الموت وفقا لما اقرته اللجنة في جلسة ١٤ تشرين الثاني " (٣) .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ١٦٢

(٢) " " " " ١٦٢ ـ ١٦٤

(٣) " " " " ١٦٤ ـ ١٦٧

وعندما تسلم مندوبو الدول في ٢٢ كانون الاول سنة ١٨٦٠ محاضر الدعاوى المتعلقة بالضباط العثمانيين ومشايخ الدروز المسجونين في بيروت وقف المندوب الفرنسي فقال : " ان هذه الاحكام غير المثبتة الصادرة بحق خورشيد باشا ولسائر الموظفين والضباط العثمانيين لا توجب الامعاقبتهم بسجنهم في القلعة في حين انها قضت بان سعيد بك جنبلاط وسائر زعماء الدروز يستحقون عقاب الاعدام . ولما كان معظم عبء التبعة واقعا على عاتق ارباب السلطة العثمانية فاننا نرغب في معرفة الاسباب التي خففت جرم الموظفين المذكورين في عين القضاة لان الاوراق التي سلمها فؤاد باشا الى اعضاء اللجنة لا تشتمل على دليل واضح بهذا الشان " (١).

وقد اجاب فؤاد باشا قائلا : " انه خول محكمة بيروت غير العادية استقلال الضمير التام والحرية المطلقة فتجنب ان يضغط بوسيلتها على احكامها على ان لا يجيز تنفيذها بتوقيعه الا اذا كانت مطابقة للمصلحة العامة والعدالة وذلك بعد استشارة اللجنة " (٢) وقد جرت اثر ذلك مناقشة اشترك بها فؤاد باشا والمندوب الفرنسي والروسي والبروسي والانكليزي وقد اقترح هذا الاخير انعام النظر في ملف المحاكمة وتقديم مذكرة مشتركة بهذا الصدد الى فؤاد باشا فوافق على هذا الاقتراح جميع المندوبين باستثناء المندوب النمسوى الذى صرح : "انه ليس باستطاعته ان يتجاوز المهمة التي فوضتها اليه حكومته وانه بعد مراجعة التعليمات التي زودته بها يرى انه لا يجوز له التدخل في الاحكام التي قضت بها المحاكم العثمانية فله ان يوجب قصاص الجناة لا ان يطلب زيادة عقوبتهم ." فاعترض سائر المندوبين على هذا الراى واستقر الراى اخيرا على ان ينعم اعضاء اللجنة النظر في ملف الدعاوى ويبلغوا فؤاد باشا ملاحظاتهم المشتركة بهذا الشان (٣)

وفي الجلسة الثامنة عشرة المنعقدة في ٩ كانون الثاني سنة ١٨٦١ لفت المندوب البروسي انظار اللجنة الى التقصير الواقع في القبض على الدروز موضحا ان عددا من الذين اتهموا لم يوقفوا وان كبارهم قد تمكنوا من الفرار لقاء رشوة دفعوها . فشاطر المندوب الفرنسي مخاوف زميله البروسي كما ذكر المندوب الروسي ان خمسمائة درزى وردت

---

(١) المحررات ج ٣ ص ١٦١
(٢) " " " " ١٨٧
(٣) " " " " ١٩٠

اسماؤهم في البيانات المقدمة من قبل الاساقفة قد تمكنوا من الهرب (١).

وهنا اعلن اللورد دوفرين ان هناك صعوبات كثيرة في سبيل القاء القبض على جمهور كبير من الذين يقعون تحت طائلة القانون وانه ينتهز هذه الفرصة ليلفت نظر زملائه الى حالة الطائفة الدرزية التي امست لا تطاق والتي تنذر باضمحلالها العاجل. فاجاب المندوب الفرنسي ان التباطوء في انزال العقاب في جناة الدروز واستيفاء الغرامات هو الذي اوصل الدروز الى هذه الحالة ولذلك اعرب المندوب الفرنسي عن رغبته في ان يبادر فورا الى اعدام كبار الجناة ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، وتسوية مسالة الغرامات حتى اذا انتهت هاتان المسالتان تساوى الدروز والموارنة واصلح ذات البين بينهم (٢).

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٦١ دعا ابروافندى اعضاء اللجنة الاوروبية الى الاجتماع لاطلاعهم على اعمال محكمة المختارة ولينقل ملاحظاتهم في هذا الموضوع الى فواد باشا. وقد طلب فواد باشا في الرسالة التي بعث بها الى اللجنة ان تحدد له عدد الجناة الواجب اعدامهم مذكرا باقتراح اللورد دوفرين القاضي بان يكون عدد المحكومين بالاعدام اقل من عدد الذين اعدموا في دمشق. وبين فواد باشا ان محكمة المختارة قضت على عشرين درزيا بالاعدام فاذا اضيف اليهم عدد الذين تقرر اعدامهم في محكمة بيروت وهم ٢٣ كان المجموع ٤٣ شخصا ، وهذا دون عدد الذين اعدموا في دمشق. وبعد مناقشة طويلة بين المندوبين تم الاتفاق على اعدام عشرين شخصا من الذين حاكمتهم محكمة المختارة على ان تفرض عقوبات اخف وطاة على الذين ثبت ذنبهم من الـ ٢٩٠ شخصا المدونة اسماؤهم في بيان المحكمة.

وسال ابرو افندى اعضاء اللجنة عما اذا كان من المستحسن تنفيذ احكام الاعدام في المختارة وبيروت في ان واحد. فاجمعت اللجنة على وجوب ترك هذه المسالة الى حكمة فواد باشا (٣).

وعندما استونفت مناقشة هذه المسالة في الجلسة الحادية والعشرين المنعقدة في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٦١ والح المندوب البروسي على ضرورة التشديد على

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٠٥

(٢) " " " ٢٠٤ ـ ٢٠٥

(٣) " " " ٢٦١ ـ ٢٦٦

الذين تعاقبهم محكمة المختارة تدخل اللورد دوفرين فذكر اعضاء اللجنة بما استقر عليه راى الجميع وهو الا يتجاوز عدد المحكوم عليهم بالاعدام في الجبل عدد الذين اعدموا في دمشق لان عدد الضحايا في دمشق يساوى عدد ضحايا الجبل . ولاحظ اللورد دوفرين ان مسيحيي دمشق لم "يتحرشوا بالمسلمين كما جرى في لبنان حيث كان المسيحيون البادئين بالقتال" . واكد المندوب البريطاني ان الدروز لم يقاتلوا الا دفاعا عن حوزتهم وانه اذا سلم بوجوب معاقبتهم على ما اقترفوه من فظائع فينبغي الا يكون العقاب شديدا كالذى انزل في الدمشقيين واقترح ان تضاف احكام بيروت الى احكام المختارة للموازنة بين العقابيين في دمشق ولبنان ، واشار ايضا الى ضرورة انزال العقوبات الواجبة على الدروز " نظرا لما حل بطائفتهم من الشقاء فضلا عن العدد الكبير الذى قتله المسيحيون من ابنائها منذ الفتنة " . وقد وعد المندوب البريطاني زملاءه بتقديم لائحة تتضمن " اسماء ١٣٦ رجلا و ٢٥ امراة و ١٥ ولدا قتلهم المسيحيون و ٦٣ رجلا و ٢٢ امراة جرحوهم " . (١)

وقد رد المندوب الفرنسي على زميله البريطاني فدافع عن المسيحيين وانكر ان يكونوا هم الذين تحرشوا بالدروز ثم اتهم الموظفين العثمانيين وانتقد نظام القائمقاميتين فايده المندوب الروسي في موقفه هذا . اما فؤاد باشا فرد عليه بقوله ان نظام القائمقاميتين اقتضته الادارة المحلية ولا يمكن اعتباره تحرشا بالمسيحيين ، واذا كان الموظفون الاتراك قد قصروا بواجباتهم في السنوات الاخيرة فلا يمكن ان يستنتج من ذلك ان الحكومة التركية ناصرت الدروز وتركت المسيحيين .

وعندما راى فؤاد باشا ان البحث سيطول من غير فائدة ، اعلن عزمه على السعي وراء ادلة جديدة بشان الـ ٢٩٠ متهما المسجونين في المختارة لعله يستطيع زيادة عدد احكام الاعدام فيبادر الى تنفيذها عاجلا وفي وقت واحد ، فور وقوفه على راى اللجنة في احكام محكمة بيروت (٢).

وفي الجلسة الثانية والعشرين المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٨٦١ جرت مناقشة حامية بشان الاحكام التي اصدرتها محكمة بيروت .

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧

(٢) " " " ٢٧٥ ـ ٢٨٢

فانتقد المندوب الفرنسي الحكم المتعلق بخورشيد باشا كما انتقد المندوب الروسي الاحكام المتعلقة بطاهر باشا ووصفي افندي ونوري بك وطالب كل من المندوبين المذكورين بتشديد العقوبات المفروضة كي يوازي العقاب هول الكوارث التي وقعت ٠

وبعد ان دافع المندوب السلطاني عن الموظفين المشار اليهم وقف المندوب الانكليزي فنوه بالمذكرة التي رفعها مندوبو فرنسا وبريطانيا وبروسيا والروسيا الى فؤاد باشا واعلنوا فيها ان تبعة الضباط والموظفين العثمانيين لا تقل عن تبعة كبار زعماء الدروز المجرمين (١)٠

وقد استنكر المندوب البريطاني الحكم بالاعدام على ١١ زعيما درزيا في بيروت وانتقد الاساليب التي استخدمتها محكمة بيروت ٠ وذكر اللورد دوفرين ايضا انه "لدى وصوله الى سوريا ٠٠٠ كان قد سمع بوجود نزاع بين الطائفتين انما لم يخبر ٠٠٠ اذ ذاك بتفاوت عددهما وبان المسيحيين كانوا يسعون الى ابادة الطائفة الدرزية او طردها من الجبل ٠ بيد انه ما فتئ ان علم ان الموارنة كانوا قد استعدوا لمهاجمة الدروز على طول التخوم الفاصلة كسروان عن البلاد المختلطة السكان مؤملين الامال باستئصال شافتهم او اقصائهم وانه استوردت كمية كبيرة من الاسلحة وعقدت اجتماعات عدائية في عدة انحاء من الجبل وان البلاد كانت مملوءة مناشير شديدة اللهجة تحرض على القتال نسبت قيادتها الى الاكليروس وانه انشئ في بيروت لجنة رئيسية غايتها الدعوة الى الريبة وان سائر المسيحيين دعوا الى الاشتراك في الجهاد والا انتقم منهم وان رجال الاكليروس لم يكتفوا برجحان امة عددها ١٥٠ الف نسمة على قبيلة لا يتجاوز عددها ٣٥٠٠٠ فسعوا الى تنشيط عزائم ابناء طائفتهم مؤكدين لهم ان دول اوروبا المسيحية ستعضدهم في الاستئثار بامتلاك لبنان فلا يعقل ان الدروز جهلوا هذه المقاصد التي كان يسعى الموارنة الى تحقيقها فلانية واشتهرامرها قبل نشوب القتال ببضعة اشهر ٠٠٠ وكان ان حدثت اعتداءات افرادية ٠٠٠ فجاءت مقدمة لهبوب العاصفة اذ اجتازت جماهير من المسيحيين حدود كسروان الى النواحي المختلطة السكان راسمة طريقها بالحريق والقتل وخطا مسيحيو زحلة الى القتال فامست الحرب امرا لا مناص منه ٠٠٠ ولما كان ارباب السلطة العثمانية لم ياتوا حركة اضطر الدروز الى ان يذودوا

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٤ ـ ٣٦٢ ـ ٣٦٣

من حياضهم بسلاحهم ... فهل يجب معاقبة كل زعيم جمع اتباعه وتهيأ للقتال واشترك به على مااقترفه رجاله من الفظائع واحصائه في عداد مضرمي النار والسفاحين ؟ لا سمح الله افلا بد من التمييز بين الذين تسلحوا للدفاع عن حياتهم وحياة امتهم وبين الذين يثبت عليهم انهم دبروا المذابح وعسوا ايديهم بالدم "٠ (١)

وقد الح المندوب الروسي على مسؤولية الموظفين والضباط العثمانيين كما طالب بفتح تحقيق اضافي بواسطة قاض اوروبي (٢)٠ اما المندوب النمسوى فقد اعلن ان من الواجب اعتبار "القلاقل التي وقعت في الجبل قتالا بين امتين وان موظفي الباب العالي وضباطه فعلوا كل ما بوسعهم لتلافاته " (٣)٠ ولا بد لنا بهذه المناسبة من ان نقف قليلا امام تفسير محترم لحوادث سنة ١٨٦٠ قدمه المندوب النمسوى ٠

" ان تجاوز اصحاب الاقطاعات حدود حقوقهم اثار استياءا في طبقات الشعب وذلك في شمالي البلاد وفي كسروان والمتن والجنوب ٠ ففي انحاء القسم الشمالي حيث كان اصحاب الاقطاعات من ابناء مذهب الفلاحين ارتدت الثورة حيث حدثت صفة حرب اهلية ٠ اما في النواحي الماهولة بالدروز والمسيحيين الخاضعة لاصحاب الاقطاعات الدرزية فقد اتخذت الازمة السياسية والاجتماعية شكل اقتتال بين طائفتين ٠ لكن سبب الاضطرابات واحد في القائمقاميتين انما انضم اليه في الجنوب ظروف اخرى زادت الشر تفاقما وجلبت كوارث جلى (٤) "٠ وقد سال المندوب الفرنسي فؤاد باشا عما الت اليه مساعيه في سبيل زيادة عدد احكام الاعدام في المختارة ٠ فاجاب فؤاد باشا انه توصل الى جعل احكام الاعدام ٥٨ ٠ وقد اقترح المندوب الفرنسي تنفيذ حكم الاعدام في جميع زعماء الدروز الذين حكم عليهم في بيروت وتخفيف عقوبة الذين قضي عليهم في المختارة فاعترض على هذا الاقتراح المندوب الروسي ٠ وكذلك لفت اللورد دوفرين الانظار الى انه من الصعب ان يتخذ تخفيف عقوبة المحكوم عليهم في المختارة قاعدة لتبرير مضاعفة عقاب المحكوم عليهم في بيروت لان الاولين ثبتت عليهم جناية القتل (٥)٠ ولما طالت المباحثات في هذا الموضوع ولاحظ

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٥٥

(٢) " " " " ٣٥٧ ـ ٣٥٨

(٣) " " " " ٣٥٨

(٤) " " " " ٣٥٨ ـ ٣٥٩

(٥) " " " " ٣٦١ ـ ٣٦٢

فؤاد باشا اختلاف مندوبي الدول بهذا الشان رغب اليهم ان يتفقوا كي يتسنى له الانتقال من حيز الاحكام النظرية الى حيز العقوبات العملية (١) . وعندما وجد المندوب السلطاني ان اراء اعضاء اللجنة الاوروبية متباينة سواء فيما يتعلق بالاحكام على الدروز او على الضباط والموظفين العثمانيين اعلن انه سيؤجل تصديقها الى ان يتلقى اوامر حكومته في مجموعها ووعد بان يستشير اللجنة في هذا الشان . (٢)

وقد ظلت محكمتا بيروت والمختارة حرتين في اصدار الاحكام . واحصى عدد الدروز الواجب تضحيتهم في سبيل رضاء الدول الاوروبية واعطاء البرهان على عدالة الباب العالي . وقد ذكر فؤاد باشا ان المسيحيين قتلوا ١٣٠٠ درزي اثناء الفتن يضاف اليهم قتل ١٧٦ نسمة بين رجال واطفال ونساء وجرح ٨٥ بعد مجيء الحملة العسكرية الفرنسية (٣) . لذلك راى فؤاد باشا ان يكتفي باضافة عشرين حكما بالاعدام اصدرتها محكمة المختارة الى الـ ٢٢ حكما اصدرتها محكمة بيروت ، لان المسيحيين قد اخذوا بقسط وافر من ثارهم . (٤) .

الا ان المندوب الروسي والمندوب البروسي رفضا هذا الاقتراح كما ندد به المندوب الفرنسي .

اما المندوب الانكليزي فقد اهتم بالدفاع عن الدروز وتبرير ساحتهم . وفي شهر اذار لم يكن قد استقر الراي بعد على العقوبات التي يجب انزالها بالمذنبين . وقد تسرب الملل اخيرا الى مندوبي فرنسا والروسيا وبروسيا . فتمكن اللورد دوفرين والمندوب السلطاني من فرض وجهات نظرهما وحمل اللجنة على تقرير معاقبة كبار المجرمين وتخفيف عقوبات من هم اقل مسؤولية ، وذلك في سبيل حقن الدماء وافساح مجال التفاهم بين الدروز والمسيحيين (٥) .

واخيرا اقترن اعدام ٤٣ شخصا من موظفين وضباط ، والسجن المؤبد في قلعة لثلاثة ، وسجن ١٢ عاما في قلعة لـ ١١ متهما اخر والنفي بين ١٣ و ٦ سنوات

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٧٠ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٥

(٢) " " " " ٣٩١ ـ ٣٩٨

(٣) " " " " ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(٤) " " " " ٢٧٠ و ٢٧٥ ـ ٢٧٦

(٥) " " " " ٢٧٠ ـ ٢٧١

ل ١٥٠ متهما والنفي لمدة سنة لـ ٥٥ متهما والحرمان من كل وظيفة عامة والاعتقال الموقت لاثنين • وقد رفع فوءاد باشا هذه الاحكام الى جلالة السلطان لتصدقها هذا الاخير • وحاول مندوبو الدول ولا سيما المندوب الفرنسي تشديد العقوبات التي تقرر فرضها على الموظفين ولا سيما على خورشيد باشا وطاهر باشا والكولونيل نوري بك • فابى فوءاد باشا تبديل اى شيء في الاحكام الصادرة بشانهم بحجة ان هوءلاء اذا صح القول عنهم انهم قصروا في واجباتهم فلا يصح القول انهم قصدوا اراقة الدماء (١)• وهكذا فان خورشيد ورفاقه تمكنوا من النجاة فسيقوا الى القسطنطينية لتمضية ما تبقى من حياتهم في السجن • ولقد شك كثيرون في ان يكونوا قد سجنوا فعلا • وجاء في رسالة اللورد جون رسل الى اللورد دوفرين في ١٨ اذار سنة ١٨٦١ : " اذا كانت حياة خورشيد قد انقذت ، فيجب ان يكون اعتقاله شديدا على الاقل وان يكون عقابا حقيقيا لا ستارا لتغطية نعم جديدة تغدق عليه " • (٢)

اما الزعماء الدروز سعيد بك جنبلاط والشيخ حسين تلحوق والشيخ اسعد تلحوق وقاسم نكد وسليم جنبلاط وبشير مرعي والامير محمد قاسم رسلان واربعة من المشايخ فقد استعيض حكم الاعدام عليهم بالنفي مدى الحياة • بل ان سعيد بك جنبلاط تمكن من التملص تماما اذ اصيب بمرض عضال فمكث في بيروت للمعالجة حتى اخر حياته ، وذلك بفضل العطف الذى حباه به اللورد دوفرين •

وفي ١٦ اذار سنة ١٨٦١ ارسلت السلطات التركية على متن احدى السفن الى طرابلس الغرب ١٤٥ درزيا حكم عليهم بالنفي • وقد اوصى بهم اللورد دوفرين القنصل البريطاني في طرابلس الغرب (٣)•

وفي ٤ ايار سنة ١٨٦١ اعلن ابرو افندي امام اعضاء اللجنة الاوروبية ان الدروز قد نالوا جزاء ما جنته ايديهم فجرحت كبرياوءهم وانزل من قدر زعمائهم والغيت امتيازاتهم وصودرت ممتلكاتهم (٤)•

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٢٦٤ ــ ٢٧٠

(٢) Correspondences relating to the Affairs of Syria p. 462

(٣) " " " " " " 2eme partie p.8 et 36

(٣) نيستا ج ٦ ص ٢٧٣

(٤) المحررات ج ٣ ص ٩ ــ ١٢

٥) التعويضات .ـ كان على اللجنة ان تعيد بناء بيوت قد هدمت وان توفر الغذاء للاجئين الذين نزحوا عن قراهم وغلالهم ومنازلهم وان تبعث الحياة الزراعية التي كانت قد اضمحلت الى حد بعيد اثر حوادث سنة ١٨٦٠ ، وان تقدم الاموال والبذور والوسائل اللازمة لذلك كله . ولم يكن بالامكان تاخير هذه الاعمال لان فصل الامطار بات قريبا وكانت طلائع الثلوج قد بدات تظهر في اعالي الجبال (١).

وقد اوضح فؤاد باشا لاعضاء اللجنة الاوروبية ان مهمته تتناول المعاقبة والتعويض والتنظيم . واضاف انه تالفت في لبنان لجان خاصة قبل اجتماع اللجنة الدولية في بيروت فجابت القرى لتقدير نفقات ترميم البيوت ودفعت بعض الاموال للمنكوبين بناء على تقديراتها . وكانت الصعوبة في ايجاد الاموال اللازمة لان النفقات المقدرة بما فيها الاموال المنوى توزيعها بلغت اربعة ملايين و ٥٠٠ الف قرش تقريبا .

وذكر فؤاد باشا ان ذلك لم يكن كافيا بل كان يجب اعداد قسم من المنازل قبل حلول فصل الشتاء ولذلك اكره جميع الدروز والمسلمين على تقديم الاخشاب اللازمة لبيوت المسيحيين واخذت ايضا البغال التي تخص دروز البقاع واعطيت للنصارى كما صدرت الاوامر بان يتوزع الحبوب والارزاق التي يعثر عليها في بيوت الدروز على المسيحيين شرط ان تحسب من اصل التعويضات التي يفرض عليهم اداؤها (٢).

وقد ذكر المندوب الفرنسي انه يوجد كثير من البيوت الحالية في بعض القرى المختلطة من جراء فرار الدروز الى حوران وانه يقترح اسكان المسيحيين فيها مؤقتا . واضاف ان المسيحيين القاطنين في النواحي المختلطة السكان لم يتمكنوا من حصد مزروعاتهم من جراء الحوادث الاخيرة فاستولى عليها الدروز ، فمن العدل اعطاء المسيحيين نصف هذه الحبوب على الاقل . وطلب المندوب الفرنسي ايضا السماح لاهالي زحلة بقطع الاخشاب اللازمة لبناء بيوتهم من الغابات المجاورة . فاجاب فؤاد باشا انه اسكن بعض المسيحيين في بيوت درزية في دير القمر والقرى المجاورة وسيسلك هذا السبيل كلما تسنى له ذلك.

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٩ ـ ١٢

(٢) " " " " ٩ ـ ١٠

واضاف المندوب السلطاني ان الحبوب المخزونة ستؤخذ انى وجدت وانه سمح اكثر من مرة لاهالي زحلة بقطع الاخشاب اللازمة لبيوتهم من احراج سهل بعلبك وسيعيد الكرة ، وان المسيحيين لم يقتصروا على قطع الاشجار من جوار زحلة بل ذهبوا الى الغابات المجاورة لدمشق . واشار فؤاد باشا الى الصعوبات التي يجابهها في سبيل جمع الاموال اللازمة والتي حالت دون اظهار نواياه الحسنة الى حيز العمل . فواردات جمرك بيروت خصصت لتامين الحاجات الضرورية . وقد ارصد فؤاد باشا مليونين و ٢٥٠ الف قرش لاعادة بناء القرى من اصل مليونين و ٥٠٠ الف ارسلت اليه من الاستانة لدفع رواتب الجنود . وفضلا من ذلك نقد وزع على المسيحيين مليون و ٢٨٩ الفا و ٩٣٣ قرشا في سبيل الاعانات اليومية ومليونا و ٥٣١ الف و ٣٤٤ قرشا لترميم البيوت .

وقد طالب المندوب الروسي بالاهتمام بمنكوبي حاصبيا وراشيا وضرورة المحافظة عليهم من اعتداءات الدروز . واقترح فؤاد باشا ان تدعى الدول الاوروبية الى المساهمة في تامين الاموال اللازمة (١) . وفي الجلسة الثامنة طالب فؤاد باشا ان تساهم اللجنة في السهر على اعادة بناء القرى خشية ان ينفق المنكوبون الاموال الموزعة عليهم في غير السبل المرصدة لها . فتدخل المندوب البروسي وادعى ان لا فائدة من اطلاع حكومات اوروبا على مقتضيات الحالة المالية لان ذلك مضيعة للوقت ، انما المهم ان يبادر الى جمع الاموال دونما تاخير وذلك لتامين الحاجات الضرورية ، وانه من الممكن ايجاد الاموال اللازمة في البلاد : فدمشق غنية تحوي ثروات واموال كبيرة كما ان معظم زعماء الدروز اصحاب ثروة واسعة ومدينة صيدا لا تخلو من المال . فينبغي فرض ١٠٠ مليون قرش على دمشق وصيدا وجبل الدروز وتوزيعها بصورة نسبية على هذه الاماكن الثلاثة لا للتعويض عن جميع الخسائر بل لتخفيف شقاء المسيحيين . فاجاب فؤاد باشا انه يفرض ضريبة استثنائية على دمشق وانه سيخصص اموال المحكوم عليهم بالاضافة الى ما يتجمع من الضريبة الاستثنائية للتعويض على المسيحيين . ولكنه ينتظر موافقة حكومته على هذين الامرين . واضاف فؤاد باشا ان ثروة اغنياء دمشق عقارية لا يمكن بيعها بسرعة وان صيدا

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٩ ـ ١٢

مدينة فقيرة وان معظم الاملاك في جبل الدروز تخص الزعماء لا الاهالي . وعلى الرغم من تدليل فؤاد باشا على صعوبة تحقيق الاقتراح البروسي فقد ايد هذا الاقتراح مندوبو فرنسا وانكلترا والنمسا والروسيا . ومما ذكره المندوب الروسي ان استيفاء هذه الضريبة سيساعد على اكتشاف الامتعة المنهوبة وبصورة خاصة مسلوبات الاديرة والكنائس (١).

واجمع المندوبون الاوروبيون على الاعتراف بحراجة الموقف وضرورة الاسراع بالعمل فشاطرهم فؤاد باشا رايهم وشعورهم . لكنهم اصطدموا بعقبة الافتقار الى الاموال اللازمة . واقترن فرض غرامة على دمشق وضريبة على جميع مدن "سوريا" وضريبة على الدروز ولكن تبين ان جميع هذه الوسائل غير كافية لتحقيق الغاية المرجوة . ولم يكن بالامكان الاعتماد على خزينة الولاية لانه كان قد مضى على الجيش حوالي ١٢ شهرا دون ان يتناول الافراد رواتبهم ومن غير ان يجمعوا حطبا للوقود وحبوبا لهم وللاجئين . وكانت الاعانات الموزعة على المنكوبين لترميم القرى تكاد لا تكفي لاعداد غرفة واحدة لكل عائلة. وكان سكان جبل لبنان يرتقبون بخوف شديد حدوث مجاعة عامة . وقد ارتفع عدد المنكوبين الذين كانت تطعمهم لجنة الاسعاف الانكليزية الاميركية في اسبوع واحد من ٢٣ الف الى ٢٩ الف نسمة (٢).

وقد وضع المسيو اوترى ، قنصل فرنسا في دمشق ، مشروع ضريبة على دمشق وضواحيها يمكن ان يجمع بتحقيقه ٢٨٠ الف ليرة انكليزية من دمشق و ٧٠٠ الف ليرة من القرى المجاورة . ولما كان المبلغ اللازم للتعويض على مسيحيي دمشق يقدر بمليون و ٢٠٠ الف ليرة انكليزية فقد ارتأى واضع المشروع ان يدفع الباب العالي الفرق اى ٢٦٥ الف ليرة (٣). اما فيما يتعلق بمسيحيي الجبل فقد اقترح المسيو بيكلار فرض ضريبة متناهية على الدروز تقضي على كل درزي بتقديم ٦ امداد قمح و ٣ امداد شعير و ١٠ ارطال زيت و ٣ قرش و ٣ اقطية وقدر ومرجل نحاس وحصيرة وغير ذلك . وذكر المسيو بيكلار ان الضباط الفرنسيين قد استخدموا هذه الطريقة في بعض الاماكن التي يحتلها الجيش الفرنسي فنجحت تماما .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ١٤ ــ ١٧
(٢) " " " " ٢٥ ــ ٢٦
(٣) " " " " ٧٣ ــ ٧٤

فقال فؤاد باشا انه سبق ان صودرت من الدروز امتعتهم هذه بناء على اوامره وانه اوعز مؤخرا باخذ ٤٠ الف مد من البذار من غلال زعماء الدروز ليوزعها على الموارنة كما اتخذ احيتاطات اخرى لتامين حاجات المنكوبين الضرورية وانه سيفرض على الدروز ضريبة المتاع كما اقترحها المسيو بيكلار فيطلب الى كل درزي تقديم كمية من الحبوب والامتعة الضرورية تعادل قيمتها ١١٠٠ قرش ٠ وارد فؤاد باشا قائلا انه اتفق مع الجنرال دي بوفور على التعاون في جمع الضريبة المتاعية ٠ وقد تناقشت اللجنة بشان الغرامة الواجب فرضها على دمشق وطريقة استيفائها ٠ فوعد فؤاد باشا باستشارة حكومة الاستانة في هذا الشان ٠ والح مندوب فرنسا في الجلسة المنعقدة في ١٣ تشرين الثاني سنة ١٨٦١ على ضرورة ذهاب اللجنة الى دمشق لدرس خسائر المسيحيين وتحديد المبلغ اللازم للتعويض عليهم ٠ فعارض فؤاد باشا بذلك بادئ الامر ولكن جميع الاعضاء الاوروبيين وافقوا على الاقتراح الفرنسي وتقرر الذهاب الى دمشق ٠ الا ان فؤاد باشا سبق له ان اوضح في الملحق رقم ١ الذي ضم الى محضر الجلسة الثانية عشرة ان مسالة تعيين قاعدة الضريبة غير العادية على دمشق وكيفية استيفائها لا يدخل في صلاحيات اللجنة الاوروبية بل في صلاحيات الباب العالي وحده ٠ وقد ذكر في هذا المحضر ان فؤاد باشا وضع مشروعا واطلع اللجنة عليه فجاء مشتملا على توزيع الضريبة بصورة عادلة (١) ٠ اما مشروع فؤاد باشا فيقضي بجمع الضريبة غير العادية المفروضة على دمشق على اساس قيمة بدلات الايجار اي على اساس تقدير معروف تتخذه الحكومة عادة اساسا لفرض ضرائبها وهو في نظر فؤاد باشا اسهل تنفيذا واكثر سرعة من مشروع المسيو اوتري (٢)٠

ومن الجدير بالذكر ان اللورد دوفرين حمل حملة شديدة على مشروع الضريبة المتاعية التي تقرر فرضها على الدروز فقال انها جائرة وان جبايتها يمكن ان تهدد كيان الطائفة الدرزية ٠ لان معظم الدروز لا يملكون الامتعة المراد جمعها كما لا يملكون قيمتها ٠ ثم عدد اللورد دوفرين القرى المسيحية التي اخذت امتعتها والقرى التي نهبت

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٧٩

(٢) " " " ٦٧

بكاملها وقال : "اذا لم يحفل بحالةهو"لا" الدروز وفرض عليهم ضريبةواحدة فان ذلك يجر الى خراب هذا الشعب الذي حرم استقلاله وامتيازاته السياسية" وختم اللورد دوفرين كلامه طالبا الغاء الضريبة المتامية . فاجابفؤاد باشا انه لما اقترح هذه الضريبة على اللجنة لم يعترض عليهااحد من الاعضاء بما فيهم اللورد دوفرين وانه اصدر تعليماته الى الموظفين المكلفين بجمع هذه الغرامةكي لا يسرعوا في جمعها وان يراعوا الظروف ويسلكوا سبل الرفق والانسانية . وصرح المندوب النمسوي ان الضريبة ليست باهظة . اما المندوب الفرنسي فوافقعلى تاجيل تنفيذ الضريبة ولكنه ابى الموافقة على الغائها . ولم يلبث المندوب النمسوي ان اقترن الاقتصار في فرض الضريبة على الاغنياء الذين حجزت املاكهم فوافق المندوب الروسي على هذا الاقتراح كما الح مندوبا فرنسا وبروسيا على استيفاء الغرامة من عامة الدروز على ان يعفى منهم الفقراء والمحتاجون . فوافق اللورد دوفرين وفؤاد باشا على التعديل الاخير . وفي هذه الجلسة اي الجلسة الخامسة عشرة المعقودة في ٢٢ كانون الاول اعلن فؤاد باشا انهتلقى رسالة منحكومته تحتفظ فيها بحق البت في تعيين التعويضات ودفعها للمسيحيين وتحديد مبلغ الضرائب المراد استيفاؤها ورصدها للتعويضات المذكورة . وذكر فؤاد باشا ايضا انه الح على حكومته باتخاذ قرار نهائي حاسم في هذا الشان . عند ذلك ابدى مندوب فرنسا استغرابه هذا التدبير واعرب عن اسفه الشديد لان ذلك من شانه ان يجر الى تاجيل تنفيذ قرار اجمع عليه اعضاء اللجنة (١).

وقد طالبت اللجنة بدفع ١٥٠ مليون قرش لمنكوبي دمشق فلم يوافق الباب العالي الا على ٧٥ مليونا تدفع خلال ثلاث سنوات وعلى ستة اقساط نصلية . وعندما اعلن فؤاد باشا هذا القرار امام اعضاء اللجنة في ٥ اذار سنة ١٨٦١ تلقى الاعضاء النبأ بدهشة عظيمة وشعروا بعجزهم التام ، بعد مناقشات بيزنطية دامت خمسة اشهر ، فحاولوا عند ذلك الحصول على ضمانات جديدة على الاقل . فطالب المندوب الفرنسي بالمبادرة الى توزيع القسط الاول اي ١٢ مليون وخمسماية الف قرش . فاجاب فؤاد باشا

---

(١) المحررات ج ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٨

قائلا : " اني ربما تجاوزت هذا المبلغ ، اذا امكن ذلك . ويمكنكم ان تعتمدوا علي".(١)
ولكن فؤاد باشا كان يشير في احاديثه الخاصة الى عجز الخزينة .

ولم يكن المسيو سكلار اوفر حظا عندما سأل فؤاد باشا اذا كانت الضريبة الاستثنائية في دمشق ستفرض على المسيحيين والمسلمين ام انها ستقتصر على المسلمين، اذ اجابه فؤاد باشا ان الحكومة التركية تحتفظ بحق البت في هذه المسألة وانها لم تبعث اليه بعد بتعليماتها في هذا الشأن . وقد خشي المندوبون الاوروبيون ان يطلب الى المسيحيين في دمشق الاشتراك في ضريبة اوجدت للتعويض عليهم اثر كوارث حلت بهم والحقت افدح الخسائر (٢) .

اما فيما يتعلق بلبنان فقد مر فصل الشتاء دون ان يكون المسيحيون قد استوفوا التعويضات المتوجبة لهم . وفي شهر اذار تقدم الجنرال دي بوفور الى اللجنة بمشروع يقضي بفرض غرامة على كل درزي قادر على حمل السلاح ، فرفضها فؤاد باشا واللورد دوفرين (٣) وقد عجزت اللجنة الاوروبية عن تحديد مبلغ التعويضات الواجب تقديمها للمسيحيين . واضطرت ان تقبل بتأليف لجان خاصة للتحقيق في الاضرار الحاصلة، على ان تتولى الادارة التركية دفع التعويضات الواجبة حسب تقديرات اللجان .
ووافقت اللجنة الاوروبية ايضا على تأليف لجنة مركزية في الاستانة تتولى البحث في التعويضات الواجب دفعها لرعايا الدول الاجنبية ومحمييها المتضررين ، مع كل دولة ذات علاقة على حدة . وقد طلبت اللجنة ان يدفع فورا مبلغ مليونا(كذا) وخمسماية الف قرش للمنكوبين كي يتمكن هؤلاء من اعادة بناء بيوتهم وشراء المعدات والبذور اللازمة للحراثة والزراعة .

هذا ولا بد لنا ان نذكر ان الانكليز والفرنسيين (وهؤلاء بصورة خاصة) قد ساعدوا المنكوبين وقدموا لهم المعونات المالية وكذلك الثياب والاغذية وساهموا في اعادة بناء بيوتهم وتوفير الامن لهم (٤).

---

(١) تيستا ج ٦ ص ٢٥٧
(٢) ده لاكورس ج ٣ ص ٢٤٦
(٣) تيستا ج ٦ ص ٥٣ وما بعدها
(٤) المحررات ج ٣ ص ١٢١ ــ ١٢٨

٦) تهديد الاحتلال .— وبينما كانت المداولات تجرى في بيروت بين فؤاد باشا والمندوبين الاوروبيين دون ان تصل الى نتائج ايجابية حاسمة كان الوقت المحدد في اتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ لجلاء القوات الفرنسية يدنو بسرعة . الا ان الهدوء لم يكن قد عاد تماما الى ربوع لبنان وكان قناصل الدول لا يزالون يشيرون في تقاريرهم الى القلق الذى يساور نفوس المسيحيين والمسلمين والدروز على السواء .

وكان زعماء الدروز في حوران يتصلون بانصارهم لمقاومة التدابير الزجرية المنوى تنفيذها بهم . وقد اعطوا البرهان على ان فؤاد باشا وجنوده لم يكونوا يخيفونهم فهاجموا القرى المجاورة لدمشق واعملوا فيها السلب والنهب (١) . وكيف تعود الطمانينة الى نفوس النصارى وقد جعلتهم بعض تصرفات فؤاد باشا يعتقدون بميل هذا الاخير الى مجاملة الدروز والسكوت عن اعمالهم ؟ من ذلك ما ذكره الميجور فريزر في كتاب له للورد رسل في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٦٠ ان الذعر لا يزال يهيمن على نفوس المسيحيين وان فؤاد باشا اخلى سبيل عدد كبير من المسجونين رغم الجنايات المتهمين بها بحجة ان متهميهم لم يأتوا بدليل على ما نسبوه اليهم ولم يحضروا . ومما جاء في رسالة الميجور فريزر الانفة الذكر ايضا ان المسيحيين كانوا يشعرون بتواطؤ الحكومة والدروز عليهم وبتصميم فؤاد باشا على عدم معاقبة الدروز (٢) .

اما مسيحيو لبنان فلم يكن الاطمئنان قد عاد الى نفوسهم رغم وجود القوات الفرنسية بين ظهرانيهم وكانوا لا يزالون يحملون السلاح ويقفون على قدم الاستعداد للطوارىء في قراهم ودساكرهم (٣) . وكثيرا ما كانت تحدث اصطدامات دامية بين الفريقين فيضطرب لها رجال الصناعة والتجارة في بيروت . وكان قنصل فرنسا يشير في تقاريره الى النار الراقدة تحت الرماد والتي تنذر بالظهور والامتداد بين يوم واخر ، والى القلق الذى يساور نفوس التجار الاجانب بما فيهم التجار الانكليز (٤) .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥
(٢) " " " ٤٠٣ ـ ٤٠٤
(٣) عيستاج ٦ ص ٢١٩ وما بعدها
(٤) المحررات ج ٣ ص ٣٤١

عند ذلك طرحت مسالة بقاء القوات الفرنسية على بساط البحث . فكان راى فرنسا ان تبقى وكان راى انكلترا وتركيا ان تجلو في اواخر شباط اى عند انتهاء مدة الاحتلال المقررة .

وقد كتب اللورد رسل وزير الخارجية البريطانية الى اللورد كاولي السفير البريطاني في باريس في ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٠ " رسالة جاء فيها : ان حكومة جلالة الملكة ترى ان مصاعب لا تذلل تحول دون اطالة مدة احتلال الجنود الفرنسيين لسوريا فقد ارسل هؤلاء الجنود اليها على اثر الجرائم الفظيعة التي ارتاعت لهولها اوروبا لمساعدة الحكومة التركية على اعادة الامن الى نصابه ومعاقبة كبار المجرمين . وقد تم معظم هذه المهمة وهي الانتصار للانسانية وتحقيق العدالة بفضل نشاط فؤاد باشا وحزم القائد دى بوفور . ومن ثم لم يبق فائدة من ابقاء الجنود الاوروبيين هناك لمطاردة سائر الجناة والبحث عنهم في مخابئهم في مغاور تلك البلاد ووهادها اذ ان هذا التعقب يطول الى ما لا نهاية دون جدوى . وعليه فزيادة الجنود الاوروبيين في سوريا وابقاؤهم فيها بقصد منع حدوث جنايات شديدة يعد مخالفا للغاية الخطيرة التي توخاها جلالة السلطان والدول الخمس فاى اجل يمكن تعيينه لمثل هذا الاحتلال واى حد يجعل لعدد الجنود ؟ لا مراء ان حالة كهذه تؤول عاجلا الى نقل الادارة المحلية في سوريا الى ايدى الدول الخمس فينتج عن ذلك ان الاحتلال الاوروبي بدلا من ان ياتي بالعبرة المرغوبة ارهابا للمسلمين المتعصبين يتخذ ذريعة الى احتلال بلغاريا والبوسنة وغيرها من الايالات بحيث ينتهي الامر الى تقسيم السلطنة العثمانية . فلاتقاء هذه الشرور تؤثر حكومة جلالة الملكة اعادة حكم سوريا الى ارباب السلطة الذين ينصبهم الباب العالي وفقا للطريقة التي تحكم اللجنة الدولية المختلطة في انها اكثر ملاءمة لتوطيد اركان السلم في سوريا بحيث تلقى المسؤولية فقط على عاتق الباب العالي والموظفين الذين تعينهم حكومة البلاد . اجل ان هذه الوسيلة لا تضمن عدم تجدد المنازعات بين الدروز والمسيحيين لانه ما دام هذان الشعبان في البلاد فسيتعذر الامن والراحة " (١) .

لقد كان موقف اللورد رسل متفقا مع السياسة التي انتهجتها الحكومة البريطانية في الشرق منذ سنوات الا وهي اعتبار اى احتلال اجنبي ، مهما كان نوعه ، لاية بقعة داخل

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٧ ــ ٣٨

الامبراطورية العثمانية ، تدخلا مباشرا في شؤون تركيا الداخلية واعتداء على صلاحيات السلطان . وكان لا بد لبريطانيا في موقفها ازاء الرغبة في تمديد الاحتلال الفرنسي من ان تلقى التاييد التام لدى مندوبي الباب العالي . ففي ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٠ وجه عالي باشا وزير خارجية تركيا كتابا الى موزوروس افندي سفير تركيا في لندن اكد له فيه امل الحكومة التركية في ان ترى الجيوش الفرنسية تجلو في الوقت المعين من "سوريا" لانه لم يكن هناك اي مبرر لبقائها (١).

وقد بين المندوبون العثمانيون والبريطانيون اكثر من مرة ان بقاء القوات الفرنسية ليس من شانه الابقاء على الامن والسلام بل اثارة القلاقل وتشجيع الموارنة على التحرش بالدروز والتعدي عليهم والتمرد على اوامر السلطات المحلية (٢).

وفي ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٦١ طالب اللورد كولي ، بناء على تعليمات تلقاها من اللورد رسل ، بجلاء القوات الفرنسية وفاقا لاتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ (٣) . وقد اعترض المسيو دي توفنيل على هذا الطلب بحجة ان الاضطرابات لم تنته نهائيا وقد تلا على مسامع اللورد كولي تقارير القنصل الفرنسي بيكلار . وانهى الوزير الفرنسي كلامه قائلا انه " يعتقد في ضميره وذمته ان جلاء الجنود يعقبه مذبحة اعظم من التي تدخلت اوروبة من جرائها ... فحكومة الامبراطور لا تريد ان تاخذ على عاتقها الانفراد بالعمل في هذه المسالة وان جل رغبة الامبراطور استعادة جنوده من سوريا في اقرب وقت ، لكنه يلح في وجوب انشاء حكومة منظمة في لبنان ليتسنى ارجاع الجنود (٤) ". عند ذلك طلب السفير البريطاني الى وزير خارجية فرنسا " ان يستقدم الجنود الفرنسيون من داخل البلاد على كل حال ويحشدوا في اسرع وقت ممكن في بيروت لان وجودهم في الجبل يساعد فقط على تشجيع الموارنة واغضاب الدروز (٥) ". ولكن لم تتمكن جميع الاسباب التي كانت تتذرع بها الحكومة الفرنسية لتبرير تمديد الاحتلال الفرنسي من احداث اي تاثير ايجابي لدى الحكومتين الانكليزية

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٨٥ ـ ٨٦

(٢) " " " ١٩٤ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٤٢ و ٢٦١

(٣) " " " " ١٩٨ ـ ١٩٩

(٤) " " " " ٢٠٨

(٥) " " " " ٢٠٨ ـ ٢٠٩

والعثمانية . فكتب المسيو توفنيل الى سفير فرنسا في انكلترا الكونت دى فلاهو في ١٨ كانون الثاني سنة ١٨٦١ ذكر فيها ان الانباء الواردة اليه تجعله يعتقد بامكانية وقوع فتن عقب جلاء القوات الفرنسية اذا لم تتخذ مسبقا الاحتياطات اللازمة لصيانة حياة الاهالي . "فلابد للدول ازاء هذه الاعتبارات من ان تفقه انها ستعلق اهمية كبرى على التنصل من المسؤولية ... ولذلك نسال الدول ان تكاشفنا رايها بهذا الشان مع الاحتفاظ بحقنا في ابداء راينا في المفاوضات التي ستجرى فيها بصفة كوننا في عداد موقعي اتفاقية ٥ ايلول . (١)

وقد اقترح الوزير الفرنسي في نهاية رسالته عقد مؤتمر للدول الموقعة على اتفاقية ٥ ايلول للتداول في مسالة جلاء القوات الفرنسية عن "سوريا" . وقد ارسل المسيو توفنيل الرسالة عينها الى ممثلي فرنسا في برلين وبطرسبورج وفيانا والاستانة (٢). وقد حاول اللورد رسل في كتاب الى اللورد كولي في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٦١ ان يتنصل من كل تبعة يمكن ان تنجم عن جلاء القوات الفرنسية عن "سوريا" وان يتمسك بسيادة السلطان والرغبة في المحافظة عليها ذاكرا ان مسالة الجلاء تتعلق بالحكومة التركية وحدها وبالضمانات التي يمكن ان تقدمها لحماية مسيحيي البلاد والحؤول دون عودة المذابح (٣). وقد اجاب اللورد رسل في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٦٢ على مذكرة المسيو دى توفنيل الانفة الذكر فقال : "ان تاليف اللجنة (٤) لا علاقة له بالاتفاقية المبرمة بشان ارسال الجنود الفرنسيين الى سوريا وغايتها تختلف من بعض الوجوه عن غرض ارسال الجنود . وترى الحكومة البريطانية انه من الضلال سواء من الوجهة القانونية أم من الوجهة السياسية ان تخلط الدول الخمس بين مسالتي الاحتلال الاجنبي وتنظيم لبنان . اذ يجب الا يغرب عن البال ان سوريا هي احدى ولايات السلطنة العثمانية وصاحبها هو السلطان لا الدول الخمس . وقصارى القول ان احتلال الجنود الاجانب ينتهي بانتهاء اجل المعاهدة الا اذا رضيت الدول الخمس وحكومة السلطان بتجديدها ". (٥)

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٢٣ – ٢٢٤

(٢) " " " ٢٢٥

(٣) تيستا ج ٦ ص ٣٠١

(٤) اللجنة المؤلفة للنظر في طريقة اعادة الامن الى سوريا واقتراح المشاريع التي تكفل ادراك هذه النتيجة (راجع المحررات ج ٣ ص ٢٥٩)

(٥) المحررات ج ٣ ص ٢٥٩

ومع ذلك فان المسيو توفنيل لم ييأس من الوصول الى موافقة الدول على تمديد الاحتلال . فكرر تاكيداته للورد كولي ان فرنسا ليس لها في سوريا " اطماع او مصالح خاصة وانما غايتها القيام بعمل انساني محض بالتعاون مع الدول الاوروبية الكبرى . وقد ذكر المسيو توفنيل في الحديث الذى دار بينه وبين اللورد كولي في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٨٦١ : " اننا نعتقد انه اذا استقدمنا جنودنا يمسي الذين ذهبنا لصيانتهم في حالة اسوأ من ذى قبل . فقد كان لجبل لبنان ادارة مستقلة قائمة على اتفاق بين الباب العالي والدول الخمس . اما الان فلا اثر لحكومة فيه سوى سلطة الباب العالي المطلقة . فجل ما نطلبه ان ينظم قبل مغادرتها لبنان حكومة لا تجعل الموارنة في موقف اسوأ من الماضي . فنكون اذ ذاك قد فعلنا كل ما في طاقتنا في هذه الظروف ويتسنى لنا ان نبرئ ساحتنا امام العالم الكاثوليكي فيما لو تجددت المذابح . اما اذا تكررت الفظائع من جراء خروج جنودنا قبل وضع النظام فكل اللوم يقع علينا . وفي كل بريد تصل عرائض الى الامبراطور يستغيث موقعوها بجلالته لمواصلة حمايته لهم ومن الصعب ان نهمل اناسا اعتمدوا علينا منذ عهد بعيد ولا اكتمكم اننا نود ان نحفظ نفوذنا لدى الموارنة (١) . "

ولا شك ان المسيو توفنيل اخطأ خطأ عظيما عندما ذكر بحماية فرنسا التقليدية لمسيحي الشرق . لان بريطانيا كانت حريصة جدا كما مر معنا على ان لا يرتدى التدخل الاوروبي سوى طابع دولي محض . وبالفعل فقد تشبثت الحكومة البريطانية بموقفها .

ومن الجدير بالذكر ان بريطانيا كانت تشجع الباب العالي على رفض التمديد والمطالبة بتنفيذ اتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ على الرغم من تظاهرها بترك الحرية التامة له للبت في هذه المسالة . وكان اللورد دوفرين لا ينفك عن التاكيد بان لا طائل من اطالة مدة الاحتلال (٢) .

وقد استدعى امبراطور فرنسا السفير البريطاني في ٢٨ كانون الثاني واعرب له عن رغبته في ان تؤيد بريطانيا بقاء القوات الفرنسية وان توحد الدول كلمتها في سبيل حمل الباب العالي على تنظيم حكومة لبنان كي تتمكن فرنسا من ارجاع قواتها العسكرية . ولم يفت الامبراطور ان يشير الى الشكاوى التي ترده باستمرار من الموارنة واضطراره الى الاصغاء اليها (٣) .

---

(١) المحرزات ج ٣ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢
(٢) " " " " ٢٧٣ ـ ٢٧٤
(٣) " " " " ٢٨٤ ـ ٢٨٧

الا ان اللورد رسل حلول في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٦١ ان يدحض حجج المسيو توفنيل فلاحظ ساخرا انه اذا ارادت الدول ان تنتظر الانتهاء من اعادة تنظيم ادارة لبنان للموافقة على جلاء القوات الفرنسية، فيمكن ان يستغرق ذلك عدة اشهر. "فينبغي الا يتخذ ذلك حجة لاطالة مدة اقامة الجنود الاوروبيين في سوريا الى ما لا نهاية له". وقد اوضح اللورد رسل ان اقصى ما تقبل به الحكومة البريطانية هو التصريح بان نظام سنة ١٨٤٥ يبقى نافذا الى ان يستبدل بغيره وان تبقى فرنسا وبريطانيا في شواطيء سوريا بوارج حربية لحماية المسيحيين واسداء المعونة اليهم ابان فصلي الربيع والصيف.

وانهى اللورد رسل كتابه مؤكدا ان على فرنسا اذا ما رفض الباب العالي تجديد اتفاقية ٥ ايلول ان تجلو من "سوريا" وبهذه الوسيلة تتنصل من المسؤولية الملقاة على عاتقها تجاه اوروبة والموارنة (١)". وفي ٤ شباط ابلغ اللورد رسل سفيره في باريس قرار الحكومة البريطانية النهائي بهذا الشان وهو ان بريطانيا لا ترفض الا تشارك في المؤتمر المقترح عقده من قبل فرنسا اذا ما وافقت على ذلك سائر الدول الاوروبية وانها لا تقبل بتجديد اتفاقية ٥ ايلول الا اذا قبل ذلك الباب العالي مختارا (٢). لانه اذا كان الاتراك عاجزين عن ادارة "سوريا" في ذلك الوقت فكيف يقوون على ادارتها بعد شهرين او ثلاثة ؟ (٣)

وقد اشتركت الصحافة البريطانية في الحملة على ما سمي بالاطماع الفرنسية. فاتهمت فرنسا بان غزو "سوريا" ومصر كان يراود نفسها منذ زمن بعيد (٤).

وعندما ادركت الحكومة البريطانية صعوبة ابحار القوات الفرنسية خلال فصل الشتاء اعلنت استعدادها للموافقة على تمديد الاحتلال حتى اخر نيسان، شرط ان يقتصر الاحتلال على الشواطيء. (٥)

اما الدول الاوروبية الباقية فقد وقفت مواقف مختلفة. فالروسيا تنصلت من تبعة

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢

(٢) " " " " ٣٠٨

(٣) " " " " ٣١٠

(٤) جوبلان ص ٤٤٤ نقلا عن دى لاجورس ٣ ص ٣٢٩

(٥) المحررات ج ٣ ص ٣٢٢

الحوادث التي يمكن ان تحدث عقب جلاء القوات الفرنسية عن "سوريا" قبل ان يتم تنظيم حكومة لبنان (١) ، وبروسيا حذرت من تجدد المذابح اذا جلا الفرنسيون متنصلة من المسؤولية ولكنها اوضحت انها مستعدة لتاييد ما يجمع عليه مندوبو الدول في هذا الشان (٢) . واما النمسا فقد كانت ترى ان للباب العالي الحق دون غيره في البت في مسالة اطالة مدة الاحتلال (٣) .

وفي ١٩ شباط انعقد مؤتمر باريس الذى دعت اليه الحكومة الفرنسية لبحث مسالة تمديد الاحتلال . فكانت المناقشات طويلة حامية اكثر الاحيان . وقد عارض مندوب الباب العالي في تمديد الاحتلال منذ البدء . فقال ان " حكومته وجهت عنايتها ... الى القيام بالواجبات التي فرضتها عليها حوادث سوريا وبادرت في الحال الى قمع الفتنة وان في طاقتها حفظ السكينة وانه يمكن تنفيذ بند الاتفاقية القاضي بجلاء الجنود في الاجل المعين دون خطر على الامن والنظام " (٤) . فاجاب المسيو توفنيل ان الانباء التي اتصلت بحكومته تفيد ان جلاء الجيوش الفرنسية سيعقبه اضطرابات جديدة وانه ليس لدى السلطات المحلية الوسائل الكافية لردع الاهالي الذين يستعدون على القتال بلا انقطاع . ثم قارن المسيو توفنيل هذه الحالة بروح الاتفاقية ونص المادة الخامسة فيها فاستنتج بان الغاية التي توختها الدول الاوروبية لا تتحقق اذا جلت القوات الفرنسية عن سوريا في هذه الاونة واكد ان اخراجها سيؤدى الى ازالة الضمانة المادية المنصوص عنها في الاتفاقية قبل استبدالها بالضمانة المعنوية التي لا تتوفر الا بتنظيم الادارة اللبنانية . واضاف المسيو توفنيل ان هذا التنظيم لن يتم قبل انتهاء اللجنة الدولية من اعمالها .

ولما كانت اللجنة الاوروبية لم تنجز المهمة الملقاة على عاتقها فلم يكن بامكان وزير الخارجية الفرنسية ان يشاطر المندوب التركي اطمئنانه الى التدابير الموقتة التي اتخذتها حكومته .

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣١٢

(٢) " " " " ٣٢١ ـ ٣٢٢

(٣) " " " " ٣٢٤

(٤) " " " " ٣٢٣

فايد المندوب الروسي اقوال المندوب الفرنسي ووافق على طلبه . عند ذلك تدخل المندوب البريطاني وبين ان لا صلة بين اعمال اللجنة الاوروبية في بيروت وبين مدة الاحتلال وان هدف اتفاقية ٥ ايلول هو اتخاذ التدابير السريعة الفعالة لايقاف الفتن وحقن الدماء ، وقد تحقق كل ذلك . فينبغي تنفيذ الشرط المدون في الاتفاقية وهو خروج الجنود في الاجل المضروب . وانهى المندوب البريطاني كلامه بقوله : "ان حق السهر على الامن في سوريا اصبح من خصائص الدولة صاحبة السيادة دون غيرها . ولما كان معتمد تركيا تداصا بقوله ان بوسع حكومته اتقاء تجدد القلاقل فلم يبق من سبيل لتاجيل خروج الجنود الاجانب" (١). واضاف اللورد كاولي معربا عن اعتقاده في ان وجود بوارج اجنبية في ثغور البلاد كاف لكبح جماح الاهواء والاحقاد ، واذا حدثت قلاقل ما فمن السهل انزال قسم من البحارة الى الشاطيء" (٢). ولكن المندوب التركي نفسه اعترض هذه المرة على المندوب البريطاني فقال انه لا يستطيع من الناحية العسكرية التمييز بين احتلال القوات البرية ونزول القوات البحرية الى البر . ولاحظ مندوب النمسا ان التدبير الذي اقترحه المندوب البريطاني لا يمكن تنفيذه قبل اول ايار وانه قد يحدث قلاقل قبل هذا التاريخ اذا ما خرجت القوات الفرنسية . فشاطر المندوب البروسي هذا الرأي . اما المندوب الروسي فقد اعترض ايضا على الاقتراح البريطاني بحجة ان البوارج البحرية غير كافية لحماية المسيحيين لانها لا تستطيع ان تصل الى الجبل والداخل (٣).

واخيرا كاد المؤتمر يسفر عن اتفاق المندوبين على تمديد اجل الاحتلال شهرين وتاجيل البت في المسالة الى نهاية هذه المدة اذ يتمكن الاعضاء في ذلك الوقت من الاحاطة بكافة شؤون سوريا ويتسع المجال امام اللجنتين في بيروت لانجاز اعمالها فتضع تقريرا شاملا نهائيا يمكن للدول ان تعتمده لاتخاذ قرار اجماعي اخير . وبعد المناقشة وافق المندوب التركي على ابلاغ حكومته اقتراحا يؤدي الى عقد اتفاقية تطيل مدة الاحتلال حتى اول ايار المقبل ، كما وافق سائر الاعضاء على استشارة حكوماتهم في الموضوع نفسه (٤).

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦

(٢) " " " ٣٢٧

(٣) تيستا ج ٦ ص ٣١٢

(٤) المحررات ج ٣ ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩

ولكن من الجدير بالملاحظة ان المندوب التركي لم يقبل بذلك الا بعد ان اوضح لزملائه بان حكومته لا تعترف للدول الاوروبية باى حق في اكراه السلطان على اظهار اقتداره على حفظ الامن في اراضيه وبيان الوسائل التي لديه . ومما لا شك فيه ان المندوب التركي كان يعتمد في موقفه هذا على المادة التاسعة من معاهدة سنة ١٨٥٦ التي لا تقر لاوروبة باى حق في مراقبة الحكومة التركية والتدخل في شوؤنها الداخلية .وهكذا اعيدت الى بساط البحث معاهدة باريس والوعود التي تتضمنها الامر الشريف الهمايوني بشان رعايا السلطان المسيحيين .

ولم يكن المسيو توفنيل راضيا كل الرضى من مشروع التجديد حتى شهر ايار . وقد فكرت الحكومة الفرنسية في ٢٠ شباط ان تستدعي قواتها على جناح السرعة طالما ان هذه القوات يجب ان تغادر "سوريا" بعد ثلاثة اشهر ، مهما كانت حالة الامن فيها (٢). ولكنها عادت فقررت ان تعهد الى المسيوتوفنيل بالقيام بمحاولة اخيرة لدى الحكومة البريطانية، على ان لا يقبل باى حال تاريخ اول ايار . لان "قبول هذا الشرط يعني التصريح بان التمديد لا يمكن ان يحصل مهما كانت الظروف التي يمكن ان تطرأ ، وهذا تعهد لا يمكن ان يقبل به اى وزير فرنسي (٣)". فلم يعد المسيو توفنيل يعترض على تحديد امد نهائي للاحتلال في اتفاقية جديدة ولكنه كان يريد ان لا يحرم حق الدعوة الى مؤتمر في المستقبل للنظر في مسالة التمديد من جديد فيما اذا وقعت حوادث تجعل هذا التمديد ضروريا . فاذا تبنى المسيو توفنيل النظرية الانكليزية استحال عليه تحقيق هذه الغاية . لذلك استمر على المطالبة بتمديد الاحتلال مبررا ذلك بعجز الاتراك عن تامين النظام في البلاد .

وذكر المسيو دى توفنيل في رسالته الى الكونت دى فلاهو ، سفير فرنسا في لندن في ٢٥ شباط سنة ١٨٦١ انه اذا ضرب صفحا عن اشتراك الجنود والضباط الاتراك في المذابح الاخيرة فمن حقه ان يتساءل ما اذا كان الجيش النظامي ذو العدد القليل كافيا لادراك الدروز في معقلهم في حوران مع العلم بان افراد هذا الجيش لم يتقاضوا رواتبهم منذ ثلاثين شهرا وانهم اشد ميلا الى الفريق المعدد (بكسر الدال الاولى

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٢٨

(٢) تيشتا ج ٦ ص ٣١٥

(٣) " " " ٣٢٤

وتشديدها)، منهم الى الفريق المهدد (بفتح الدال الاولى وتشديدها) ، وما اذا كان يمكن تقديم هذا الجيش الى اوروبة ، في ظروف حرجة كهذه ، ضمانة لحفظ الامن والنظام (١) . وقد حاول المسيو دى توفنيل ان يزيل الشكوك التي كانت تساور بريطانيا حول نوايا الحكومة الفرنسية واطماعها التوسعية نكرا ان حكومته ترغب من صميم فوءادها ان تضم الى جنودها جنود سائر الدول فيصبح لجيش الاحتلال صفة اوروبية واضحة (٢) .

ولكن الحكومة البريطانية ازدادت تمسكا بموقفها والحاحا على الحكومة الفرنسية بضرورة الجلاء العاجل . الا ان اللورد رسل اعلم اللورد كولي فجاة ان مندوب السلطان في باريس صرح بان الحكومة التركية قادرة على حماية سكان لبنان مهما كان مذهبهم او جنسهم، وان عليه اى على اللورد كولي ان يعارض كل تمديد للاحتلال لا سيما وان الحكومة الفرنسية رفضت التمديد المقترح حتى اول ايار (٣) .

وتعقدت المسالة واوشكت ان تحدث ازمة لولا ان تدخلت الحكومتان الروسية والبروسية (٤) . وقد بينت الحكومة البورسية [الروسية] للحكومة البريطانية انها تشاطرها الراى في مسالتين كما تشاطر الحكومة الفرنسية رايها في مسالتين ايضا . اما المسالتان الاوليتان فهما وجوب تحديد مدة الاحتلال ، وان يتخذ قرار اجماعي بهذا الشان ، واما الثانيتان فهما الاعتراف بوجود علاقة بين اللجنة والاحتلال وهذه العلاقة هي الرغبة في اعادة الامن ، فطريقة اللجنة في سبيل ذلك ادبية وطريقة الاحتلال مادية . ثم الاعتراف بان الغاء الاحتلال يجعل السلم والامن في خطر داهم (٥) .

وقد راى اللورد رسل انه من الحكمة ان يتساهل ويظهر رغبة صادقة في التفاهم فاقترح تاريخ ٥ حزيران اخر موعد للجلاء (٦) . وكان الباب العالي قد ارسل تعليماته الى وفيق افندى ، مندوبه في باريس ، لقبول التمديد في ٥ حزيران شرط ان يكون هذا القرار نهائيا مهما تبدلت الظروف (٧) . واذا كانت بريطانيا لم تنجح في مقاومة فكرة تمديد الاحتلال

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١
(٢) " " " ٣٤٢
(٣) تيستا ج ٦ ص ٣٢١ ، المحررات ج ٣ ص ٣٩٠
(٤) المحررات ج ٣ ص ٤٢١
(٥) " " " ٣٩١
(٦) تيستا ج ٦ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣
(٧) " " " ٣٢٢

حتى النهاية فذلك لان الضائقة المالية التي كان يجتازها الباب العالي ٠ والموقف العدائي الذى وقفه بذلك فرنسا ازاءه اضطر الحكومة التركية الى اتخاذ موقف معتدل والموافقة على التمديد ضمن شروط معينة (١)٠ ولكن الامر الذى لا شك فيه هو ان القبول بانهاء الجلاء في ٥ حزيران سنة ١٨٦١ كان اخر تنازل ممكن من قبل الحكومتين البريطانية والعثمانية ٠ وعندما حاول المسيو دى توفنيل ان يجعل بدء الجلاء في ٥ حزيران غضب اللورد غضبا شديدا واعلم سفيره في لندن ان الحكومة البريطانية تعتبر كل تمديد بعد ٥ حزيران خفرا للذمم وعنتا وان على اللورد كولي ، في حالة عجزه من تحقيق ذلك ، ان يطالب الحكومة الفرنسية بتنفيذ اتفاقية ٥ ايلول سنة ١٨٦٠ (٢) ٠ وقد اضطر المسيو توفنيل الى الرضوخ امام العناد الذى ابدته الحكومة الانكليزية في هذا الموضوع ٠(٣)

وفي ١٥ اذار سنة ١٨٦١ اجتمع ممثلو الدول الخمس الكبرى ومندوب السلطان في باريس واتفقوا جميعا على نص اتفاقية تعيين ٥ حزيران اخر موعد للجلاء التام من " سوريا " ٠ وقد حرص مندوبو الروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا على الايضاح بان لجنة بيروت يمكن ان تنجز اعمالها خلال مهلة الاشهر الثلاثة الجديدة ٠ وقد سجلت هذه الملاحظة في بروتوكول المؤتمر للتدليل بصورة غير مباشرة على العلاقة بين الاحتلال الاوروبي واعمال اللجنة (٤)٠ وبذلك طبقت المادة التاسعة من معاهدة باريس سنة ١٨٥٦٠ فابقي حق اوروبة في المراقبة الجماعية بل كرس هذا الحق بصورة نهائية ٠ ولكن الحكومة البريطانية تمكنت من فرض اسلوب طويل معقد على الدول الاوروبية في سبيل التدخل في الامبراطورية العثمانية ، فاشترطت من اجل ذلك اجماع الدول الاوروبية وموافقة الباب العالي بصورة اختيارية محض ٠ فهذان الشرطان كافيان لجعل كل تدخل اوروبي جماعي مستحيلا او لاضعاف فعالية هذا التدخل وفائدته العملية على الاقل ٠

---

(١) المحررات ج ٢ ص ٤٢١

(٢) تيستا ج ٦ ص ٣٢٥

(٣) " " " " ٣٢٥ ــ ٣٢٦

(٤) " " " " ٣٢٨ ــ ٣٣١

الفصـــــــل الرابـــع

اعادة تنظيم لبنان الادارى عــــــــام ١٨٦١

كانت مسالة اعادة تنظيم سوريا تشغل منذ سنة تقريبا بال الحكومات الاوروبية واللجنة الدولية في بيروت والراى العام العالمي . وقد وضعت في هذا السبيل مشاريع كثيرة مختلفة (١).

اما لجنة بيروت فقد ارادت الوصول الى حل عادل للمسالة التي اقلقت بال اوروبة منذ عام ١٨٤٠ . وكان السؤال الذى واجهته منذ البدء هو هل يجب ان يخضع لبنان لسلطة الباب العالي مباشرة ام يجب ان يحفظ استقلاله الذاتي ؟

القسم الاول
مشاريع تنظيم لبـــــنان

١) المشروع التركي :- ومن الطبيعي ان يدافع فؤاد باشا وابرو افندى من النظرية العثمانية وان يعرضا على اللجنة مشروعا يهدف الى تقوية دعائم الادارة العثمانية في "سوريا" والذود عنها بحراب جيش قوى "يبلغ ٢٦ الف جندى ولا ينقص" ويعزز "بفرقة من الفرسان السيارة تؤلف على نسق الفرق المنظمة والغرض منها منع القبائل الرحالة من غزو البلاد واجتياحها".

وقد ارصد المشروع الجديد لهذه القوات المسلحة "واردات الولاية الداخلة في منطقة الجيش" المذكور (جيش البلاد العربية) للانفاق على هذه القوات ، فاذا لم تكف تلك الواردات "يؤخذ من واردات الولايات الاخرى مثل ذلك الدخل لسد العجز".

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٥٨ ـ ٦٢ ، جوبلان ص ٤٥٣

ولم يقتصر مشروع فؤاد باشا على ذلك بل اقترح نظاما شبه عسكري لادارة البلاد بحيث "يعهد الى قائد الجيش العام المذكور .... بالمحافظة على الامن العام ضمن دائرة النقطة العسكرية (٢)" على ان يتفق مع الوالي على جميع التدابير العسكرية التي تقتضيها صيانة الامن العام (٢) . واشترط فؤاد باشا ان تكون شرطة المدن والقرى تحت امرة مشير الجيش ولكنها تخضع في الوقت نفسه الى اوامر الوالي (٣).

ونصت المادة السابعة من المشروع المقترح ان يكون لكل من "ولايتي الشام وصيدا وال خاص" يحكمها بالاستقلال عن الوالي الاخر وان يكون كفوا محنكا .

وقد ارتاى فواد باشا ايضا ان يؤلف في كل ولاية ، لمعاونة الوالي ، "مجلس مختلط يؤخذ اعضاؤه من الطوائف المقيمة في الولاية ويكون للاعضاء صلاحيات معينة" ، و"مجلس مختلط للنظر في الدعاوى الجزائية على ان يكون اعضاؤه من ذوى المعرفة والكفاءة . ونصت المادة العاشرة والحادية عشرة من المشروع الجديد على ان "تؤلف سناجق على شكل مجالس الولايات وان يجرى في كل السناجق، كل سنة ، انتخاب شخص من المسلمين واخر من كل الطوائف المختلطة من المسيحيين واليهود ، من رعايا الدولة العلية ويذهب المنتخبون الى مركز الولاية فينضمون الى مجلسها الاعلى فيتالف هكذا مجلس عام برئاسة الوالي . ويترتب على كل عضو بعد وقوفه على حاجات بلاده ان يبدى رايه فيما يتعلق بالزراعة والتجارة والتدابير اللازمة للمحافظة على الامن وتقرير الاموال الاميرية على ما تقتضيه مصلحة مفوضيه ومصلحة الولاية . ويجب الا يتجاوز مدة هذا الاجتماع الشهرين" . اما السناجق التي لا يتجاوز عدد سكانها الالف فكان لا يحق لها ارسال مندوبين عنها (٤).

غير ان هذا المجلس العام لم يكن له سوى صبغة استشارية لان قراراته لا تنفذ الا بعد ان تعرض على الباب العالي فيختار منها ما يريده للتنفيذ . ولكن فؤاد باشا اراد ان يظهر للدول الاوروبية حسن نوايا الباب العالي فاشترط ايضا ان "يرسل الباب العالي ، كل سنة اثناء انعقاد المجالس العامة ... مندوبا الى سوريا من كبار

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

(٢) " " " " ٢٤٨

(٣) " " " " ٢٤٧

(٤) " " " " ٢٤٧ ـ ٢٤٨

موظفيه كمفتش عام . ومما جاء في المشروع الجديد اخيرا ان يستمر دولة فؤاد باشا في " سوريا " الى ان يتم انشاء المجالس المذكورة (١).

وقد اعجب المشروع التركي اللورد دوفرين على ما يظهر فاقترح انشاء ولاية مماثلة لولاية مصر يعين على راسها فؤاد باشا (٢).

٢) المشروع الفرنسي :- على ان مشروع فؤاد باشا لم يكتب له النجاح وكانت لجنة بيروت الاوروبية تريد ان تحافظ على مبدأ الاستقلال الذاتي للبنان وان توفر له ضمانة اوروبة الجماعية . ولكن كيف السبيل الى تحقيق هذا الاستقلال الذاتي ؟ فالموارنة كانوا يطالبون باقامة حكومة مسيحية موحدة وقد تبنى المندوب الفرنسي رغباتهم فاقترح انشاء امارة مسيحية مستقلة في قسم من لبنان يمتد من الشمال حتى نهر الاولي بالاضافة الى المنطقة الغربية الساحلية بما في ذلك طرابلس وبيروت وصيدا (٣) . ولكن هذا المشروع فشل ايضا كالمشروع السابق .

٣) المشروع الانكليزي :- فتقدم عندئذ اللورد دوفرين الى لجنة بيروت بمشروع يقضي بقسمة الجبل الى ثلاث قائمقاميات (٤) : مارونية ودرزية وارثوذكسية وجعل زحلة والمعلقة تابعتين في ادارتهما المختلطة لوالي صيدا .

وظن اللورد دوفرين ان انشاء القائمقامية الارثوذكسية من شانه اكتساب الروسيا التي كانت تعطف على الروم الارثوذكس وسبق لهما ان طالبت باستقلالهم (٥) . وبالفعل فقد اظهر المندوب الروسي استعداده للموافقة على المشروع الانكليزي . وتضمن المشروع الانكليزي محاولة لتحقيق الاستقلال الذاتي للبنان اذ اقترح اسناد الادارة في كل قائمقامية الى وطنيين من ابناء الطائفة التي تكون اكثر عددا في القائمقامية على ان يعين الباب العالي القائمقام بناء على اقتراح والي صيدا . ونص المشروع ايضا على تجزئة كل قائمقامية الى مديريات يديرها مديرون يعينهم القائمقام ويشترط ان يكونوا

---

(١) المحررات ج ٣ ص ٢٤٨
(٢) " " " ٣٠٤
(٣) " " " ٤٨ ، تيستا ج ٣ ص ٣٦٦
(٤) تيستا ٢٤٨ و ٣٦٠ و ٣٦٥
(٥) المحررات ج ٢ ص ٥٠ ـ ٥١

من الطائفة التي تؤلف الاكثرية • وقسمت كل مديرية الى نواح اشترط ان تتكون كل منها من خمسماية نسمة على الاقل وان يديرها شيخ ينتخبه سكان الناحية • اما في النواحي المختلطة فقد نص المشروع على ان يكون لكل طائفة شيخ خاص لا تتعدى سلطته ابناء طائفته • واعرب المشروع عن الرغبة في ادخال مسيحيي حاصبيا وراشيا ومرجعيون في الاقضية المسيحية • وكي لا يكون التقسيم تدبيرا عاتيا فجائيا فقد اقترح ان يعهد بتنفيذه الى لجنة مشتركة تتمثل فيها جميع الطوائف وتعمل تحت مراقبة السلطة المحلية ومندوبين عن الدول الخمس الكبرى • واشترط ان لا يضغط على احد من الدروز والمسيحيين في سبيل فرض التقسيم بل ان يترك للجميع حرية الانتقال من قائمقامية الى ثانية • واشتمل المشروع البريطاني على اقامة ادارة موحدة منتظمة في لبنان فيتخذ الشيخ في كل ناحية سجلا للنفوس وينتخب في كل قائمقامية مجلس اداري وفي كل مديرية مجلس محلي • ولتفادي طغيان الطائفة التي تؤلف الاكثرية في كل من القائمقاميات الثلاث على الطوائف الباقية فقد نصت المادة ١٥ من المشروع المقترح ان ينتدب لدى كل قائمقام وكيل عن كل من القائمقاميتين الباقيتين لتامين مصالح ابناء طائفته •

ولم ينس المشروع الانكليزي القضاء فقد اعلن مساواة الجميع التامة امام القانون ويضمن تعيين حاكم صلح في كل قضاء وتاليف ست محاكم بدائية ، وانشاء محكمة استئناف يكون مركزها بيروت وتتالف من مارونيين واثنين روم ارثوذكس، واثنين روم كاثوليك ، ودرزيين ومسلمين سنيين ومسلمين شيعيين ، وممثل عن البروتستانت والاسرائيليين اذا كان احد ابناء هاتين الطائفتين فريقا في دعوى او له مصالح فيها • ونص المشروع على انه يحق للفرقاء اذا كانوا من مذهب واحد ، ان يفرضوا اشتراك القاضي المنتمي الى مذهب اخر في دعواهم كما نص على ان تكون جلسات المحاكم عامة وان يعين في كل قائمقامية مدع عام لتبيان الجرائم والجنح والمطالبة بمعاقبة مرتكبيها • واشترط ان يتقاضى الموظفون والقضاة رواتب معينة • واقترح المشروع ان يخصص كامل واردات الجبل للنفقات التي تقتضيها ادارته ومنافعه العامة وان لا تفرض اية ضريبة في اية قائمقامية من القائمقاميات الثلاث علاوة عن الضريبة العامة البالغة ٣٥٠٠ كيس الا اذا وافقت اكثرية المجلس الاداري •

واشار المشروع ، فيما يتعلق بالامن في الجبل ، الى امكانية تامينه تامينا تاما باحتلال طريق بيروت ـ دمشق وبين انمن المرغوب فيه ان تضم القوات المستخدمة في هذا السبيل المسيحيين من رعايا السلطان، كما نص على وجوب انشاء فرقة خاصة من الشرطة في كل قائمقامية تتالف من سكان هذه القائمقامية ٠

واعرب المشروع عن رغبة اللجنة الاوروبية في ان يصار الى نزع السلاح من سكان لبنان على النحو الذى نفذ فيه هذا التدبير في سائر انحاء "سوريا "وان يجرى احصاء صحيح عام لسكان لبنان على اساس طائفي في اقرب وقت ممكن ٠

وقد اوضحت المادة الاخيرة من المشروع الانكليزى اى المادة السابعة والاربعون ان نظام شكيب افندى يبقى نافذا في لبنان في جميع احكامه التي لا تخالف المبادئ المنصوص عنها في المواد السابقة (١)٠

ومن الجدير بالذكر ان جميع اعضاء اللجنة قد وافقوا مبدئيا على مشروع اللورد دوفرين ووقعوا عليه بالاحرف الاولى (٢)٠

القسم الثانـــــي

النظام النهائـــــــي

غير ان المندوب الفرنسي لم يلبث ان ناهض المشروع المذكور في الجلسة السادسة والعشرين للجنة ببيروت المنعقدة في ٢١ اذار سنة ١٨٦١ ذاكرا انه لم يوقع هذا المشروع الا بتحفظ ٠ وبالفعل فقد كان المندوب الفرنسي قد قدم في ٢٠ اذار سنة ١٨٦١ مذكرة اجمل فيها تحفظاته واعتراضاته المبدئية (٣)٠ ومما ذكره المسيو بيكلار : اولا صعوبة تعيين الحدود الجغرافية لكل من ▬ / القائمقاميات الثلاث ثانيا صعوبة التقسيم على اساس طائفي والضرر الذى ينجم عن التقسيم بالنسبة الى المسيحيين ٠ فالمشروع يفصل

---

(١) نيستا ج ٦ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٥

(٢) " " " " ٣٥١

(٣) " " " " ٣٦٥ ـ ٣٦٧

الدروز من المسيحيين ولكنه لا يفصل باقي الطوائف عن بعضها البعض كما لا يفصل المسيحيين عن الدروز . ثالثا مناقضة التدبير المقترح بشأن زحلة لقواعد العدل والمنطق رابعا الشبه بين المشروع المقترح ونظام ١٨٤٢ والاضرار التي نتجت عن النظام الاخير . خامسا ضرورة اقامة سلطة مسيحية موحدة والفوائد التي تنتج عن ذلك على ان تضمن حقوق الاقليات .

وخلاصة القول فان المندوب الفرنسي اقترح انشاء ولاية موحدة مسيحية مستقلة .

وقد وجه المسيو توفنيل في ٤ اذار سنة ١٨٦١ تعميما الى ممثلي فرنسا في لندن وفينا وبطرسبورغ وبرلين دعم فيه موقف المسيو بيكلار وطلب اليهم بذل اقصى ما في وسعهم لدى حكومات البلدان التي يمثلون بلادهم فيها لحملها على تاييد وجهة النظر الفرنسية (١).

وعلى اثر المخابرات والاتصالات الدبلوماسية العديدة التي جرت بين وزارات خارجية الدول الخمس الكبرى وممثليها وافقت الروسيا والنمسا ثم بروسيا وانكلترا على المشروع الفرنسي موافقة عامة (٢).

وعند ذلك طرحت على بساط البحث مسالتان مهمتان هما مسالة تعيين حاكم لبنان ومسالة تعيين حدود الولاية الجديدة .

١) <u>حاكم لبنان .ـ</u> فقررت اللجنة ان يكون الحاكم العام مسيحيا . ولكن اثيرت عندئذ مسالة جنسية الحاكم . فرأت فرنسا ان يكون لبنانيا مارونيا وايدتها في ذلك النمسا والروسيا . فتناقش الاعضاء طويلا في الامر . فلم تعارض بروسيا الاتجاه الفرنسي مبدئيا ولكنها ربطت موافقتها بموافقة الباب العالي . اما بريطانيا فقد رفضت الراي الفرنسي رفضا باتا (٣). واقترحت اختيار حاكم لبنان من رعايا السلطان غير اللبنانيين كي لا تكون له علاقات عائلية او طائفية في البلاد

---

(١) تيستا ج ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨
(٢) " " " " ٣٨٨ ـ ٣٨٩
(٣) " " " " ٣٨٥ ـ ٣٨٧

ولتتوفر فيه صفتا التجرد والحياد على اكمل وجه • كذلك عارض المندوب التركي الاقتراح الفرنسي • وقد انتصرت في النهاية نظرية بريطانيا وتركيا كما ظفرت فرنسا بالموافقة على ان لا يذكر ذلك في النظام المنوى اقراره وان يكتفى بالاشارة الى انه يجب ان يختار الباب العالي حاكم لبنان من رعاياه المسيحيين دائما وان توافق الدول الكبرى على هذا الاختيار (١)•

٢) الحدود •ـ كان معظم اعضاء اللجنة يميلون الى توسيع رقعة الولاية اللبنانية الجديدة الى اقصى حد ممكن • ولكن المندوبين الانكليزي والتركي قاوما هذا الاتجاه بكل ما في وسعهما • وتم الاتفاق بعد ان رفعت الولاية الجديدة الى درجة متصرفية ، ان تشمل ابتداء من الجنوب اقليم التفاح وجزين والشوف والمتن وكسروان والكورة (باستثناء القلمون) واخيرا مثلث اهدن ـ بشرى ـ زغرتا • اما بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع فلم يوافق على ضمها الى المتصرفية • وقد كان لهذا التدبير فيما بعد اسوأ الاثر في حياة لبنان الاقتصادية •

٣) تقسيم المتصرفية •ـ وعندما تم الاتفاق على مسالتي حاكم لبنان والحدود اصبح من السهل البت في القضايا الباقية • فاتفق على تقسيم المتصرفية الى ستة اقضية يشتمل الاول على الكورة والاراضي المجاورة لها باستثناء القلمون والثاني على منطقة لبنان الشمالية حتى نهر الكلب وباستثناء الكورة ، والثالث على زحلة واراضيها والرابع على المتن بما في ذلك ساحل النصارى واراضي القاطع وصليما والخامس على الاراضي الواقعة جنوبي طريق دمشق ـ بيروت حتى جزين والسادس على جزين واقليم التفاح • (المادة الثالثة) (٢)•

واتفقت اللجنة ايضا على ان يكون قائمقامو كسروان والمتن وجزين من الموارنة دائما وعلى الاقل من المسيحيين وان يكون قائمقام الشوف درزيا وقائمقام الكورة ارثوذكسيا وقائمقام زحلة كاثوليكيا (٣)•

---

(١) تيستا ج ٦ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧

(٢) " " ز" " ٢٨٧

(٣) " " " " ٣٢٩

وقام جدال عنيف بشأن بلدة دير القمر والقرى الواقعة في ضواحيها . فقد كانت تدخل في نطاق قضاء الشوف ، ولكن سكانها كانوا من المسيحيين واكثرهم موارنة . وانتهى الامر بفصل الدير عن الشوف الدرزي وجعلها مركزا للمتصرفية وخاضعة له بصورة مباشرة .

التنظيم البلدي :- واهتمت اللجنة الدولية بالتنظيم البلدي فتقرر وضع شيخ على راس كل ناحية ينتخبها اهلها ويعينه المتصرف ، دون ان تحدد صلاحياته بصورة واضحة ودون ان يحدد النظام البلدي . اما في النواحي المختلطة فقد تقرر ان يكون لكل فريق شيخه الخاص وان تقتصر سلطة كل شيخ على ابناء طائفته .

٥) المتصرف ومجلس الادارة :- اعطي حاكم لبنان صلاحيات واسعة النطاق فكانت له السلطة التنفيذية والادارية والاشراف على الامن وكان له حق تعيين جميع الموظفين والقضاة وحق جباية الضرائب . وقد وضعت اللجنة الى جانب المتصرف وكيلا عن كل طائفة يختاره الوجهاء والاعيان مستوحية ذلك من مشروع اللورد دوفرين الذي سبق الكلام عنه ، كما اقامت مجلس ادارة مركزي يجتمع بناء على دعوة المتصرف الذي يراسه . اما مهمة هذا المجلس فهي ابداء رايه في جميع القضايا العامة التي يعرضها عليه المتصرف . ويتالف المجلس من ١٢ عضوا يثبتهم المتصرف بعد ان ينتخبهم رؤساء طوائفهم . بالاتفاق مع الاعيان . وتقرر كذلك انشاء مجالس ادارة محلية تعاون القائمقامين في اعمالهم . وكان كل من هذه المجالس يتالف من ثلاثة الى اربعة اعضاء يمثلون جميع الفئات ولا سيما ملاكي الاراضي . وكان على القائمقامين ان يرأسوا هذه هذه المجالس المحلية ويدعوها الى الانعقاد مرة كل سنة لحل المشاكل الادارية والاستماع الى شكاوى الاهالي وتقديم الاحصاءات اللازمة لتوزيع الضرائب في الاقضية ولابداء الراي في جميع الشؤون ذات المنفعة العامة .

٦) القضاء :- وقد تبنت لجنة بيروت الاحكام القضائية التي تضمنها مشروع اللورد دوفرين . فانشئ مجلس قضائي اعلى وتقرر ان يجلس في دير القمر مركز المتصرفية لا في بيروت كما نص المشروع الانكليزي . وتقرر ان يقوم رؤساء كل طائفة ، بالاتفاق مع اعيانها ، باختيار حكام الصلح وان يثبتهم المتصرف وان يتقاضى جميع ~~القائمقام~~ (القضاة) رواتب معينة .

وتقرر ايضا ان ينزل بالقاضي الذى يقبل الرشوة او يرتكب عملا يتنافى وكرامة وظيفته العقاب الذى يتناسب مع ذنبه .

وتم الاتفاق ايضا على ان الرعايا اللبنانيين الذين يرتكبون جنحا او جرائم خارج الاراضي اللبنانية يحاكمون حيث اقترفوا ذلك ،كما ان لرعايا العثمانيين الذين يقعون تحت طائلة القانون اللبناني داخل الاراضي اللبنانية يمثلون امام المحاكم اللبنانية . واتفق ان تتعاون السلطات اللبنانية والسلطات العثمانيةعلى ملاحقة المجرمين والمتهمين . وقررت اللجنة ان كل دعوى في موضوع تجارى تنظر بها محكمة بيروت التجارية . كما تنظر بكل دعوى بين لبناني واجنبي .

٧) الشرطة اللبنانية :- وتقرر ايضا وفاقا للمشروع الانكليزى ايجاد مفرزة من الشرطة الخاصة تؤلف من السكان عن طريق التطوع ، وعلى اساس شرطي واحد لكل الف نسمة ، وتكون تحت قيادة المتصرف فقط . واشترط ان تقوم القوات العثمانية باحتلال طريق بيروت - دمشق وصيدا طرابلس ريثما يتم تاليف الشرطة اللبنانية . وقد اعطي المتصرف حق مصادرة قوات عثمانية لدى السلطات العسكرية التركية في سوريا ، بعد استشارة مجلس الادارة المركزى ، وذلك عند الضرورة القصوى اى عندما تضطرم في البلاد نار فتن خطيرة . واتفق ان يكون قائد هذه القوات خاضعا للمتصرف طيلة مدة اقامته في الجبل وان لا يقوم باى عمل الا بايعاز منه ، كما اتفق ان تنسحب هذه القوات فور صدور تعليمات الحاكم العام بهذا الشان .

٨) الضرائب :- واقرت اللجنة الضرائب التي كانت مفروضة من قبل وهي تبلغ ٣٥٠٠ كيس سنويا يقدمها لبنان للباب العالي . واتفق انه بالامكان رفع المبلغ الى سبعة آلاف اذا كانت الظروف موآتية . وقد اعلنت اللجنة بصورة جازمة ان هذه الضرائب تخصص قبل كل شيء لتامين نفقات الادارة والمصالح العامة اللبنانية، وما يزيد على ذلك يدفع للخزينة التركية . اما اذا زادت النفقات على الواردات ، فالباب العالي يتعهد بتامين الفرق في الحالات التي يكون فيها قد وافق على النفقات الزائدة . وهنا ايضا نجد شبها كبيرا بين المشروع الانكليزى والنظام الجديد .

٩) مشروع نظام عام ١٨٦١ وانتقال اللجنة الى القسطنطينية :ـ

وعندما انتهت اللجنة من جميع هذه المسائل صاغتها في مشروع عام ادخلت فيه شتى مقرراتها ووافقت عليه بكامله في ١ ايار سنة ١٨٦١ ٠ وتم الاتفاق على ان يعرض هذا المشروع على سفراء الدول الاوروبية في القسطنطينية في موءتمر يشترك به مندوب عن السلطان ٠ وفي ٥ ايار سنة ١٨٦١ انتقل اعضاء اللجنة الاوروبية الى استامبول حيث نوقش المشروع ٠ فتم الاتفاق نهائيا على ان يكون لبنان مقاطعة مستقلة استقلالا ذاتيا ، منفصلة عن جميع مقاطعات الامبراطورية العثمانية وان يختار السلطان الحاكم العام من رعاياه المسيحيين في الامبراطورية ٠ وجرى التوقيع على الاتفاق في بيرول في التاسع من حزيران سنة ١٨٦١ ٠ وقد وقعه مندوبون عن تركيا وانكلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا والروسيا (١)٠

واضيفت الى هذا البروتوكول مادة تتعلق بجمع الضرائب ، اذ لاحظ مندوب الباب العالي انه من الخطأ جعل حد اقصى للضرائب المباشرة المفروضة على المقاطعة المستقلة الجديدة ، لان حكومتها ستعمل ولا شك على ازدهار البلاد الاقتصادى وستعمد في سبيل ذلك الى توسيع شبكة الطرق وتحسين الادوات الزراعية ، مما يسبب نفقات باهظة تزيد على الحد الاقصى للواردات التي نص عليها الاتفاق ، فهل يتوجب على الخزينة التركية ان تتحمل في هذه الحال تامين العجز ، دون ان يكون لها حق في زيادة الضرائب على مقاطعة اصبحت غنية وقادرة على تحمل ضرائب جديدة ؟ فاقتنعت اللجنة بوجهة النظر التركية واجابت المندوب التركي الى رغبته ٠ ولكنها اخضعت ذلك الى ضرورة المحافظة على التوازن بين الواردات والنفقات (١)٠

١٠) البروتوكول النهائي وتصريح عالي باشا : وقد وقع في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ بروتوكول يتعلق بابرام النظام الجديد وطريقة تعيين المتصرفين ٠ فاتفق ان يعلن هذا الاتفاق بشكل فرمان يصدره السلطان ويبلغ رسميا لجميع الدول ٠

---

(١) تيستا جزء ٦ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

وقدم عالي باشا ، ممثل السلطان ، فيما يتعلق بالمتصرف ، تصريحا خطيا ضمه الى بروتوكول ٩ حزيران سنة ١٨٦١ · وقد جاء في هذا التصريح ان الحاكم المسيحي المكلف بادارة لبنان يعينه الباب العالي ويرجع اليه مباشرة ويكون له لقب مشير ويقيم عادة في دير القمر التي تخضع له مباشرة · وتكون مدة تعيينه ثلاث سنوات · الا انه يمكن عزله اثر محاكمة · وقبل انتهاء مدته بثلاثة اشهر لا يعين الباب العالي خلفا له ولا يعلن انتهاء مدته الا بعد التشاور مع الدول الاوروبية ·(١)

(١) تيستا ج ٦ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤